جامعة الجزائر 2 أبو القاسم سعد الله
كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية
قسم علم الاجتماع

في إطار إعداد مذكرةلنيل شهادة الدكتوراه بعنوان

"علاقة الزاوية بالأضرحة المجاورة بمدينة الأبيض سيدي الشيخ "

إعداد الطالبة
خذيري عبلة

إشراف الأستاذ الدكتور
نورالدين حقيقي

السنة الدراسية:2016 .2018

شكر وتقدير

يعجز اللسان و يتعطل العقل و يجف القلم في تقدير
و شكر
الأستاذ الدكتور نور الدين حقيقي
الذي كان معي طيلة هذه الدراسة حتى تجسدت
على أرض الواقع
وأنار لي الطريق خطوة بخطوة حيث أنه أغرقني
بعلمه الواسع
وفقك الله وسدد خطاك
إلى كل من ساعدني من قريب أو من بعيد

عبلة خذيري

الإهداء

إلى معيني في هذه الدنيا

إليك وحدك يا الله

أهدي عملي المتواضع هذا

احبك حبين حب الهـــــــــــــوى وحب
لأنك أهـــــل لذاكـــا
فأما الذي هو حب الهـــــــــــــوى فشغلي
بذكرك عمن سواكا
و أما الذي أنت أهل له فكشفك لي الحـــــــجب
حتى أراك

أبا الحسن الشاذلي

محتوى الدراسة

شكر وتقدير	
إهداء	
مقدمة	أ
الفصل الأول:الإطار المنهجي للدراسة	
1- الإشكالية	6
2 – الفرضيات	9
3- أسباب اختيار الموضوع	9
4- أهمية الدراسة	9
5- أهداف الدراسة	10
6- تحديد المفاهيم والمصطلحات	10
7- الدراسات السابقة	16
8- صعوبات الدراسة	24
الفصل الثاني : التصوف	
1– نبذة تاريخية عن التصوف	27
2- دراسات أساتذة و مفكرين حول التصوف	43
3- الأصول التاريخية للطرق الدينية	46
4- دور الطرق الصوفية في المجتمع الجزائري	53
5- مقامات التصوف	65
6- أماكن اجتماع الصوفية	66
7- لمحة تاريخية عن الهيئات التي اسسها شيوخ الزوايا في الجزائر	68
الفصل الثالث: الاضرحة في المجتمع الجزائري	
1 – نبذة عن حياة سيدي الشيخ	76
2- تأسيسه للزوايا	77
3- مكانة التصوف عند سيدي الشيخ	83
4- اهم كرامات و بركة سيدي الشيخ	89
5- ركب مدينة الابيض سيدي الشيخ	94
6- أضرحة الأولياء عبر مختلف الديانات	100

7- أنواع الأضرحة	110
8- ضريح سيدي الشيخ وعلاقته بالمجال السوسيولوجي	113
9- دور العثمانيين في انتشار الأضرحة والزوايا في الجزائر	118
10– ظاهرة بناء الأضرحة وتقديسها	122
الفصل الرابع: الزوايا في المجتمع الجزائر	
1- ظهور الزوايا و تطورها	136
2- أنواع الزوايا في المجتمع الجزائري	142
3- دور الزوايا في الجزائر	147
4- السياسة الاستعمارية اتجاه الزوايا	156
5- دور الزوايا والحفاظ على الشخصية الوطنية	160
6- دور الزوايا ومناهجها في التعليم	168
7- سياسة الإدماج	171
8- دور الزوايا بعد الاستقلال	175
9- إصلاح الزوايا	177
10- الوظائف المؤسسة للزوايا	183
11- العلاقات القرابية داخل مؤسسة الزاوية	206
الفصل الخامس الجانب الميداني	
1- الدراسة الاستطلاعية	226
2- المنهج المتبع	227
3- أداة البحث	231
4- مجالات الدراسة	143
5- عرض وتحليل البيانات	237
6- خاتمة	265
7- المراجع	
8- الملاحق	

مقدمة:

تعتبر ظاهرة الطرق الصوفية من الظواهر الاجتماعية الجديرة بالاهتمام من حيث ثبوتها عبر الزمان والمكان فحول موضوعها اشتغل الباحثون بكثافة بهدف استكشاف محتواها التركيبي والعقائدي لتعرف قدرا لا بأس به من المداخلات في المناقشة العلمية حول ظهور عدة طوائف وجماعات وفرق إسلامية لكل منها منهجيتها وطريقتها الخاصة في التفكير والتعبير وتنظيم شؤونها وبانتشار هذه الطرق الصوفية كان لزاما على أصحابها بأن يقيموا مكانا خاصا لتثبيت أفكارهم الصوفية لتقدم إلى مختلف فئات المجتمع وكان المكان المخصص لهذه الطرق الصوفية محددا بحيز يدعى بالزاوية وهو معرف في المغرب العربي (بالرباط) وفي المشرق العربي (بالخنقاة)[1].

إن أهمية موضوع الزوايا وقيمته العلمية التي اتخذت من التصوف على امتداد التاريخ الإسلامي أشكالا متعددة سواء دينية واجتماعية أو سياسية تراوحت تشكلاتها بين التصوف الفردي والتصوف المؤسساتي.

تحمل كلمة التصوف بين طياتها عالما فريدا من الرؤى النورانية الشفافة كما تشير إلى نمط من الفكر والسلوك يتميز بخصوصية شديدة .. وإذا كانت الحياة الصوفية تعكس أعمق وجهات النظر تجاه الوجود الدنيوي فإنها تمثل أيضا أعلى مظاهر التقوى الدينية النابعة صدق الرابطة بين الإنسان وخالقه و ما كنا بصدد دراسة التصوف والطريق الصوفي فإنه يجوز لنا في البداية أن نتوقف عند تساؤلات مثل ما هو التصوف؟ وما مفهومه الحقيقي؟ وما جدوى البحث في هذا الميدان؟ وحول المحور الأول من التساؤلات نقول ان التصوف ضرورة فهو يمثل الجانب الجواني في حضارة هذه الأمة فبين شتي المذاهب والاتجاهات التي تعاقبت عبر التاريخ الممتد لقرون الإسلام كان التصوف هو الضمير النابض الذي أشاع الصدق في وجدان الأمة وكان الصوفية هم فقهاء القلوب الذين وضعوا قواعد المعاملة بين الإنسان والله وبين الإنسان والإنسان على ارض اليقين الراسخ والأخلاق الحقيقية واعتبروا أن الباطن هو ما يتشكل به الظاهر تشكلا صحيحا فكانوا دوما ينفذون من قشور الأشياء إلى لبابها قائلين المدار من القلب والتصوف ضرورة لأنه منتهي السعي الصادق في كل الدروب وما من خطى تحث لبلوغ الحقائق إلا وكان

[1] طارق كمال، أساسيات في علم الاجتماع الديني، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، بدون طبعة، 2009، ص5.

التصوف غايتها ومنتهاها ولهذا نجد ابن سينا وهو الطبيب المتفلسف ينتهي بسيره العقلي الجارف إلى شاطئ التصوف ونجد الغزالي وهو الفقيه الأشعري يخرج من متاهاته الفكرية بالعكوف تحت ظلال التصوف ونجد ابن خلدون المؤرخ الاجتماعي يخلص من مقدمته الشهيرة ومن (كتاب العبر والديوان المبتدأ والخبر) ليكتب (شفاء السائل) في التصوف[2].

والتصوف ضرورة من حيث كونه حقيقة العبادات فلو ظلت شعائر الدين لدى المتدين قاصرة على الرسوم والأشكال الظاهرة فان ينابيع الإيمان تنطمس في قلبه أن التصوف يقف بنا على حقيقة مهمة تقول بتلازم القلب والجوارح ففي فرض كالصلاة لا يتسنى للعبد تأديتها على وجه الحقيقة من لم تعرج به صلاته عن كل ما سوى الله[3].

يقول عبد الحكيم عبد الغني محمد قاسم:في دنيا الصوفية ترى قطبها و)غوثها عاش يعبد ربه ويسعي لمحبته ويطلب رضاء وحبه هو أبو يزيد السطامي في دنيا الصوفية تسمع عن مرسى أبو العباس وعطاء السكندري وتحس بأنفاس بشر الحافي الذي قال الذي قال عنه حجة الإسلام الإمام الغزالي رحمه.

لقد اختلف العلماء في مفهوم التصوف فمثلا يوضح لنا المصري بان أحوال ومعاملة وكلام الصوفي هي حقيقته الواضحة وأن علاقاته الدنيوية من متاع وزخرف ومتعة منقطعة تماما وأن أحواله ومعاملاته وكلامه تدل على ما في داخله بقوله "الصوفي هو إذا نطق كان كلامه عن حاله فهو لا ينطق بشيء إلا أن كان هو ذلك الشيء".

ويعد المغرب العربي والجزائر خاصة من بين أكبر البلدان الإسلامية احتضانا بالظاهرة الأضرحة والمزارات فلا تكاد تجد تلا وسهلا ولا قرية ولا مدينة إلا وقد شيد فيها ضريح أو مزار إلى حد الذي وصف فيه المغرب ببلد المائة ألف ولي ومن هذا نقول أن التصوف والوعد والولاية كان خطاب أزمن اجتماعية بامتياز ومنفذ للهروب من واقع متأزم بحثا عن بدائل تعيد التوازن بين الذات والسلطة والمال ورغد الصين المفقود وترتبط زيارة الأضرحة بطقوس ثانية متمثلة في تقبل أركان الضريح والطواف بقدمين جافيين حول التابوت الذي يظم فبشر الوالي والتمسح بالرداء الذي يوجد فوقه، ثم تقديم الهدية التي تختلف باختلاف الطلب، فهي تبدأ بعودين من السمع أو البخور، وقد تصل إلى حد التضحية برأسيين الضم أو النقد أو بصفة قطع نقدية.

---

[2] يوسف طه محمد زيدان، الطريق الصوفي و فروع القادرية بمصر، دار الجيل بيروت، ط 1، 1991، ص ص 6،7.

[3] يوسف طه محمد زيدان، الطريق الصوفي و فروع القادرية بمصر، دار الجيل بيروت، ط 1، 1991، ص 7.

ولقد أصبحت الزاوية اليوم تشكل حيزا واسعا من حياة فهي أفراد المجتمع الجزائري فقد أضحت مصطلح يشكل ويجسد ظاهرة اجتماعية فرضت نفسها عبر مراحل مختلفة من خلال اجتهادات رواد مشايخها لتصل إلى ما هي عليه الآن.

ومن خلال هذا المطلق تناول بحثنا عن موضوع الزوايا والأضرحة بصفة عامة ولا يتوقف الأمر على كون الزاوية مكان يرتاد والمريدين الزيارة ضريح ولي صالح فقد تعداها ليصبح مجموعة من الممارسات والطقوس التي أفرزت العديد من الطقوس لمزيد الطريقة الشيخية[4].

[4] يوسف طه محمد زيدان، الطريق الصوفي وفروع القادرية بمصر، دار الجيل بيروت، ط 1، 1991، ص ص 6،7.

1- إشكالية الدراسة :

الطرق الصوفية ظاهرة إسلامية لا تعترف بالحدود السياسية بين الدول والشعوب ولا بالقوميات والانتساب، وهي أوسع مجالات من الوطنية الضيقة بل هي أفسح ميدان يعبر فيه المريد عن شجونه ويتحرر بها من خصوصياته الضيقة في سبيل خصوصيات جماعية هادفة، إذن من أهدافها الجمع لا الفرقة والألفة وإذا ما نظرنا من الناحية الاجتماعية فنجد أن الطرق الصوفية عملت على إزالة الخلافات بين مختلف فئات المجتمع وفك النزاع بين العشائر والقبائل وإزالة الفوارق، وبذلك كثرت في المدن والأرياف الأضرحة والزوايا والفئات التي نؤدي دورا اجتماعيا كإيواء الصخرة والمساكن والغرباء ليكون بذلك الشيخ الذي يترأس أو يمثل الطريقة الصوفية المسئول والحاكم بين الأفراد ولذلك يفصل في جميع القضايا والخلافات الاجتماعية[1].

ولقد تناولت الكثير من الدراسات تاريخ الطرق الصوفية، فمنهم مديري أنها مجتمع مغلق مبني على عصبية دينية قبلية منهم من يري أنها فئة تشبه الجماعة الضاغطة تستند على الدين لتحقيق أهداف دنيوية في السياسة والمصالح الأخرى، ومنهم من يرى أنها مركز للإشعاع الروحي والعلمي ومنها للهدايا والفضيلة والأخلاق والقيم النبيلة وهناك من يرى بأنها رؤية جديدة للدين تهدف إلى ترسيخ تعاليم الإسلام والدعوة أو العودة إلى السنة المحمدية في الحياة وفي المقابل هناك من يرى أن في زواياها أو كار للبدع والخرافات وبؤر للمفاسد ومنها للعادات السيئة التي تشيد الفرد إلى الوراء، إن هذه الطرق الصوفية ظهرت في مختلف مناطق الجزائر ومنها الرحمانية والهبرية والتبادلية والتجانس والقادرية[2].

وقد وضح لنا المستشرقون معنى التصوف وخصائصه العامة بأنه فلسفة حياة وطريقة في السلوك الفردي لتحقيق المثالية الأخلاقية والسعادة النفسية ويصعب التعرف على حقائقها بألفاظ اللغة العادية لأنها وجدانية ذائبة ويرى كبار الباحثين في التصوف ومنهم عالم النفس الأمريكي وليم جيمس إن للتصوف عدة خصائص هي:

- أحوال إدراكية وهي الهامات تأتي للمتصوف وليس معرفة برهانيه.

---

(1) محمد أحمد بيومي، علم الاجتماع الديني، دار المعارف الجامعية، الإسكندرية، 1994، ص 9.

(2) زيزاح سعيدة، (الرحلة التاريخية لظاهرة الصوفية من الشرق إلى المغرب)، الملتقى الدولي حول الطرق الصوفية في ظل التغير الاجتماعي، قسم علم الاجتماع، جامعة عمار ثليجي، الأغواط، 19-20 أفريل 2009.

- أحوال وجدانية يصعب نقلها إلى الآخرين في مضمون لفظي دقيق.
- بقاء هذه الأحوال وهي قصيرة في ذاكرة التصوف.
- لا تحدث بإرادة المتصوف وأنها خاضعة لقوة خارجية تسيطر عليها[1].

إن كلمة تصوف من الكلمات الغمضة التي تعددت تعريفاتها ومفاهيمها، ويرجع ذلك إلى تداولها بين الديانات المختلفة والحضارات الإنسانية على مر العصور التاريخية كما إن كل صوفي يخضع تعبيره للتجربة التي خاضها في إطار ما يسود عصره من أفكار ولا يخضع لحضارة مجتمعه من تطور أو اضمحلال وإن هذه الكلمة لا ترد في اللغة العربية كما لا يوجد لها أصلا في كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام كما أن الباحثين لم يجمعوا على تعريف شامل جامع لها .

ولقد اخترت الطريقة الشيخية لتكون كمثال لأحد الطرق الصوفية التابعة للطريقة الشاذلية أسسها الشيخ عبد القادر بن أبي سماحة وهو من رجالات العلم والتصوف والجهاد بالجزائر وقد عرفت الزاوية شهرة واسعة في ظرف وجيز وعم نفوذها مناطق كثيرة في الوطن وتعرف الزاوية حاليا ديناميكية مسنودة وحركية واسعة في مجال تعاليم القرآن الكريم، ونشر العلم وتربية الأجيال على المبادئ والقيم الإسلامية الأصيلة وتقديم خدمات جليلة للمجتمع المدينة والقادمين إليها من بعيد متبعة في ذلك منهج السادة الصوفية كذلك بصمت وبعيدا عن الأضواء والبحث عن الشهرة الزائلة ودون انتظار المقابل من أحد، ونحن عندما نتحدث عن الزاوية، نتحدث عن الكيان البشري أي اجتماع بشري محقق لشرط النهضة عامل على الحضور الفعلي والواقعي يتفاعل مع الأحداث ويقدم البدائل ويشارك في عمل التغيير، نتحدث عن واقع تاريخي وثقافي وحضاري اجتماعي ثم تجسيده وبنموذجية عالية في عهد المؤسس سيدي الشيخ[2].

من خلال ما سبق تبلور لدينا التساؤل العام هل الزاوية سيدي الشيخ والأضرحة المجاورة لها نفس الدور الذي كان لهما في مراحل سابقة من تاريخ المغرب العربي؟.

ما مدى تأثيرهما سواء تاريخيا أو سياسيا أو اجتماعيا على المجتمع الجزائري؟.

---

(1) عبد الحكيم عبد الغني قاسم، المذاهب الصوفية و مدارسها، ط2، مكتبة مدبولي، 1999، ص 15.
(2) قلوم مكي، "الزوايا في غياب السلطة"، جريدة الحقيقة العدد 1 سنة 1992، ص 10.

الأسئلة الفرعية:

- الزاوية هل تستمد شرعيتها من نمط الوعي السائد بالمجتمع أم ارتباطها بالشرعية الدينية للدولة كمساعدة وكوسيلة لتحقيق التوازن.

2 - الفرضيات :

2-1- زاوية سيدي الشيخ ومحافظتها على طابعها العمراني من أضرحة مجاورة لها رغم التطور.

2-2- محافظة زاوية الأم على مكانتها من خلال الاحتفالات التي تقام كل سنة.

3- أسباب اختيار الموضوع:

لقد تم اختيار هذا الموضوع نظرا للعديد من المظاهر المنتشرة فيما يخص هذا الموضوع وذلك من خلال:

- إدراج البحث ضمن إحياء التراث الأدبي والصوفي والاهتمام بأعلام مدينة البيض خصوصا لما لها من مكانة علمية متميزة ولمساهمة أعلامها في تنشيط الحركة الفكرية والعلمية.
- معرفة السر الكامن وراء استمرارية الزاوية من الوجهة السوسيولوجية والأنتروبولوجية.
- المعايشة الواقعية لعادات ومعتقدات المجتمع.

4- أهمية الدراسة:

- يأخذ هذا الموضوع قيمته وأهميته من جوانب مختلفة منها الاجتماعي والعقائدي لظاهرة الزوايا والأضرحة، باعتبارها جزء من عادات ومعتقدات مجتمع بحالة.
- يتيح لنا معرفة أسباب استمرار الظاهرة: وتمسك المجتمع وكذلك عودة مظاهر الصوفية بطريقة قوية.
- الحث على المزيد من البحوث والدراسات حول ظاهرة الزوايا والأضرحة.

5- أهداف الدراسة:

- بروز وطرح ظاهرة التصوف وتعدد مظاهرها من خلال ظاهرة الزوايا وأعضائها بعد علمي.
- المساهمة ولو قليلة في إثراء البحث العلمي والمكتبة الجامعية.

6- تحديد مفاهيم الدراسة:

إذا كانت الرموز والمصطلحات في مجال العلوم الطبيعية تتسم غالبا بالثبات والحصر والوضوح، فإن الأمر في العلوم الاجتماعية على خلاف ذلك، فالعلوم الاجتماعية[1] تعج بالعديد من المفاهيم والمصطلحات التي تتباين، وتعدد التعريفات والتصورات التي تعطي لها باختلاف المواقع الإيديولوجية والمذاهب السياسية، والمدارس الفكرية فالمفهوم الواحد يكون له أكثر من تعريف الأمر الذي يخلق الفوضى والاضطراب أحيانا في البحث الاجتماعي[2].

1- التصوف:

المدلول اللغوي والعلمي للتصوف: كثرت الأقوال في اشتقاق التصوف عند المسلمين على عدة أقوال أشهرها : أنه من الصوفة، لأن الصوفي مع الله أن الصوفة المطروحة لاستلامه الله تعالى.أنه من الصفة، إذ أن التصوف هو اتصاف بمحاسن الأخلاق والصفات وترك المذموم منها، أنه من الصفة، لأن صاحبه تابع لأهل الصفة الذين هم الرعيل الأول من رجال التصوف (وهم مجموعة من المساكين الفقراء كانوا يقيمون في المسجد النبوي الشريف ويعظم رسول الله من الصدقات والزكاة طعامهم ولباسهم).

أنه من الصف فكأنهم في الصف الأول بقلوبهم من حيث حضورهم مع الله ونسابقهم في سائر الطاعات، أنه من الصوف، لأنهم كانوا يؤثرون لبس الصوف الخشن للتقشف والاختزان.

إن التصوف MYSTIK يوصف بأنه "اكبر تيار روحي يسري في الأديان جميعها" وبمعنى اشمل يمكن تعريف التصوف بأنه إدراك الحقيقة المطلقة سواء سميت هذه الحقيقة حكمة أو نور أو عشق أو عدم.

إن هذه المسميات تظل أحسن حالاتها مجرد معالم في الطريق لان الغاية عند المتصوفة حقيقة لا يمكن وصفها ويمتنع إدراكها أو التعبير عنها بالمدارك و الأساليب العادية فلا الفلسفة قادرة على أن تحيط بمفاهيمها ولا العقل بل بصيرة القلب هي التي تجليها, فالتصوف يمكن أن يعرف بأنه"حب المطلق"فبذلك الحب يمكن قلب المحب من الاتصال بالحضرة الإلهية كالصقر يحمل صيده بعيدا و يجعله يغيب عن حاضره.

---

(1) إبراهيم أبراش، البحث الاجتماعي، قضاياه، مناهجه، إجراءاته، مراكش، منشورات العلوم القانونية والاقتصادية والاجتماعية، سلسلة الكتب، العدد 10- 1994، ص ص 174-176.

(2) ابن تيمية، الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، منشورات محمد علي بيضون لنشر كتب السنة والجماعة، دار الكتب العلمية، 2000، ص 24.

وعلى الرغم من ان التجربة الصوفية تشابهت أوصافها إلا انه من الأفضل الفصل بين نمطين رئيسين منها أولهما "صوفية اللاحدود" وثانيهما "صوفية استبطان الذات" وخير مثال للنمط الأول أوضحه يتمثل في الأفلاطونية وفي النصوص الدينية الفيداتية الهندوسية وعلى الأخص في فلسفة شان كرا ، وتتشابه مع هذا النمط بعض تيارات الصوفية التي تطورت تحت تأثير فكر ابن عربي والتي يعرف فيها بأنه " وجود كل الوجود" بل أحيانا بأنه العدم لأنه لا يمنك وصفه من خلال أي نوع من التفكير المحدود فالذات الإلهية لا متناهية وبلا زمان وبلا مكان وهو الوجود المطلق وهو الحقيقة المطلقة أما العالم فانه على العكس من ذلك له واقع محدود وهو يستمد وجوده المحدود من الوجود الإلهي المطلق[1].

ويقول الداعية محمد هداية: التصوف بمعناه اللغوي أي التزهر فنحن يجب أن نكون هكذا، أما التصوف بمعنى الشرك بالله وما يتبعه من مظاهر مثل مسح عتبات المساجد والصلاة في مساجد معينة فهو ليس من الإسلام في شيء.

وقد أرجع بعض الباحثين والمؤرخين المختصين بعلوم الديانات القديمة من غير الصوفية الكلمة إلى أصل يوناني هو كلمة "سوفيا" ومعناها الحكمة وأول من عرف بهذا الرأي البيروني[2].

المدلول الاصطلاحي للتصوف:

كثرت الأقوال أيضا في تقرير التصوف تعريفا اصطلاحيا على آراء متقاربة، كل منها يشير إلى جانب رئيسيي في التصوف والتي منها:

قول زكريا الأنصاري: التصوف علم تعرف به أحوال تزكية النفوس، وتصفية الخلاق وتعمير الظاهر والباطن لنسل السعادة الأبدية[3].

كما يقول ابن عجيبة أن التصوف هو صدق التوبة إلى الله بمال يرضاه ومن حيث يراه ولقد كادت كتب التصوف تجمع على أنه صدق التوجه برا الله سبحانه وتعالى[4].

- التعريف الإجرائي:

---

(1) محمد إسماعيل السيد و رضا حامد قطب ، الأبعاد الصوفية في الإسلام و تاريخ التصوف، ط1، منشورات الجمل كولونيا (المانيا) ، بغداد، 2006، ص 8.

(2) من ويكيبيديا، الموسوعة الحرة http://a.r.wikipedia-org/wikid9.85, p90

(3) ويكيد الحرة: http : wik. Pedia-org

(4) السيد يوسف هاشمي الرفاعي، الصوفية والتصوف في ضوء الكتاب والسنة، الطبعة الأولى، 1999، ص 33.

- التعريف الإجرائي:

هو الغوص في فكر معين وترجمته إلى مواقف وسلوكيات.

- المدلول اللغوي للزاوية:

مأخوذة من الفعل أتزوي، بمعنى اتخذ ركنا من أركان المسجد للاعتكاف والتعبد وقد أدرك خلفاء المسلمين الأوائل حاجة المعتكفين إلى هذا الانزواء وأصبحت في شكل دور أو مساجد صغيرة يقيم بها المسلمون المصلون ويتعبدون فيها ويعقدون بها حلقات دراسية في علوم الدين، كما يعتقد فيها مشايخ الطرق الصوفية حلقات الذكر[1].

- المدلول الاصطلاحي للزاوية:

هي عبارة عن مجمعات من البيوت والمنازل مختلفة الأشكال والأحجام، وبنائها يختلف عن بناء المسجد والمدرسة، فالزوايا غالبا ما جمعت بين هندسة المسجد والمنزل، قصيرة الحيطان، منخفضة القباب والعرضان وإذا

كان للزاوية مسجد فهو الغالب بدون مئذنة، فالزاوية من الناحية الهندسية غير جميلة بالإضافة إلى أنها كثيرة الرطوبة والعتمة[2].

أما أحمد بن نعمان فيحدد الزاوية على أنها " مدرسة كبرى، تقع عادة في المناطق غير الحرية وهي ذات نظام داخلي يتلقى فيها الطلبة، دروسا لغوية ودينية والمبادئ في العلوم والرياضيات وتمول من أهلاك موقوف عليها من طرف بعض المصلحين [3].

أما ابن منظور يراها أنها مكان معد للعبادة وإيواء المجاهدين وطلبة العلم والمحتاجين وإطعامهم وتزويدهم بما يلزمهم وما يحتاجونه[4].

---

(1) حسين إبراهيم حسين، تاريخ الإسلام السياسي والديني والتقاعد الاجتماعي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الجزء الرابع، الطبعة الأولى، ص 423.

(2) أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ط1، ج1، المؤسسة الوطنية للطباعة، الجزائر، 1985، ص 269.

(3) الصالحين الحفيفي، "دور التعليم الديني في الحفاظ على التراث"، مجلة جامعة الأمير عبدالقادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة مطبعة البحث، العدد 23، 2004، ص 221.

(4) ابن منظور، لسان العرب، المجلد العاشر، دار الطباعة والنشر، بيروت، ص 224.

- المدلول الإجرائي للزاوية:

إن الزوايا في ما مضى تسمى رباطا والرباط هو المكان الذي يربط فيه الخيل للجهاد، كما جاء في القرآن الكريم لقوله تعالى: " وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم"[1].

فهي مكان يشبه المسجد تقام فيه الصلوات ويعقد فيه المريدين اجتماعاتهم أين يذكرون الله ويدرسون فيه العلوم الدينية كما تعتبر مأوى للضيوف يديرها الشيخ.

- المدلول اللغوي للضريح:

الضريح: هو شق في وسط القبر، واللحد في الجانب وقبل الضريح هو القبر كله[2].

ضرح: ضرحت الشيء إذا رميت به، والضريح القبر يحفر من غير لحد كأن قد رمي فيه الميت[3].

ضرح: التنحية والدفع وبابه قطع فهو شيء مضطرح أي مرمي في ناحية والضريح البعيد، والشق في وسط القبر واللحد الشق في جانبه، وقد ضرح القبر من باب قطع أيضا إذا حفره[4].

- المدلول الاصطلاحي للضريح:

يدل تعريف الضريح على أنه هو القبر لأن الأصل فيه هو الدفن وقد أطلقت تسمية الضريح على بناء مشيد على القبر تعلوه قبة والقبة هي بناء شاهق على شكل مخروطي أو نصف كروي يقام على الضريح[5] ، إن الضريح هو جامع بين القبر والبناء المشيد من فوقه، ويأخذ الضريح منزلته الدينية من أهمية الإنسان المدفون في قبره.

- المدلول الإجرائي:

الضريح معلم تاريخي له هيبته ومقدس من طرف العلماء والمشايخ الدين اشتهروا وأسسوا الطرق الصوفية والمذاهب الدينية فيما دفع المريدين والأتباع إلى الاهتمام بقبورهم والاعتناء بها تكريما لهم.

---

(1) سورة الأنفال الآية 60.

(2) ابن منظور، لسان العرب، خلد رشيد القاضي، دار الأبحاث، الجزائر، ج8، ط1، 2008، ص 39.

(3) أبي الحسن أحمد، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ج3، د.ت، ص 400.

(4) ابن أبي بكر الرازي، مختار الصحاح، ط1، المطبعة الكلية، مصر، 1329هـ، ص 85.

(5) المنتدى الإسلامي، "مجلة البيان الإسلامية"، دمعة على التوحيد، ط1، مطبعة النرجس، الرياض، 1999، ص 44.

7- الدراسات السابقة:

1- الدكتور "**عبدالعزيز رأس مال**" بعنوان "البداوة والمجتمعات المستحدثة في الجزائر" في مذكرته التي تمت مناقشتها سنة 1986 وقد كانت قبيلة المجاذبة بالجنوب الوهراني باعتبارها إحدى القبائل المنبثقة من الولي الصوفي "سيد أحمد المجذوب" ابن عم سيدي الشيخ ومدى علاقتها بالتصور كممارسة دينية اجتماعية وهي لا شك بمثابة تصور تاريخي دقيق لبناء الطريقة الشيخية وأنظمتها ولوائحها وقوانينها التي تحكمها[1].

2- أحمد بن الشين: مذكرة ماجستير "الطريقة التيجانية بين الماضي والحاضر "دراسة اجتماعية من خلال دراسة حالة زاوية عين ماضي بالأغواط تناول الباحث"[2].

في رسالته أهم الطرق الصوفية في الجزائر شأنها وانتشارها أيضا الزوايا، ثم تناول الطريقة التيجانية المعروفة في الجزائر والتي تمتد إلى السنغال ومؤسسها هو أحمد التيجاني وتناول الباحث ظهور الطريقة ودورها بصفة عامة في خارج الجزائر وذكر الباحث أن الطريقة التيجانية ليست مذهبا فقيها واضح المعالم، وليست خربا سياسيا يهتم بأموركم وهي طريقة منتشرة عبر كافة الوطن ومادتها المعتمدة هي القرآن الكريم والذكر[3].

3- دراسة ادموند دوتي : "Poste sur L'Islam maghrébin":

قام دوني بدراسة ظاهرة التدين في المغرب العربي تحت السيطرة الكولونيا لية الفرنسية يرى دوني أن الإسلام دين توحيد، ولا توجد علاقة ملموسة تربط بين العابد والمعبود في هذا الدين إلا أن دوني لاحظ أن الدين في المغرب العربي يعتمد على الوساطة التي أسسها الولي الصالح الذي يقوم بدور الوسيط بين الإنسان وربه فكانت نقطة انطلاق البحث في ملاحظات حول الإسلام المغربي.

قسم الباحث دراسته إلى تسعة فصول متسلسلة، فكل فصل جاء ليكمل سابقه لتشمل فصول الدراسة ظهور الولي الصالح المعروف في اللغة المحلية المغاربية بالمرابط ودوره الديني

---

(1) عبد العزيز رأس مال، (البداوة والمجتمعات المستحدثة في الجزائر)، أطروحة دكتوراه، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية جامعة بوزريعة، 1987/1986.

(2) أحمد بن الشين: (الطريقة التيجانية بين الماضي والحاضر، دراسة اجتماعية من خلال زاوية عين ماضي بالأغواط)، رسالة ماجستير، غير منشورة، كلية العلوم الإنسانية، جامعة الأغواط.

(3) أحمد بن الشين، نفس المرجع.

والثقافي والسياسي في التأثير المجتمع المغربي، ومن ثم انتشار ظاهرة تقديس المرابط وإشهارها في شمال إفريقيا.

تعرض الباحث في بداية بحثه من خلال الفصل الأول إلى مقاربة تاريخية بين عبادة القديسين في الدين المسيحي وظهور تقديس الرجال عند الشيعة، ثم اشتهار المرابطين وانتشارهم في شمال إفريقيا ، حيث يرى الباحث أن فكرة تقديس الإنسان قديمة قدم الإنسانية عرفها بربر شمال إفريقيا قبل مجيء الإسلام من خلال تقديس السحرة والكهنة، ثم ظهرت في تقديس مشايخ الطرق الصوفية والزوايا، لكن هذا التقديس لم يتوقف على حياة شيوخ الدين، بل حافظ على بقائه واستمراره حتى بعد وفاتهم.

تناول الباحث في الفصل الثاني والثالث ظاهرة التدين في المغرب على أنها تتخذ شكل واحد وحيد، وهو عبادة القدسيين أن تقديس رجال الدين أو شيوخ الدين كما ساهم الباحث دوني، ويعرفون في اللغة المحلية المغربية بالمرابطين، وهذا الشكل من أشكال التدين حل محل الدين الأصلي في شمال إفريقيا، ظهر خلال القرن 16م وامتد من الجنوب الجزائري إلى المغرب، من الساحل الإفريقي إلى الأطلس الكبير[1].

ويعود الفضل في ذلك إلى المذهب الإباضي الذي انتشر في شمال إفريقيا واتصف بما يسمى شيوخ الدين ويوضح الباحث في الفصل الثالث أصل كلمة المرابط وما تحمله من دلالات كالفقيه، الشيخ، ولي الله وهي مصطلحات مشهورة في اللهجة المغاربية، انطلاقا من ساحل الشلف فيقول: " بينما نجد في رحلة إلى الجزائر على طريق السكة الحديدية كان انتشار القبب في ساحل الشلف حتى يلل وكانت بكثرة إلى غاية تلمسان"[2]، وهذا يعود إلى التقارب الجغرافي والتاريخي والديني والثقافي بين دول المنطقة.

أما الفصل الرابع والخامس والسادس فقد تحدث عن شخصية المرابط ومدى تأثير المرابطين في نفوذ السلطة والسيطرة على القبائل، حيث يرى الباحث أن شيخ الدين أو المرابطين هم الرجال المتمثلين في شيوخ الطرق الصوفية ورؤساء الزوايا المنحدرين من النسب الشريف

[1] EDMAND DOUTE, notes sur l'islâm Maghrébin- Ernest le roux Edition, Pris 1990, P22.

[2] Edmand Doute, Ibid, P23.

من أحفاد الرسول عن عائلة علي بن أبي طال أو من أصحابه كأبي بكر وعمر وعثمان، إن انتساب المرابط إلى العائلة الشريفة له نفوذ في السيطرة على القبائل وسلطتها، كما هو الحال بالنسبة لأحفاد مولاي إدريس الأكبر وهم أكثر المرابطين احتراما في المغرب ومثلهم أحفاد الشيخ عبدالقادر الجيلاني المعروف بشخصيته الدينية والوطنية في المغرب والجزائر ومثلهم عائلة أحمد بدوي وإبراهيم الدسوقي في مصر وهي أقوى نفوذ في المجتمع خاصة وأن انتسابهم إلى عائلة أبي بكر. وفي الفصل السابع خص الباحث دراسته بالجانب النسوي، وحظ المرأة من التقديس قسمت بالقديسة في المسيحية أما في شمال إفريقيا قسمت لالة وداد في المغرب العربي وستي عند لمصريين، بما أن العبادة ليست مختصة فقط على الرجال ولم تمنع على المرأة، فكان لها الحق في ممارسة العبادة والزهد وقراءة القرآن هذا ولا يمنعها من قبل شرق الولاية والتقديس، لذلك نجد تسميتها ب لالة أو دادا هناك عدد لا يحصى من الأماكن والجبال التي سميت بأسماء الوليات الصالحات، كما هو الحال في الجزائر نجد لالة خديجة في أعلى جبال جرجرة في الجزائر، ولآلة عيشة المنوبية في القبائل الكبرى كما يوجد ضريح لالة فاطمة وهي من أسرة مشهورة وغنية في المنطقة ومن أشهر ما يحمى عنها أنها كانت تتنبأ بالغزو الفرنسي للجزائر.

اختص الباحث في الفصل الثامن بمقارنة دور المرابطين في شمال إفريقيا من خلال عرض الدور السياسي لمرابط وسيطرته على السلطة في قبائل الأطلسي الكبير والتفرد بالحكم، فلا يحق الحكم، إلا لأفراد العائلة الشريفة أما القادة السياسيين فهم من الأقارب وأبناء العم، على خلاف ذلك تجد أشكالا أخرى من المرابطين في شمال إفريقيا رغم أنها لا تتمتع بالسلطة إلا أنه كان لها دور اجتماعي هام، كالمقاومة عند أولاد سيد الشيخ، كما قام الباحث بمقارنة بن الدور الثقافي والاجتماعي لشيوخ الزوايا في الجزائر والمغرب.

في الفصل التاسع من الدراسة خصه الباحث بضائع وتوصيات حول دراسة تاريخ المرابطين وتطور حياتهم الاجتماعية، ودور الطرق الصوفية في تكون شخصيته المرابطين[1].

4- دراسة فراح زينب: "الزيادة السنوية للأضرحة":

[1] Edmand Doute, Ibid, P23.

ضمن الدراسات الأكاديمية في شهادة الماجستير، قامت الباحثة فراح زينب بدراسة ممارسة المرأة لزيادة الأضرحة والتبرك بهم، فكانت دراسة أنتروبولوجية حول الممارسات الطفولية حول ضريح سيدي قادة بين مختار في منطقة معسكر من خلال محاولة الباحثة الكشف عن أسباب وخلقيات ونتائج زيارة النشاء ومكوثهن في الضريح وذلك من منظور التدين والموروثين الثقافي والشعبي فكان المجال المكاني للبحث ضريح سيدي قادة بين مختار بمنطقة معسكر المعروف بين عناصر المجتمع والمشهور بكراماته المتمثلة في الشفاء من الأمراض ومركز استقطاب الزائرين.

قامت الباحثة بتقسيم بحثها إلى جزئيين متناسقين، الجزء الأول: الجانب النظري "القسم التقني المنهجي" احتضنه الباحثة بدراسة نظرية من خلال تحديد المفاهيم النظرية الأساسية حول موضوع الدراسة ، ثم دعمت الدراسة بالجانب التطبيقي وهو الجزء الثاني من الدراسة "تيوبراتيكي" دراسة ميدانية فاعتمدت في ذلك على تقنية الملاحظة والمقابلة، وهذا ما سهل على الباحثة تفسير وتحليل النتائج التي توصلت إليها، في مقدمة عامة قدمت الباحثة عرضا عن وظيفة أضرحة الأولياء الصالحين وتأثيرها في البنية الاجتماعية، فهي ترى أن كل ضريح له خصوصية تترتب عليها وظيفة الولي وذلك حسب نسبه وكرامته وهذا ما يحدد طبيعة الاعتقاد في ضريح الولي ونوع الطقوس والممارسات الخاصة بالضريح.

قسمت الباحثة الجزء الثاني من الدراسة إلى خمس فصول وضحت من خلالها الرمزية المكانية التي اكتسبها ضريح الولي "قادة بن مختار" من خلال مجموعة من العوامل المتمثلة في نسبه ودينه، والكرامة التي اختص بها منذ ولادته والمتمثلة في ظهور الخاتن في أصبعه ما شبه بخاتم النبوة ، إضافة إلى ذلك القصص والحكايات[1] التي استوحتها الباحثة عن طريق المقابلة مع المقدم حارس الضريح وبعض الزائرات كل ذلك كان له أثر كبير في دعم الاعتقاد في ذلك الولي وقوته وهذا ما دعم المعتقد الشعبي حول الضريح.

توصلت الباحثة إلى أن طبيعة "الطقوس والممارسات تتحدد حسب طبيعة الاعتقاد في الولي التي تكسب الضريح الرأسمال الرمزي، فكل ولي صالح يتميز بكرامته وشرفه والنسب

[1] فراح زينب، (الزيارة النسوية للأضرحة)، مخطوط لنيل شهادة ماجستير، جامعة وهران، العايدي عبد الكريم، 2011.

الشريف الذي ينتسب إليه، كما هو الحال بالنسبة لضريح قادة بن مختار بمنطقة معسكر، حيث تلجأ المرأة إليه باعتباره القوة العظمى وتلتمس فيه السلطة الروحية، أكبر من سلطة الذكر المستبدة التي تلمسها في كل من الزوج أو الأخ الأكبر على حد سواء وغيرهم، فالمرأة باعتبارها ذلك المخلوق الضعيف المقهور تبحث دائما عن قوة عليا تلجأ إليه، فوجدت الضريح يمثل قضاء الحرية النفسية لها، تقتضي من خلالها حاجاتها النفسية والاجتماعية وتمحى جميع عوارضه[1].

إن المنهج هو الطريقة التي تتبع للكشف عن الحقائق بواسطة استخدام مجموعة من القواعد العامة ترتبط بتجميع البيانات وتحليلها حتى نصل إلى نتائج ملموسة وبما أن المعرفة العلمية معقدة كان من الواجب على العلماء والباحثين أن يتبعوا مناهج لتسهيل الدراسة والإلمام بحيثيات الموضوع المدروس وظهور هذه المناهج ساهم بقدر كبير في الدراسات النفسية والاجتماعية وفي الدراسات التطبيقية ومن بين هذه المناهج اخترنا المنهج الوصفي التحليلي الذي بيد "أسلوب من أساليب التحليل المرتكز على معلومات كافية ودقيقة عن الظاهرة أو موضوع محددة من خلال فترة أو فترات زمنية معلومة وذلك من أجل الحصول على نتائج علمية تم تفسيرها بطريقة موضوعية[2].

والمنهج الوصفي ليس سهلا كما قد يبدو، فهو يتطلب أكثر من مجرد عملية وصف الوضع القائم للأشياء، إنه ككل مناهج البحث الأخرى يتطلب اختيار أدوات البحث المناسبة والتأكد من صلاحيتها، وكذلك الحرص في اختيار العينة والدقة في تحليل البيانات والخروج منها بالاستنتاجات المناسبة[3].

إن البحوث الوصفية تهدف إلى وصف ظواهر أو أحداث أو أشياء معينة وجمع الحقائق والمعلومات والملاحظات عنها ووصف الظروف الخاصة بها وتقرير حالتها توجد عليه في الواقع[4].

---

[1] فراح زينب، نفس المرجع.

[2] محمد عبيرات، محمد أبو نصار، منهجية البحث العلمي، ط2، دار وائل للنشر، الأردن، 1999، ص 46.

[3] عبد الرحمن عدس، أساسيات البحث التربوي، ط3، عمان، دار الفرقان، 1999م ، ص 101.

[4] فان دالين، مناهج البحث في التربية وعلم النفس، ترجمة محمد نبيل نوفل وآخرون، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية (ط5)، 1994، ص ص 292-293.

ففي البحوث الوصفية يكون هم الباحث الاجتماعي الإجابة عن ماذا وكيف كانت الظاهرة في الماضي البعيد والقريب أو في الحاضر، يتضح من ذلك أن الاتجاه الوصفي يمكن اتخاذه بالنسبة لكل من البحوث الاجتماعية التي تهتم بالماضي والبحوث الاجتماعية التي تعتني بالحاضر وتلك التي ترتكز على المستقبل[1].

إن دراسة ظاهرة الأضرحة والزوايا ومدى تأثيرها على المجتمعات تعتمد على وصف الظواهر كما الواقع وصفها دقيقا من كل الزوايا، بحيث يعتمد الوصف على رصد ومتابعة دقيقة وبطريقة كيفية ونوعية من أجل التعرف على الظاهرة من حيث المحتوى والمضمون وتسجيل المادة وجمع المعلومات أثناء الدراسة الميدانية من أجل التحليل والتفسير للوصول إلى نتائج وتعميمات تساعد في فهم الواقع وتطويره يدل الحكم عليه، حيث يبدأ الوصف بتحديد المشكلة، ووضع الفروض، وجمع المعلومات والبيانات ومن ثم تحليها وتفسيرها وبالتالي الوصول إلى النتائج والتوصيات.

8- صعوبات دراسة:

إن أي موضوع يتطلب البحث والتقصي ولكن لا يخلوا من الصعوبات والعراقيل ومن بينها نذكر ما يلي:

- رغم وفرة المراجع حول موضوع الزوايا والأضرحة إلا أنها لا تمس موضوعنا فكرتنا بحد ذاتها إلا بصفة نسبية.
- صعوبة التنقل لمكان الضريح والزاوية والتي تبعد عن مقر سكني بحوالي 600 كلم.
- من الصعب على أي باحث أن لا يتأثر بتفاعلات وتقلبات الظاهرة محل الدراسة وتعقيداتها بسبب تغير المبحوث، ولتعقد ونسبتيه العلوم الإنسانية في حد ذاتها.
- صعوبة تطبيق المنهج الوصفي التحليلي في ظرف زماني قياسي نظرا لما يتطلبه هذا الأخير من وقت كافي لتطبيقه وإجراءاته.
- من أصعب العراقيل عدم قدرة التوفيق بين الدراسة والعمل والبت وذلك ليس بالأمر الهين تحقيقه لأن كلاهما يكتسي من الأهمية ما يستدعي الالتزام والانضباط والمسئولية.

[1] حسن الساعاتي، تصميم البحوث الاجتماعية، ط 4، دار النهضة العربية ، بيروت ، 2003، ص 153.

خلاصة:

تندرج هذه الدراسة ضمن الدراسات المتعلقة بالأضرحة والزاوية وعلاقتها بزاوية الأم والدور الذي تلعبه في المجتمع "وما يمكن الدولة عند زوايا الطرق الصوفية أنها كانت ولا تزال عاملا موحدا بين بلدان وشعوب العالم الإسلامي عامة وشعوب البلاد المغاربية خاصة لأن انتشار هذه الزوايا والطرق لا يعرف حدودا إدارية أو غير ذلك، ولأنه أكتسب هذه البلدان ثقافة مشتركة تسمح على الأقل بالإحساس وبالتواصل وبوحدة الانتماء"[1].

لقد لعب المتصوفة دورا اجتماعيا وتربويا كبيرا انعكس على حياة هذه المجتمعات وخاصة الجزائر، لقد عرف عنهم أنهم قوم اجتماعيون هدفهم بناء حياة سعيدة للفرد في الدنيا والآخرة، وبالرغم من ذلك فلقد قبل عن المتصوفة كذلك بأنهم يشجعون على نشر الخرافات والبدع، إلا أن هناك من لا ينكر إخلاصهم ودورهم الفعال في حياة الناس[2].

[1] طيب جاب الله، معارف (مجلة علمية محكمة)، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة البويرة السنة الثامنة، أكتوبر 2013، العدد 14، ص 134.

[2] طيب جاب الله، المرجع السابق، ص 134.

1- نبذة تاريخية التصوف:

التصوف الإسلامي جزء أساسي في التراث الإسلامي حيث تبدأ مكانا عاما في الفكر العربي الإسلامي والاهتمام بالتصوف القديم، تناوله المؤرخون والعلماء العرب والمسلمون كالطوسي والكلاباذي والقشيري وغيرهم وكما ألف فيه الفلاسفة كابن سينا والغزالي وابن خلدون وتجادل فيه الفقهاء وعلماء الكلام، إضافة إلى جهود المستشرقين ولم يتفق هؤلاء على رأي واحد سواء تعلق الأمر بحدوده أو أصوله فاختلفت الآراء والتسرب حوله، فالتصوف ليس ظاهرة إسلامية خاصة بل إن جذوره وعروقه تمتد في أي فكر ديني عموما.

ويقل محمد صديق الغماري: " ويعضد ما ذكره ابن خلدون في تاريخ ظهور اسم التصوف ما ذكره الكندي وكان من أهل القرن الرابع في كتاب" وولاة مصر في حوادث سنة المائتين، إنه ظهر بالإسكندرية طائفة يسمون بالصوفية يأمرون بالمعروف وكذاك ما ذكره المسعودي في "مروج الذهب".

إن ظهور الطرق الصوفية سواء في المشرق أو المغرب العربي عملت على ظهور الزوايا والحانقات، حيث كان لها دورا هاما في تاريخ البلاد الإسلامية عامة وتاريخ إفريقيا خاصة، فكان انتشارها تعبيرا عن الحاجات الضرورية للفرد والجماعة لم توفرها المؤسسات الأخرى، والحق أن للصرف الصوفية أهمية بالغة في نشر الإسلام وذلك لأنها تمثل الجانب العملي من التصوف وهو جانب ارتبط بحياة المجتمعات الإسلامية وجماهير الناس عبر عصور التاريخ ارتباطا مباشرا.

لقد انتشرت هذه الطرق وتشعبت منذ القرن الرابع عشر ميلادي في جميع أنحاء العالم الإسلامي وكان أول من نادى بها وأسسها الشيخ عبد القادر الجيلاني في بغداد، حيث أسس الطريقة القادرية وتعبيرا لدى الكثير من العارفين والباحثين بميدان التصوف أو طريقة صوفية في العالم الإسلامي والتي كانت متزامنة مع ظهور الطريقة المدنية التي أسسها الشيخ أبي مدين شعيب بمدينة بجاية في نفس القرن وتوسعت على يد تلميذه عبد السلام وأتباعا كثيرين[1] في مختلف الأنحاء ثم ازدادت نشاطا على يد أبو الحسن وتركت الأثر على باقي

[1] طيب جاب الله، "الطرق الصوفية والزوايا في المجتمع الجزائري"، معارف (مجلة علمية محكمة السنة- الثامنة (أكتوبر 2013)، جامعة البويرة، العدد 14، ص 3.

الطرق الأخرى التي ظهرت بعد القرن الثامن التي كانت تتصل بطريقة أو بأخرى بالطريقة الأم الشاذلية فقد بدأ التصوف فيه نظرا ثم تحول من القرن 10هـ واتجه إلى الناحية العملية الصوفية، وأصبح يطلق عليه تصوف الزوايا والطرق الصوفية[1].

إن الفرق بين الصوفية كطريقة و بين التصوف كمنهج قائم في مضمونه على التفقه في الدين والعمل بأحكامه وقواعد الإسلام، أما الطريقة فهي التطبيق العملي لذلك العلم ولأركان الدين الاسلامي، ولفظ طريقة كمصطلح دال عليها فيما ظهر عند المنتسبين لهذا المنهج من طرق وممارسات وشعائر وما يرتكز عليه من ثنائية المقامات والأحوال التي هي قوام التجربة الصوفية، أما التصوف الإسلامي فهو منهج علمي يجتمع بين العلم والعمل على معرفة الكتاب.

والسنة هو ظاهرة روحانية مبني على الجد والاجتهاد لتحقيق مقام الإحسان والعبودية الكاملة الخالصة الله تعالى، بالرغم من أن كلمة تصوف تدل على طريقة من طرائق التدين إلا أن معنى كلمة التصوف كانت محل جدال ونقاش كبيرين بين أهل العلم والباحثين والمؤرخين والعلماء, فكان من الصعب تحديد تعريف واحد وموحد لكلمة تصوف لذاك سنكتفي بعرض أشهر ما ذكر عن تعريف التصوف في ما يلي: التصوف لفظ ظهر واشتهر في العالم الإسلامي بعد القرون الثلاثة الأولى الهجرية، يقول هنري كربان "كلمة الصوفي عربية مشتقة بحسب الاشتقاق المتعارف عليه عموما من الصوف[2] وأشار كل من ابن خلدون والسراج الطوسي قبله أن " لبس الصوف دأب الأنبياء وشعار الأولياء والأصفياء والصديقين والمساكين والمتنسكين"[3]، فهناك من نسبه الى الصفة ومنهم من نسبه الى صفوة بن بشر بن أدبن بن طابخة (قبيلة عربية في الجاهلية) فكان رأي ابن تيمية رافضا لهذا القياس و ذلك لعدم تطابق التسمية مع ما نسبت اليه[4]، كما أشار إليه القشيري في قوله "لا يشهد لهذا الاسم اشتقاق من جهة العربية ولا قياس والظاهر أنه لقب ومن قال أنه اشتقاق من الصفاء أو من الصفة فإنه بعيد من جهة القياس اللغوي". قال أبو الفتح البسني رحمه الله:

---

(1) هنري كربان، تاريخ الفلسفة الإسلامية، ترجمة: نصير مروة وحسن قبيس، ط2، عويدات للنشر والطباعة، بيروت، 1998، ص 282.

(2) هنري كربان، مرجع سابق، ص 282.

(3) ابراهيم محمد تركي، التصوف الاسلامي اصوله و تطوراته، ط1، دار الوفاء، مصر، 2008، ص26.

(4) ابن تيمية، الصوفية والفقراء، دار المدنين جدة، د ت، ص14.

تنازع الناس في الصوفي واختلفوا وظنه البعض مشتقا من الصوفي
ولست أمنح هذا الاسم غير فتى صاف فصوفي حتى سمي صوفي[1]

التصوف هو الاسم اللغوي لصبغة (صوف) وهي تعني الاشتغال بالصوفية ويعتبر البيروني ان كلمة صوفية منسوخة من أصل الكلمة اليونانية 'Sophos' تعني الحكيم, في نفس السياق نجد مبارك الميلي يرى أن " التصوف معرب من theosophies وهو لفظ يوناني مركب من Theo ومعناه اله و Sophie معناها الحكمة[2] من معناه الصحيح هو حكمة الله وهي طريقة رياضية عرفها اليونان و الهنود قديما يزعم أهلها مناجاة الله ووحيهم غليه ونيلهم منه عرفانا بذلك, فإذا كان من الصعب تحديد المعنى اللغوي لكلمة تصوف ومصدر اشتقاقها إلا أن التعريفات لمضمون كلمة تصوف لا تعد ولا تحصى، إلا أنها تحدد تصنيف التصوف في ثلاث اتجاهات اتجاه نفسي واتجاه أخلاقي واتجاه عمليو وكان للجانب الأخلاقي في تعريف التصوف النصيب الأكبر من اهتمام المتصوفة وغيرهم من الباحثين.

يعرف ابن خلدون التصوف بأنه " علم من العلوم الشرعية الحادثة في الملة وأصوله أن طرقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة و التابعين"[3] ويعرفه صلاح مؤيد" التصوف علم من العلوم الاسلامية وهو في حقيقة أمره روح الإسلام وجوهره لأنه تصفية القلب وتطهيره من رجاسته عن غير الله[4] .

ويقول التليلي " التصوف هو ظاهرة دينية ومفهوم معين للإسلام قوامه فلسفة روحية تعتمد على الذكر والاعتكاف وفق أساليب تربوية مرهقة للنفس لحملها على الطاعة[5].

نخلص الى أن علم التصوف علم حادث في الملة لم يشهده عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه وأصل هذا العلم مبني على العكوف على العبادة والإعراض عن الدنيا والإقبال إلى الله سبحانه وتعالى، في زمن طغى عليه الفساد وحب الدنيا.

---

(1) سراج الدين، طبقات الأولياء ، ترجمة: مصفى عطا، ط2 ، دار الكتب العلمية، بيروت، 2006، ص11.
(2) مبارك بن محمد الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ص 341.
(3) ابن خلدون، المقدمة، اعتناء وتقديم: أحمد الزعبي، دار الهدى عين مليلة، الجزائر، ص 518.
(4) صلاح مؤيد العقبي، الطرق الصوفية والزوايا بالجزائر، دار البصائر، 2009، ص 9.
(5) التليلي العجيلي، الطرق الصوفية والاستعمار الفرنسي بالبلاد التونسية، منشورات كلية الآداب بمنوبة تونس، 1992، ص 27.

نظرا للمجال الواسع للتصوف يصعب تحديد تعريف شامل فالتصوف ينصرف إلى العديد من المعاني وإن كانت لا تختلف في الغاية وإلا أنها تندرج تحت المفهوم الشائع للتصوف وهو الرقى الأخلاقي إلى التوحيد والمحبة والمشاهدة فالصوفي هو ذلك العابد الزاهد العرف المنصرف بفكره إلى الله، المبتعد عن الدنيا وملذاتها وبذخها وترفها ومصطلح الصوفي هو لقب للمنتسب للطريقة الصوفية خاض التجربة فيما يسود عصره من أفكار ومعتقدات متجاهلا ما يشهده المجتمع من تطورات، والصوفية حركة دينية إسلامية وليدة التفاعل الثقافي والتاريخي نشأت في ظروف معينة وتطورت عبر مراحل مختلفة تفرعت وتشعبت إلى طرق كثيرة في تنظيم رسمي لتشكل مظهر من مظاهر التدين يتبنى منهج ديني إسلامي[1].

قوام التصوف تصفية القلب وتطهيره وإخلاص العبودية إلى الله وهجر الدنيا ومتاعها والتفقه في علوم الدين، إلا أن أصحاب الطرق الصوفية لهم " سلوكات وممارسات دينية أخرى تميزهم عن غيرهم من المسلمين تدخل في باب " الذكر" ولم تنص عليها النصوص الإسلامية الرسمية"[2]، حيث يستند الخطاب الطرقي الصوفي إلى النصوص الدينية الرسمية كالقرآن والحديث، لكنه يصر على إظهار الخصوصية الفكرية للإسلام الطرقي الذي يعتمد شعائر وممارسات كالذكر والأوراد تقام في الزوايا ويتخذ منهجا خاصا في تسيير تنظيم جماعي محكم، يعتمد على رمزية وسلطة الشيخ الأب الروحي المؤسس على التجربة الروحية والأخلاقية [3].

1-1- من القرن العاشر إلى القرن الثاني عشر:

أ- ظهور المجموعات الثلاث: ابتداء من هذه المرحلة انقسم رجال الدين إلى ثلاث مجموعات الفقهاء أصحاب الحديث هذا من الجانب "الباطني" و "الروحيون" المسلمون الذين أصبحوا يسمون شيئا فشيئا بالصوفية من الجانب الباطني ,طالب الجميع بمرتبة "العلماء " الذين رشحهم الرسول (ص) لمرتبة "ورثة الأنبياء" كما ظهر هناك شيء من " البعد" بين

---

[1] حسن مرزوقي، الإسلام الطرقي ومستويات التأصيل، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة، 2012، ص 8.

[2] حسن مرزوقي، مرجع سابق، ص 8.

[3] كامل مصطفى الشيبي، الصلة بين التشييع والتصوف، دار الأندلس للطباعة والنشر ، بيروت، 1982، ص271.

المجموعات الثلاث : يتهم أصحاب الحديث الكثير من الصوفية بعدم الكفاءة في هذا الميدان وتحويل المجرى لصالحهم من جهتهم يتهم الصوفية الفقهاء بتقليص مصطلح " الفقه" لمعنى " القانون" كما يتهمونهم بتجاهل "التصوف"[1].

يتأسف ابن خلدون عن الانشقاق بين "الرسالة" و"الروح" و يرجع الخطأ للفقهاء الذين يهتمون بالمظهر الشكلي للدين مذكرا أن الرسول (ص) كان يجسد المظهرين الظاهري والباطني للإسلام[2].

على العموم تجدر الإشارة إلى أن العلاقات النزاعية بين الصوفية والفقهاء تمكن من إظهار التحديات والإسقاطات من الجانبين، لكن هذه التوترات "المتخلفة" لا تلزم غلا الأشخاص الذين يحملون المذهب وليس المذهب في حد ذاته[3].

ب- بلاد الخرسان: أصبح الخرسان المقر الرئيسي للحياة الروحية، حيث أزاح التصوف العراقي التيارات الأخرى في القرن الحادي عشر، تستطيع السلطة الزمنية التعامل بسهولة مع الناس المقيمين بالمدن والمهتمين أكثر بترقية صورة مؤمنة للتصوف وبالمقارنة بالكرامي المحليين والزهاد المهمشين أو الملاماتي الذين يعملون في الخفاء تتجلى الاتجاهات الجديدة للتصوف في العمران والكتابة في نفس الوقت[4].

أخذ الصوفية على عاتقهم مؤسسة الكرامي للخنقة، وهي المكان الذي ظهرت فيه "الاخويات" الصوفية بعد ذلك: الحياة الاجتماعية للتلاميذ المصطفين حول المعلم ,الممارسات المسارية اتخاذ العهد نقل مناهج الذكر الخلوة، التقليد بالمرقعة او الرقة الخ...أصبحت العلاقة بين المعلم والتلميذ علاقة أكثر شخصية تشدد ووضوح تحول "الشيخ المعلم" إلى " الشيخ المربي" اي تم المرور من التصوف الأخلاقي غلى التصوف المساري.

أصبح التصوف مادة أو علما ذو قوانين في "الخنقة" وبدا يأخذ مكانته داخل الثقافة السنية بفضل العلاقات التي تربط الصوفية بالمدارس السنية، تهدف هذه المدارس أو هذه المعاهد التي ظهرت في خرسان وبالتحديد في نيشابور إلى ترقية النظرية " الأشرية " المشتركة مع

---

(1) بوعتو بشير، التصوف في الجزائر، ج1، دار السبيل للنشر والتوزيع، 2013، ص269.

2 Ibn Khaldoun, Shifa Al-Sa-il, op. cit, p 111.

3 Geoffrey Eric,Initiation au soufisme, op. cit, p 123.

1 Ibn Khaldoun, Shifa Al-Sa-il, op. cit, p 123.

المذهب الشافعي من المعروف أن هذه المعاهد العليا تتصف بانفتاحها اتجاه "الروحانية" اعتنق الصوفية المذهب الشافعي لأن هذا المذهب هو أكثر تقييد وأكثر صرامة في ممارسة الفرائض الدينية. ادخل العلماء الشافعيون في الخرسان مادة التصوف من بين المواد المدرسة في المعاهد و كما قام بعض الصوفية أنفسهم ببناء المدارس ابتداء من القرن الحادي عشر، تأصلت المدارس في العراق وكونت الإطارات الدينية للدولة السلجوقية، يهدف هذا النظام التعليمي إلى ترقية السنة اتجاه التيارات الإيديولوجية الأخرى المنافسة وخاصة الشيعة وعلى الأخص الإسماعيلية[1].

منها يتصف هذا الفرع من الشيعة "بالتطرف الباطني" والسياسي ويمارس دعابة كبيرة, تسعى المجموعات الإسماعيلية المبشرة المقيمة في جنوب غيران وفي سوريا زيادة عن الدولة الفاطمية بمصر غلى زعزعة الخلافة العباسية وحلفائها الأتراك ابتداء من هذه المرحلة استدعي التصوف من طرف السلطات السياسية لمساعدة الخلافة كرمز ضمان من رموز السنة .

ج- أبو حامد الغزالي: يمثل أبو حامد الغزالي ثمرة نجاح ونضج القرنين العاشر والحادي عشر "إحياء علوم الدين" هو انصهار بين النظرية اللاهوتية الفقه والروحانية وتوضيح الإسلام على ضوء التصوف، أبو حامد الغزالي هو من أصل خراساني ذو المذهب الشافعي درس في المدرسة المشهورة لبغداد، اكتسب شهرة كبيرة ثم مر بأزمة "داخلية" خطيرة ترجمت بمرض عقلي، من هنا تخلى عن وظيفته وبدأ حياة الارتحال والخلوة الروحية التي دامت أحد عشر سنة، من بين أسباب هذه الأزمة: إعادة النظر في معرفته وعلمه كمثقف، رفضه للنظرة القانونية للدين وحاجته للتجربة الشخصية، وعيه باستعماله لأغراض سياسية ..الخ[2].

تحكم أبو حامد الغزالي في مجموعة كبيرة من العلوم والمذاهب من بينها الفلسفة السكولاستية اللاهوتية scolastique theologie للقرون الوسطى الفلسفة اليونانية والباطنية

---

[1] بوعتو بشير، التصوف في الجزائر، مرجع سابق، ص ص 270 ،271.

[1] Hogga. M, Orthodoxie, subvention et réforme en islam,Ghazali et les seldjouqides,Paris, édition fayard,1993.page41.

الإسماعيلية الخ.. صرح بأن التصوف هو الطريقة العليا الوحيدة التي يمكنها أن تؤدي غلى الله وأن الصوفية هم وحدهم من الواجب اعتبارهم ورثة الأنبياء[1].

ومراحل التصوف عند الغزالي كما يلخصها الدكتور مصطفى غلوش ..أن الغزالي اعتبر السالك لمنهج التصوف مندرجا في ثلاث منازل :

1- المنزلة الاولى للتصوف هي: تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى ويعني الغزالي بهذه لمرحلة أن يجرد الراغب في نهج التصوف نفسهم من علائق المادة وشهوات المال والاهل والولد...الخ وينفرد تماما لمهمته الجديدة فان نجح في ذلك يكون قد وضع أقدامه على بداية الطريق الموصل الى مبتغاه وهذه مرحلة التخلي.
2- المنزلة الثانية للتصوف هي: استغراق القلب بالكلية بذكر الله تعالى، ويعني الغزالي بهذه الخطوة: أن يرد على القلب أي شيء سوى ذكر الله تعالى وتذكره، فلا يذكر هذا القلب جاها ولا سلطانا ولا شهوة ويعتبر الغزالي هذه المنزلة في غاية الاهمية لسالك طريق التصوف.
3- المنزلة الثالثة للتصوف: هي الفناء بالكلية في الله تعالى ويعني الغزالي بالفناء في الله أن تموت الشهوات حقيقة وانما فقط يشعر بلذة قربه من محبوبه فيحدث بقاء مع فناء على معنى أن تفني الشهوة ويبقى حب الله تعالى[2].

2-1- من القرن الثاني عشر إلى القرن الخامس عشر:

أ- الشعراء الروحيون: تطورت "الروحية" الفارسية من خلال الشعر ابتداء من القرن الثاني عشر، تقاسم التعبير الشعري مع الروحية نفس الجوهر الذي يصعب وصفه، ونفس اللجوء إلى الرموز والغموض الأصلي للغة، إن النثر لا يمكنه التعبير عن الواقع المعاش باطنيا بينما يمكن الشعر من الإشارة إلى الحقائق الروحية [3].

ب- ظهور "الطرق المسارية": ظهرت خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر بعض "الأسر الروحية" في الوسط الصوفي لتأخذ بعدا مختلفا عما كانت عليه " الأخوية الأولى، كل من كان له حنين إلى التصوف "البدائي" كان يرى في ذلك رمزا لاندثار التصوف بصفة

[1] بوعتو بشير، مرجع سابق، ص 273.
[2] مأمون غريب، مرجع سابق، ص ص 52، 51.
[3] بوعتو بشير، مرجع سابق، ص 275.

عامة ولكن الدور الراجح "للشيوخ" وتكون الطرق المسارية هو استجابة لمطلب تعويض "الخسارة الروحية" مع مرور الوقت ويجب الإشارة كذلك إلى أن الطرق ظهرت لتستجيب لمطلب البناء الروحي والاجتماعي، مهمة الشيوخ تتمثل في تمكين الناس من اقامة علاقة ودية حميمة، شخصية مع الله والرسول (ص). يرمز سقوط بغداد عام 1258 ونهاية الخلافة العباسية غلى نهاية "عالم سني منسجم" وقوي عاش فيه المسلمون في السلم والاطمئنان، أعطى انهيار البنية الدينية التقليدية أكثر قوة للشيوخ "فالأسر الروحية" التي ظهرت اقترحت فضاءات تضامن ورؤية جديدة للعلم[1].

بعد سقوط بغداد لم تبق إلا الشبكات الصوفية وحدها قادرة على المحافظة على نوع من الوحدة في الأراضي الشرقية ففي هذه الظروف ظهرت الطرق لتحدد المنهج الروحي المتبع هنا وهناك، إن الطريقة التي رسمها الجنيد في القرن العاشر ترى أنه على السالك أن يبقى على الطهارة الشرعية، الصوم التزام الصمت، القيام بالخلوة ذكر "لا اله إلا الله" الارتباط الباطني بالشيخ دفع الأفكار الخاطرة ... ابتداء من القرن الثاني عشر، بدأ بعض المعلمين جذب التلاميذ لمدة طويلة وتكوين شبكات النقل المساري وتكونت "الأسر المسارية" لتقترح خطوط سير خاصة للوصول غلى الله وهكذا تخلى المنهج المساري الفردي ليترك المكان "للمجموعة الروحية".

ج- القادرية: مؤسس هذه الطريقة هو عبد القادر الجيلالي، أصله من جيلان، شمال غرب إيران سافر إلى بغداد لدراسة الفقه الحنبلي ليتلقن التصوف بعد ذلك وبعد عشرين سنة من الخلوة والزهد وعاد إلى الحياة الاجتماعية ببغداد أين كانت موعظته تجلب الكثير من الناس وعلم في مدرسة العلوم الظاهرية أو الجهرية مع تتبع المسار الروحي لتلاميذه، له كتاب "الغنية لطالبي طريق الحق" وفيه يعظ بأخلاق معتدلة، عرف نجاحا كبيرا في " الأوساط الحنبلية" يعتبر أن عربي، عبد القادر الخامس عشر وأصبح خلفه وراء الطريقة القادرية انتشرت سمعته "كصانع معجزات وشافع عبر كل العالم الإسلامي[2].

---

[1] بوعتو بشير، مرجع سابق، ص 282.

[2] بوعتو بشير، مرجع سابق، ص ص 283- 284.

ولعل السبب في ذلك أن الصوفيين كانوا فئة قليلة ينتشرون في البلاد الإسلامي،ة فقد أثبتت المصادر ثلاثة أسماء باعتبارهم أول من أطلق عليهم وعرفوا باسم التصوف فكان لقب الصوفي أول ما ظهر عند جماعة الكوفة فهناك من يقول أنه أول من عرف التصوف فكان لقب الصوفي أول ما ظهر عند جماعة بالكوفة فهناك من يقول أنه من عرف التصوف هو جابر بن حيان الكوفي المتوفي سنة 208 ه، وهو عالم الكيمياء، وهناك من نسبه إلى ابن هاشم الكوفي المتوفى سنة 150 ه، وهناك من نسبه إلى عبد الكريم الصوفي المشهور بلقب عبدك المتوفى سنة 2010 م وهو كوفي كذلك[1].

والظاهر أن التصوف ظهر بالكوفة خلال القرن الثاني للهجرة بعد نهاية عهد الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وعهد الصحابة.

أما عن مبدأ نشأة التصوف فكان محل خلاف الباحثين والمؤرخي، لكن الأرجح كما سبق ذكره أن التصوف نشأ في الكوفة وترعرع فيها على أيدي أولئك الزهاد والعباد والدعاة، وكانت الكوفة موطن الصوفية الذين ذكر الغزالي مكانتهم وأهميتهم وهي مهد الفقهاء والمشرعين الأقدمين، وانتشر التصوف في العالم على غرار الفتوحات الإسلامية وما شهده العالم الإسلامي من تحولات كبيرة وتغيرات كثيرة في نمط معيشته وطريقة حياته والاضطرابات السياسية والفتن الداخلية بين المسلمين والتي بدأت مع مقتل عثمان بن عفان[2]، دفعت بعض المسلمين إلى حياة العزلة والتعبد والابتعاد عن الفتن كما ذكر ابن خلدون " فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا، اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة"[3].

إن العوامل السياسية والاجتماعية التي عاشها المجتمع الإسلامي ما بعد عهد الخلافة نتيجة الخلافات من جهة واتصال الإسلام بالحضارات الأخرى وديانات مختلفة وأجناس مختلفة من جهة أخرى " امتزجت الثقافات الوافدة إلى المسلمين من الدول التي دخلت الإسلام مع الثقافة العربية[4].

---

[1] ابن خلدون، مرجع سابق، ص518.

[2] عبد الحكيم عبد الغني، المذاهب الصوفية و مدارسها ، ط2، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1999، ص 27.

[3] ابن خلدون، مرجع سابق، ص518.

[4] عبد الحكيم عبد الغني، نفس المرجع، ص 27.

كلها كانت عوامل أثرت على نشأة الصوفية و ظهور الطرق الصوفية وانتشارها، كما كان للظروف الاقتصادية آثار أخرى على انتشار التصوف واهتمام الأفراد بها. ظهر التصوف في بلاد المشرق خلال القرن الثاني للهجرة و تبلور في القرن الثالث للهجرة، ولم يجد طريقه إلى المغرب العربي في نفس الفترة حتى القرن السادس الهجري أو قبله بقليل لاسيما مذهب الغزالي الذي وجد له الموحدون أنصارا ودعاة[1] فنشرت كتب الغزالي مثل: أصول الفقه، إحياء علم الدين، وغيرها ز ذلك لأن ابن تومرت كان قد تتلمذ على يد الغزالي، كان التاريخ الإسلامي للمغرب العربي هو تاريخ سيادة التيار الصوفي الذي ظهر بالمنطقة منذ القرن 11 م الموافق ل6 ه على إثر اتصال حجاج المنطقة بحجاج المشرق في الأماكن المقدسة، وعرف بالتصوف العلمي القائم على الفقه وعلوم الدين حيث " ظهر من الصوفية في عهد الموحدين رجال ذووا علم طار صيتهم في الآفاق[2] فظهر التصوف من خلال علماء أجلاء برز صيتهم في الآفاق ونذكر منهم :

1- أبو مدين شعيب الأندلسي: أخذ التصوف عن أبي يعزى وتلقى في عرفه الشيخ عبد القادر الجيلالي استوطن ببجاية ودرس فيها رسالة القشيري وغيرها، دفين تلمسان المتوفى سنة 591ه الموافق ل 1194 م.

2- عبد السلام بن سليمان المعروف بابن مشيش، أخذ طريق التصوف عن أبي مدين شعيب عبد السلام توفي مقتولا شمال المغرب سنة 625 ه الموافق ل 1228 م[3].

3- علي بن عبد الله المشهور بأبي الحسن الشاذلي، من أصل مغربي لقب بالشاذلي نسبة إلى قرية شاذلة بتونس التي أقام بها، أخذ التصوف عن ابن مشيش في المغرب، أقام مدة في تونس، وتوفي بأرض الحجاز سنة 655 ه الموافق ل 1258 م.

يقول عنه الدكتور عبد الحليم محمود لقد كان الحسن الشاذلي جميل المظهر عذب الحديث، فصيح اللسان غير متزمت في المأكل والمشرب، يحب الخيل ويقتنيها، ويركبها فارسا ويركبها في المواسم الدينية.

---

(1) ابو القاسم سعد الله، مرجع سابق، ص48.

(2) مبارك بن محمد الميلي، المرجع سابق، ص 347.

(3) صلاح مؤيد العقبي، المرجع السابق، ص 87.

هذا هو أبو الحسن في صورته البشرية الشكلية ولو كان ابو الحسن هذا فحسب لما ذكرته الدنيا ولما خلده على التاريخ. ونتحدث الآن عن ابي الحسن العالم وعن ابي الحسن الصوفي، يقول سيدي عبد الوهاب الشعراني " بلغنا أن الشيخ الكامل أبا الحسن الشاذلي لما في اختياره مع الله مكث ستة أشهر لا يتحرى أن يسأل الله شيئا في حصول شيء، ثم نودي في سره: اسالنا عبودية لا ترجيح فيها للعطاء عن المنع، ويستطرد الإمام عبد الحليم محمود قائلا: لقد فنى أخيار أبي الحسن مع الله، وهذه المرتبة لا يتأتى لإنسان أن ينالها ابتداء حياته السائرة إلى الله لابد أن يسبقها جهاد شاق كيف وصل أبو الحسن إلى أن يسترسل مع الله على ما يريد فتفنى إرادته في إرادته واختياره في اختياره وأن يكون بالله إيرادا وإصدارا، فالتصوف كما يقول ابن خلدون "علم التصوف من العلوم الشرعية الحادثة في الملة، وأصله عند سلف الأمة وكبارها[1].

الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريق الحق والهداية واصلها العكوف على العبادة والانقطاع الى الله تعالى والأعراض عن زخرف الدنيا وزينتها والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة وكان ذلك عاما في الصحابة والسلف فإنما نشأ الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده وجنح الناس إلى مخالفة الدنيا اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة، والتصوف أساسه الأخلاق... وإذا نظرنا إلى تصوف أبي الحسن الشاذلي والى مدرسته فإنها لا تخرج عن إطار الكتاب والسنة فهو صاحب مدرسة وهذه المدرسة لها تلاميذها وتلاميذها لا يخرجون عن إطار ما رسمه الشيخ. وما رسمه الشيخ لا يخرج عن إطار الكتاب والسنة، وهو كثير العبادة و له أوراده وأحزابه التي يدعو بها ربه والشاذلي لأنه صوفي يتبع منهج الكتاب والسنة لا يجري وراء فلسفات قد تضل العقل إنه يؤسس إيمانا عميقا بربه على أساس أن الإيمان فطرة طبع عليها الإنسان.

والله ليس في حاجة إلى دليل على وجوده لأن الموجودات تفتقر إليه فكيف يستدل بالمخلوقات على الخالق[2].

---

[1] مأمون غريب، أبو الحسن الشاذلي حياته. تصوفه. تلاميذه وأوراده، دار غريب للطباعة والنشر القاهرة، 2000،ص 35.

[2] مأمون غريب، نفسه، ص 45.

كان الشاذلي مدرسة للتصوف المعتدل واعني بالتصوف المعتدل التصوف الذي لا يخرج عن الكتاب والسنة والتخلق بأخلاق الإسلام والتصوف أولا وأخيرا أخلاق وأخلاقيات الإسلام تكمن في الأمانة وحفظ حقوق الآخرين والزهد في الدنيا .

أخذت الطرق الصوفية في التعدد والتكاثر انتشارا في الجزائر إلى يومنا هذا هي: الطرق الرمانية السنوسية، الطيبية، العلاوية، الدرقاوية والعيساوية، الشاذلية والقادرية اللتان كانت موجودتين قبل القدوم العثماني غلى الجزائر.

2- دراسات أساتذة ومفكرين حول التصوف

يرى "الدكتور عبد المجيد عبورة" في تدخلاته بعنوان " Unite de existence et unite d'action dans le saufisme initif, Notre contribution s'inscrit dans la continuité de nos travaux et publications sur le saufisme initif au nans avons étage la thèses de la grande tria de saufie : Dieu, l'univers et l'homme ne formant en réalité qu'un seul system, Notre sole épistémologique que prend source dans le péripatétisme avicennien ou la raison humaine.

أما الدكتور أحمد الأزمي جامعة سيدي محمد بن عبد الله – فاس- المغرب كانت مداخلته عن التصوف بعنوان "دور التصوف في الحد من خطورة العولمة" تهدف إلى إبراز ما تنطوي عليه نظريات وتطبيقات العولمة من سحق وتذوين وإلقاء لحضارات وثقافات وقوميات وخصوصيات شعوب متعددة لصالح ثقافة وحضارة وقيم شعوب أخرى كما ترمي أفكار نفي المداخلة من جهة ثانية وعلى عكس فلسفة وغايات العولمة إلى التأكيد على أن التصوف الإسلامي ومثله العليا المستمدة من الكتاب والسنة تعد مقاربة فعالة للحد من خطورة العولمة، لما تجسده هذه المقاربة من قيم التسامح والمساواة بين كافة شعوب العالم دون أي تمييز.

أما الدكتور "باسم حسين عيتاني" مركز السلطان الفاتح – بيروت – لبنان كانت مداخلته بعنوان "منهج الإحسان في بناء الإنسان" يقول تشد الحاجة في حياتنا إلى التصوف، لأنه

عملية تصفية للنفس والإنسان وأهم مرحلة في حياة الإنسان هي مرجله الشباب التي هي شعبة من الجنون، فهي مرحلة قلقة في حياة الإنسان[1].

وهي مفصل أساسي، فسرعة الانحراف جارفة في هذه المرحلة، وكثرة الجدل واثبات الشخصية والاعتداء بالرأي ورؤية نفسه أنه يفهم أكثر من الناس ويظن نفسه أن يستطيع أن يفعل الأعاجيب، والفراغ الذي يقتله فيضع أوقاته بما لا ينفع ولا يجدي، وتكون فترة عناد وتمرد مع أهله، فيأتي التصوف ليبرمج حياة الشباب ليضع في ذاته الطمأنينة والهدوء بدل الغضب والقلق والسلام النفسي بدل الخوف والاضطراب، ومن ثم نرى أنها ظاهرة بحاجة إلى حالها في زماننا من سباب يلتزمون بالدين ولكن يأخذون قشور ولائية ومقاصده[2].

أما الدكتور "صالح شكاك" جامعة القنيطرة المغرب كانت مداخلته تحت عنوان " حب الأوطان من مراتب الإيمان" بقول آمن المتصوفة على الدفاع عن الأوطان أو دار الإسلام في شتى الوجوه وعلى كل حال، ففي ساعة الشدة وتكالب الأعداء كانوا دعاة جهاد وتعبئة للناس للدفاع عن حوزة البلاد وفي حالة التفرقة وتقطع سبل وعرى الوحدة، كانوا دعاة سلام وقبله هداية وعنصر وحدة لرأب الصدع ولإعادة البناء بما يخدم السلم والأمان.

أما الدكتور "دوغان قبلان" جامعة نجم الدين أريكان للإلهيات – قونيا – تركيا كانت مداخلته في الملتقى بعنوان " التصوف كعلاج لمشاكل التعصب والطائفية" يقول: مع أن الإسلام قد نهى عن التعصب بأكمله ليس سهلا أن يقال أن المسلمين قد تركوا ما نهاه الإسلام، لأن تراثنا القديم لاسيما كتب التاريخ مليئة بالحوادث المؤلمة بين المسلمين المتعلقة بالطائفية والتعصب والكراهية، في هذا البحث سنبحث مسامحة فكرة التصوف لهذه المشكلة مستندا على الوثائق التاريخية إذن نحن نعتقد أن التصوف هو الحل الوحيد لمشكلة التعصب المذهبي .

أما الدكتور عبدالوهاب فرحات جامعة الأمير عبدالقادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة كانت مداخلته بعنوان "تجربة التحرر في تصوف أبي الحسن الشاذلي" يقول: يعد أبو الحسن الشاذلي شخصيتين عامة من شخصيات التصوف المغاربي[3] التي لها حضور ولا يزال في

(1) ملتقى عن التصوف وفقه التحرر- abstracts. Pdf 13.12

(2) نفس المرجع، ص 13.

(3) الملتقى التكويني عند "التصوف وفق التحرر"، ص ص 17-18.

دنيا الناس، ولقد صبغت هاته الشخصية التصوف بصبغة علمية نأت به حياة الأديرة والكهوف، والضعيف والقيم من هذا العالم الذي يعتبر رجسا ودناءة في التصوف القديم وهذا ما بين ملائمة التصوف الشاذلي لحياتنا المعاصرة، ولقد قامت الممارسة الصوفية عند الشاذلي على تجربة التحرير هذا المبدأ الذي أرسى دعائمه فيما بعد ابن عطاء الله السكندري في كتابه الإشكالي "التنوير في إسقاط التدبير" ويقوم هذا المبدأ على ضرورة تحرير الفرد من التبعية الكونية، والتبعية العلمية ولقد استقى الشاذلي هذا الأصل بالحذق من أصول التصوف المدني الذي تضوعت به أنحاء المغرب العربي في تلك الحقبة.

3- الأصول التاريخية للطرق الدينية:

3-1 التصوف خصائصه: يعد التصوف "امتثال الأمر واجتناب النهي في الظاهر والباطن، من حيث يرضى لا من حيث ترضى"[1].

والذي ظهر في القرن الثالث الهجري، لكن كان في حركة محدودة بسبب اتهام الدولة العباسية المتصوفة بالزندقة، وبالعودة الى تاريخ ظهوره يعد الجاحظ أول من أورد اسم التصوف في كتابه البيان والتبيين في القرن الثالث الهجري ومن أكثر أنصار التصوف الزهاد، هذا وقد اصطنع الصوفية مبدأ التقية الذين استقوه من مبادئ الشيعة، إذ يقول المؤرخ المحقق أحمد صبحي في كتابه "البحث في مصادر التاريخ الديني": أن أول من استعمل التقية "الجنيد" وأول من كتب في مناقب الصوفية "السلمي" في كتاب "طبقات الصوفية"، و"بهجة الأسرار ولواقح الأنوار في حكايات الصالحين"، ثم كتاب حلية الأولياء" ثم مع "القشيري" تقرر التصوف كمبدأ في القرن الخامس، وظهر أعلام التصوف وسيطروا على الحياة الدينية العقلية، وأشهر صوفية القرن الخامس " الغزالي" وقد عرف أولئك الصوفية بالمعتدلين أو السنيين[2] ومن أبرز خصائصه :

* الصوفية هي أن الأفعال التي تقع على الصوفي لا يعلمها أحد إلا الله وان يكون مع ربه على نحو لا يعلمه أحد إلا الله وحده.

* قال أبو محمد الجريري :" التصوف مراقبة الأحوال ولزوم الأدب".

---

(1) أيمن حمدي، قاموس المصطلحات الصوفي، دراسة تراثية مع شرح اصطلاحات أهل الصفاء من كلام خاتم الأولياء، دار قباء، القاهرة، 2000، ص 50.

(2) أيمن حمدي، نفسه، ص 50.

* قال سمنون: "ليس التصوف إلا تملك شيئا ولا يملكك شيء".

* قال النووي: "ليس التصوف برسوم ولا علوم؟ ولكنها أخلاق " أي أنه إن كانت هناك قاعدة سلوكية لشخص فهي نتاج لمجهوده العتيق، وعن كان هناك علم فهو نتاج تعلمه، أما الصوفية فعلى خلاف ذلك. إنها نهج موافق لقول الرسول "تخلقوا بأخلاق الله" وأخلاق الله لن يوصل إليها بأسباب من القواعد ولا بأسباب من العلم.

* وقال الجريري: "التصوف، الدخول في كل خلق سني، والخروج من كل خلق دني".

* وقال الجنيد: "التصوف، أن يميتك الحق عنك ويحيك به"[1].

*وقال أبو يعقوب المزابلى: "التصوف حال تضمحل فيها معالم الإنسانية".

*- وقال أبو الحسن السيرواني: "الصوفي يكون مع الواردات لا مع الأوراد".

*- وقال أبو بكر الشبلي: "التصوف ضبط حواسك و مراعاة أنفاسك"[2].

1-1-3 التصوف الإسلامي الأول: ظهر في شكل ما عرف بالزهد أو التعبير عن الاعتراض السياسي أين مر التصوف الإسلامي الأول بمرحلتين أساسيتين، الأولى كانت سلوكية واتسمت بالرفض السلبي للواقع الحياتي والسياسي، والثانية كانت فكرية واتسمت ببلورة فلسفة دينية مختلفة عن الفلسفة الرسمية للدولة خلال الفترات الأولى للعهد العباسي.

وقد ظهرت حركة الزهد في الإسلام في منتصف القرن الأول هجريا، خلال أحداث الفتنة التي هزت المجتمع العربي فكان الزهد في هذه المرحلة الأولى تعبيرا عن احتراز وتحفظ سلبى إزاء ما يدور من صراعات، ثم تحول إلى موقف معارض صريح ضد الأوضاع الاجتماعية و السياسية في ظل الحكم الأموي. أما افريقية فيبدوا أن نساكها الأوائل ايضا لم يخلو زهدهم من المعاني السياسية، هذا الزهد الذي كان نوعا من التعبير عن الاعتراض السياسي كان النواة الأولى للتصوف الإيديولوجي أي التصوف الذي سيبني على مجموعة من الأفكار والمفاهيم المتكاملة التي ستجعل منه فلسفة مضادة للأيديولوجية الرسمية لدولة العباسيين، خاصة خلال القرن الثالث الهجري , إن كان ذلك عند تبني هؤلاء رسميا للمذهب

---

[1] عبد الكريم دهينة، الأضرحة وشرك الاعتقاد، ط1، دار النور المحمدي، 1993، ص 93.

[2] ر، نيكلسون، الصوفية في الإسلام، ترجمة: نور الدين شريبة، ط2، مكتبة الخانجي، القاهرة، 2002، ص ص 35،36. www.pdffactoty.com.

المعتزلي ما صحب ذلك من محاولات لفرضه على المجتمع بصفة تعسفية، أو عند رجوعهم بكل قوة إلى المذهب السني مع المتوكل فيما بعد[1].

ثم برز التصوف كاعتراض إيديولوجي: أين تم الانتقال من الزهد إلى التصوف في الإسلام في نهاية القرن الأول و بداية القرن الثاني (هجريا)، ثم بلغ التصوف نضجه في القرن الثالث، معنى ذلك أن هذا الفكر بدأ بصفة موازية لاحتدام الصراع من أجل تحديد الإيديولوجية المناسبة للدولة العباسية.

فما الذي كانت تطرحه الفلسفة الصوفية في هذا الإطار؟.

كانت فلسفة تتمحور حول مصطلحات ومفاهيم غاية من الخصوصية له معانيها المضبوطة منها المعرفة، والمجاهدة والولاية، والكرامات، والظاهر والباطن ثم الشريعة والحقيقية، ليتسرب التصوف إلى الأوساط المعدمة: خلال القرن الرابع والخامس هجريا اتخذ التصوف أبعادا اجتماعية في إطار الفرز الذي بدأ يتبلور في ظل الدولة العباسية، فكان التصوف أحد التعبيرات التي اتخذها بعض الفئات الشعبية للدلالة عن عدم قبولها الحيف، وفي هذه الفترة برزت عدة تنظيمات كانت تعبيرا عن الغضب الشعبي وعن التمايز الاجتماع.

3-1-2- أصول التصوف في شمال إفريقيا :

والتي انطلقت من تصوف فردي الى تنظيم جماعي حيث يمكن إرجاع أصوله إلى التنظيم الجماعي للتصوف أو الانتقال من التصوف النخبوي أما الثانية فكانت مرحلة الانتقال إلى التنظيم الجماعي للتصوف أو الانتقال من التصوف الفكري إلى التصوف الشعبي الطرقي وقد وقع ذلك في القرن التاسع الهجري في ظروف تاريخية خاصة. وقد كانت هذه النخبة من المتصوفين تكون "أساتذة ممتازين في علوم الصوفية نشروا التصوف في المدن أولا وشيئا فشيئا (ابتداء من القرن السابع الهجري) نقل تلاميذهم التصوف إلى الأرياف أنشئوا زوايا للتعاليم الصوفية ويفتح باب التصوف لأهل الريف والعامة ساعدوا مرارا كثيرة على نشر

[1] لطيفة الأخضر، الإسلام الطرقي ، دراسة في موقعه من المجتمع ومن القضية الوطنية،(ب.ط)، دار سراس، تونس، 1993، ص ص 10-13.

الإسلام وإعادة نشره في الأرياف، وبهذا مهدوا السبيل للحركة الصوفية الكبيرة الشعبية التي ستنتشر ابتداء من القرن الخامس عشر مع الطرق الدينية من الغرب إلى الشرق[1].

لكن ولتفسير هذا التحول التاريخي الذي حدث على التصوف ليجعل منه حركة شعبية، وبقطع النظر عن الظروف التاريخية الملائمة والتي ليس المقصود هنا التقليل من قيمة تأثيرها على مجرى الأمور– يبقى للتحول الفكري الذي صحب محاولات كل من الغزالي والقشيري في التوفيق، من القرن الخامس الهجري، بين الإسلام السني والتصوف تأثيره الكبير على خروج هذا الأخير من هامشه الاجتماعي الضيق إلى فضاء أوسع، ذلك أن ما آتى به الغزالي في نهاية الأمر لم يكن فقط سمح بإرجاع التصوف إلى حظيرة الشريعة – وقد كان بجانبها بل مكن خاصة بتسامح الدين السني الرسمي مع هذا التصوف وفسقط جدار لاضطهاد ونقص النفور والعداء وسمح هذا " التعايش السلمي"، وهذا التصالح بين المنهجيين في العالم الإسلامي وفي شمال إفريقيا، خاصة بعد سقوط دولة المرابطين، ثم دولة الموحدين بانتشار التصوف على نطاق واسع.

إضافة إلى هذا القبول المتبادل بين المذهبين السني والصوفي وإلى ما سمح به من إزالة العراقيل أمام الحظوظ الاجتماعية لهذا الأخير، ما هي المعطيات الأخرى الخصوصية التي جعلت من حركة التصوف والزوايا أكثر أشكال النفوذ والسلطة هيمنة في المجتمعات المغربية وذلك إلى بداية القرن العشرين؟ ولما اختارت الفئات الواسعة من المجتمع الانضمام والانتماء إلى هذا النوع من الدين، في حين كان سلاطينها وفقهاؤها يعتنقون مذهبا آخر؟.

لتظهر تفسيرات مختلفة حول انتشار التصوف بشمال إفريقيا: وإن كانت نسبية في شموليتها وصحتها إلا أنه من المستحسن الوقوف عليها والتمعن فيها لأنها تجلب الانتباه إلى بعض الجوانب الخصوصية للطريقة بهذه المنطقة من العالم الإسلامي. فعندما انتشر التصوف بين الفئات الواسعة من المجتمع وخاصة المجتمع الريفي، وخرج عن الأوساط المتعلمة، أضاع جانبه الفلسفي الراقي ليصبح مجموعة من المعطيات الملموسة يمثل "ولي الله" محورها الأساسي، والزاوية فضاؤها الأول والطقوس وسائل معانيها الدينية. ولأن هذه الطقوس جاءت خارجة وموازية للطقوس البربرية القديمة، إذ حاول العديد لبحث على ما يثبت هذا

[1] لطيفة الأخضر، مرجع سابق، ص 16.

التواصل المباشر بين الاعتقادات الصوفية والاعتقادات البربرية القديمة في شمال إفريقيا، وتمكن "غولد سيهير " من العثور على ذلك بالنسبة للشرق حيث اثبت أن زيارة ضريح سيدي أحمد البدوي بطنطا بمصر على سبيل المثال، تأخذ بالضبط مكان الزيارة التي كان يقوم بها المؤمنون إلى الآلهة "ارتيميس" بمصر القديمة، وذلك اعتمادا على الوصف الذي قدمه "هيرودوت" لهذا الحج، وأيضا على ما قدمه المسافرون المعاصرون من شهادات حول هذه الزيارة .

أما الافتراض الثاني فيجعل من انتشار الظاهرة الصوفية وعبادة الأولياء ثار المرأة لنفسها على مستوى الممارسة الدينية، حيث انكبت المرأة على عبادة الأولياء كفضاء تستمد منه سلطة دينية مضادة.

أما في مستوى الزيارة أو التردد على الزوايا، فإن ذلك يصبح سهل الملاحظة، فالزاوية هي إحدى الفضاءات العامة النادرة التي بإمكان المرأة التردد عليها بدون محرمات اجتماعية، فكانت تقوم بذلك ولا زالت في أيام معينة من الأسبوع.

وبالنسبة للافتراض الثالث، فهو يتعدى ظاهرة التصوف الطرقي إلى ما يهم حركة الزوايا بصفة عامة، ليوضح أن الكثير من الطقوس ومظاهر الاعتقادات الشعبية هي مرتبطة بوجود السودان في المجتمع التونسي والمغاربي بصفة عامة[1].

كلا من هذه الفئات الثلاث هي فئات أقلية أو تعاني وضعية الأقليات حتى وإن كانت نصف المجتمع مثل المرأة وهي جميعا بحكم وضعها فئات مهمشة بطريقة أو بأخرى، لذلك يبدوا اعتناقها لدين الزوايا والطرق الذي تميز منذ بدايته باستيعابه للفئات المهمشة أمرا طبيعيا. لكن ليس لظاهرة بمفردها من هذه الظواهر أن تفسر انتشار الطرقية والزوايا بشمال إفريقيا أو بغيرها، خاصة وأن هذا النوع من الاعتقادات نجده منتشرا بدرجات وأشكال مختلفة في العديد من الحضارات في تلك التي تسمى "بائية " أو في الأخرى التي بنيت حضاراتها على أخلاقيات دينية أو على ديانات سماوية، فالاعتقاد في الأولياء نجده في الدين العبري والمسيحي، مثلما نجده في ظاهرة "ساحر القبيلة " وزعيمها الروحي عند الشعوب البدائية، ويمكن أن نجد اشتراكا بين يهود ومسلمين في زيارة نفس الولي مثلما هو الحال بالنسبة

[1] لطيفة الأخضر، مرجع سابق، ص 19.

لسيدي محرز بتونس أو لسيدي يعقوب بتلمسان لنصل إلى أن الإسلام قد التقى مع بعض المظاهر الكونية للديانات الأخرى وذلك منذ ظهوره، كما انه لم يفلت من قانون التلاؤم الحتمي مع خصوصيات الحضارات التي داخلها فلاشك أن العنصر البربري قد لعب دوره في ذلك، كما لاشك في أن الفئات المختلفة في كل مجتمع حاولت من منطلق موقعها الاجتماعي الدوني أن تتعامل بخصوصية مع الاعتقاد الديني، إلا أن هذا لا يتنافى مع البعد الكوني للظاهرة، وهو يمكن في الجانب الميثولوجيى والاستيهامي والخيالي الذي يصاحب كل الديانات والاعتقادات، كما أنه لا يتنافى خاصة مع البعد التاريخي لهذه الظاهرة فالحركة الصوفية قد ظهرت كتعبير من نوع من القطيعة السياسية والفكرية مع ما هو رسمي، ولأن كل القيم المهيمنة في إطار التاريخ العربي الوسيط كانت قيما دينية، فإن هذا التعبير لم يخرج هو أيضا عن المنطق الديني، بل تطور داخله، فكانت في البداية مبادئ فلسفية تدور في إطار نخبوي ثم اتسع نطاقها والتقت بالتربة الاجتماعية في ظروف تاريخية خاصة، ثم أخذت تنتشر بصفة موازية لانتشار الإسلام في الأماكن المفتوحة بما في ذلك شمال إفريقيا[1].

4- دور الطرق الصوفية في المجتمع الجزائري

كانت الجزائر معبرا للتجار والحجاج وطلبة العلم الذاهبين غلى المشرق والعائدين منه وكانت مسرح المعارك ومطمع الغنائم وفما ظهر على ساحة الوجود تيار أو مذهب إلا كان له صداه في الجزائر ومن هذا المنطلق عرفت الجزائر الاتجاه الصوفي الذي ساد المنطقة خلال القرن السادس الهجري ولتمتد مراحل التصوف المغربي خلال الحكم من عهد الموحدين إلى غاية العهد العثماني حتى دخول النظام الكولونيالي الفرنسي وسياسته التنصيرية. تميز التصوف المغربي في مراحله الأولى بالتصوف العلمي وهذا ما يؤكده الشيخ مبارك الميلي في قوله: " فجاءت الدولة المؤمنية ونشرت المعرف ونصرت الفلسفة فظهر من الصوفية رجال طار صيتهم في الآفاق[2] عرفت الجزائر أسماء لامعة ساهمت في إنتاج ثقافي وفير يعود الفضل في ذلك إلى العلماء والمشايخ الصوفيين على غرار أبو مدين

(1) لطيفة الأخضر، مرجع سابق، ص ص19، 26

(2) مبارك بن محمد الميلي، المرجع السابق، ص 247.

شعيب دفين تلمسان، عبد الرحمان الثعالبي، محمد الهواري، وعبد الرحمن البوغليسي المتوفى سنة 786 ه ومحمد بن يوسف السنوسي وعيسي بن سلامة البسكري وغيرهم وامتاز هؤلاء بالجمع بين العلم والعمل على معرفة الكتاب والسنة معرفة دقيقة بالإضافة إلى الورع والتقوى والابتعاد عن مغريات الدنيا وهذه من الشروط الأساسية للتصوف من خلاله يقوم المسلم على مجاهدة النفس على الاستقامة والطاعة الله عز وجل وإتباع ما جاء في الكتاب والسنة[1].

عرف المغرب والجزائر بصفة خاصة خلال الفترة الممتدة من سقوط الدولة الموحدية إلى غاية العهد الكولنيالي تطورات وصراعات سياسية كثر فيها الفساد والاضطراب والفوضى وسوء المعيشة، مما أدى إلى هجرة العلماء وضعف الطاقة العقلية وغلق باب الاجتهاد وانحراف العقائد والسلوك الدينية "عندما ضعفت الروح الدينية عند العلماء، ساد التصوف العملي بما فيه حضرة وأذكار وأوراد واعتقاد في المرابط"[2].

فظهرت الطرق الصوفية في اتجاه مغاير لما ظهرت به من قبل وتحولت من إنتاج سوكي ونتيجة تدهور الأوضاع السياسية وتدني المستوى الثقافي للمجتمع القروي والفلاح الذي كان محل إهمال من السلطة واستغلال من طرف الشيوخ والقواد، لم تهتم السلطة آنذاك بصحة السكان ولم يكن هناك مستشفيات ولا مصحات تهتم بصحة الإنسان البسيط ما دفعه إلى التداوي بالأعشاب وبالوسائل الخاصة بما في ذلك الأدعية والأحجبة وبصاق الأولياء والتبرك بهم، وتماتم السحر، كل هذه الأسباب الثقافية والاجتماعية جعلت الإنسان المغاربي يقبل على الزوايا وينخرط فيها ويعتقد في شيوخها ويؤمن بالأولياء وكراماتهم ويتخذ من قبورهم وأضرحتهم مجال مقدس يلجأ إليه كملجأ إليه كملجأ الأمان والاستقرار ينبغي زيارته والتبرك به وإقامة حلقات الذكر وممارسات الطقوس.

ظهر الاعتقاد في الشيخ والالتفاف حول الزاوية والابتداع في الحضرة والأوراد لتصبح الزوايا فضاء لممارسة الحياة الروحية والشعائر الطرقية "تعتمد على ممارسة جماعية منظمة انخرطت فيها جميع فئات المجتمع وهيمن عليها الطابع التطبيقي للتصوف"[3] مما

---

[1] عبد الحكيم عبد الغني، المرجع نفسه، ص 28.

[2] أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص 52.

[3] أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص 52.

جعل رمزية التصوف ينتشر أكثر في المغرب العربي خاصة في الجزائر ويصبح التصوف العملي هو التيار الروحي بمثابة العقيدة الدينية والملاذ الذي يلجأ غليه الإنسان في الملمات، وهي الحصن الذي يحميه من العواص والنزوات والهزات[1] بسبب حاجة الناس لتجاوز أزماتهم الاجتماعية والذاتية ما كون ايديولوجية شعبية ساعدت في الاعتقاد في الأولياء وكراماتهم و سلطتهم الروحية واعتبارهم وساطة بينهم وبين الله[2].

كان الصوفيون في العهد العثماني يأخذون العلم خارج بلادهم في المغرب أو دمشق، أو بغداد، أو في القاهرة لافتقار الجزائر على المعاهد والجامعات، كانوا يتلقون مبادئ الطرق الغير موجودة في بلادهم، ويصنف الدكتور أبو القاسم سعد الله رحمه الله الصوفيين إلى ثلاثة أصناف: صنف العلماء الموظفين والفقهاء المستقلين الذين لا صلة لهم بممارسة التصوف العملي والصنف الثاني هم العلماء الذين غلب عليهم التصوف، وهم في الغالب لا يميلون إلى الوظيفة وإلى التقرب غلا إذا اجبروا على ذلك بوجه من الوجوه وأما الصنف الثالث فيظم "المتصوفة" الذين كانوا يدعون العلم والانتساب إلى التصوف والولاية لغرض من الأغراض، والذين ساعدتهم الظروف السياسية والاقتصادية على الظهور واستغلال العامة[3].

من هذا التصنيف نلاحظ أن التصوف ظهر منذ نشأته على شكل ممارسات فردية تأملية مرورا بمراحل مختلفة اختلافا بينيا، إلى أن ظهر التصوف بصيغته الطرقية في لون ثقافي جديد، في الثقافة الإسلامية في المغرب العربي، ليصبح التصوف مذهب طائفي في هيئة منظمات تعتمد على إقناع السكان بالصبغة الجماعية تقام في الزوايا لتصبح بدورها مؤسسة دينية ثقافية اجتماعية سياسية، تؤدي الزوايا خدمات لفائدة الجماعات المحلية مثل التعليم والتربية الروحية وإطعام المسافرين والمساكين[4] لها تنظيم سياسي معين خاص، يظهر الفروق الاجتماعية بين شيوخ الزوايا وأسرهم وبين الجماعات المحلية ويستغل مشايخها

---

(1) محمد خالد، "المقدس والعنف في التجربة الصوفية"، إنسانيات، مركز البحث في الأنثروبولوجيا الثقافية والاجتماعية، وهران العدد 11 ماي 2000، ص 68.

(2) مهدي محمد القصاص، علم الاجتماع الديني كلية الآداب جامعة المنصورة، مصر، 2008، ص 47.

(3) أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص 481.

(4) عبد المجيد مزيان، النظريات الاقتصادية عند ابن خلدون، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص 190.

نفوذهم الروحي وظهور الكرامات والخوارق في تسيير السكان لأغراضهم الاقتصادية، لتصبح "الصفة الإقطاعية والطبقية تطغى على العلاقات الموجودة بين السكان ومسيري الطائفة "[1].

يضيف الأستاذ أبو القاسم سعد الله "في عصر ساد فيه التخلف ونامت فيه أعين الرقباء ظهر هناك أشخاص هنا وهناك يدعون دعوات ضالة مضرة بالمصلحة العامة"[2]، لا ندعي أن كل طريقة صوفية تحولت إلى نظام إقطاعي، وأن التصوف تحول من العلم إلى الخرافة ومن نظام ديني إلى نظام تسلطي، فالصوفية الحقيقية مبنية على إيديولوجية تتركز نقاطها في الزهد، والحب الإلهي ,نظامها ثقافي ديني يرمي إلى التكوين الروحي العقائدي المتشبع بالروح النضالية والجهادية.

بدأ التصوف في الجزائر تصوفا نظريا، ثم تحول ابتداء من القرن العاشر الهجري، واتجه إلى الناحية العملية وأصبح يطلق عليه تصوف والزوايا والطرق الصوفية وقد وجد التصوف وطرقه لأول مرة في بلاد القبائل ببجاية والمناطق المحيطة بها، وكانت بجاية مركز إشعاع طرفي صوفي لعدة قرون من الزمن، فلقد انطلق منها رجالات التصوف الكبار من أمثال أبو زكريا الزواوي وأبو زكريا السطيفي ويحي العيدلي والشيخ أبي مدين الذي انتقل فيما بعد إلى تلمسان وتوفي 595هـ/1197م، ومنها انتقل التصوف إلى بقية المناطق الأخرى فلقد كان الشيخ أبو مدين شعيب بن الحسن الأندلسي أحد أوائل أوتاد الطريقة الصوفية في الجزائر وقد عرفت طريقة "المدينة شهرة واسعة وأتباعا كثيرين في مختلف أنحاء المغرب الإسلامي وازدادت شهرته على يد تلميذه عبد السلام بن مشيش (665هـ)، ثم تطورت وأحياها من بعده شيخ الطائفة الشاذلية وتلميذ ابن مشيش "أبو الحسن الشاذلي" نسبه إلى قرية شاذلية بتونس وتوفي بأرض المجاز سنة 655هـ، وكان لتعاليم الشاذلي تأثير مهم في الجزائر بحيث يكاد يجزم أن معظم الطرق التي ظهرت بعد القرن الثامن تتصل بطريقة أو بأخرى بالطريقة الشاذلية وقد شاع التصوف في الجزائر بفضل مدرسة عبد الرحمان الثعالبي ومحمد بن

[1] عبد المجيد مزيان، المرجع نفسه، ص 190.

[2] أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص 483.

يوسف السنوسي وأحمد زروق وغيرهم هذا الشيوخ وبذلك أخذ التصوف يدخل من شرق ومن غرب الجزائر[1].

ولقد ساهمت الطرق الصوفية من خلال الدور الأساسي الذي لعبته الذي تمتثل في:

4-1- التأثير الإيجابي:

تحقيق الوحدة الروحية بين أفراد والمجتمع الجزائري، وذلك للحفاظ على الوحدة الوطنية نتيجة التلاحم الروحي والديني بين الأرياف والمعالم الدينية من زوايا ونحوها ونقل الطلبة عبر جهات عديدة من الوطن، وكل ذلك عمق من أوامر التعارف ومد جسور المحبة من طبقات المجتمع الجزائري، عملت على إزالة الفوارق الاجتماعية والاقتصادية بين الفئات والشرائح الاجتماعية، المختلفة، فقربت بين الفقراء والأغنياء، العلماء والأميين والشرفاء وغيرهم وصهرتهم جميعا في بوتقة واحدة وألفت بينهم جميعا في العملية التربوية وتهذيب السلوك وهدوء الأعصاب، واستقرار النفوس، وتهذيبها بالقيم القرآنية والتمرس على الطاعة ونبذ العنف والتمرد والعصيان.

مساهمة الوقف في خدمة العمل الخيري والاجتماعي والتعليمي ودور التدريس وتفصيل مهام المساجد إذ ظل المصدر الهام والموارد الأساسية كفالة اليتامى والأرامل فقد أولت هذه المؤسسات اهتماما كبير بالأيتام من خلال إيوائهم والتكفل بهم وبحاجاتهم.

لعبت دورا هاما ورائدا في إنهاء الخلافات والخصومات بين الأفراد والجماعات وذلك بفضل مكانة شيوخها مقدميهم ووكلائهم فمثلت دور الحكم وقللت من الخلافات والمشاكل بين الناس، وبذاك تمتع المجتمع الجزائري بالاستقرار النفسي الخلقي واتخذ شيوخ هذه الطرق الصوفية قادة له[2].

4-2- التأثير السلبي:

احتدمت الخلافات بين بعض شيوخ الطرق الصوفية حول بعض القضايا الهاشمية كالفيض في الصلاة والجهد في البسملة قراءتها ظاهرة الاعتقاد ودون الانتقاد بحيث أصبح ذلك من

---

[1] طيب جاب الله، "الطرق الصوفية والزوايا في المجتمع الجزائري"، مجلة السنة الثامنة (أكتوبر 2013)، العدد (14)، ص 4.

[2] يحي بوعزيز، موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر العرب، ج1، دار الهدى للنشر والطباعة والتوزيع ، الجزائر 2004، ص 223.

المسلمات به وضع الكثير من الجزائريين شؤونهم تحت إمرة الطرفيين المبتدعة والمشعوذين أعلا الظلال وكثر التبجيل باسم الدين الحنيف واختلط التصوف مع المبتدعة وعمت الحضرة وكثر الابتعاد من العلم والعمل إذ لم تكن لديهم اهتمامات بفلسفة التوحيد وليست عقيدة عميقة في الدين الإسلامي الأمر الذي لم يسمح بتكوين رأي سياسي موحد لم يكن لهم إلا البحث الروحي الذي تجاوز الحدود السياسية الوطنية[1] إلى حدود الماضي بعيدا عن آفاق المستقبل فحدث تقدم إلى الوراء تغيب الناس عند واقعهم وإسكانهم من دون تحسسيهم بماضيهم الذي هو شرط التطلع إلى المستقبل الانطلاق على الذات والجنوح نحو الخلوة والتصوف والأخذ بمرجعية السلف السابق دون مراعاة للظروف الجديدة ولا توظف القدرة الذهنية ولا العقلانية في دراسة المحيط وكل ذلك أغلق مدارس الاجتهاد وقتل من رواد العقلنة وفكر الحداثة حتى الاستفادة من حركة التنوير التي عرفها العالم مع بداية التاريخ الحديث من لم ترتبط قضاياهم الأخروية بقضايا العالم الدنيوية[2].

4-3- التأثير الثقافي:

لقد اهتمت الطرق الصوفية بصفة عامة بتحفيظ القرآن للأطفال الصغار وكذلك الكبار مما ساعد ذلك على محو الأمية وحماية القرآن الكريم، من النسيان والضياع والاندثار من جهة أخرى، عملت الطرق الصوفية على نشر الإسلام في المواطن والأصقاع البعيدة التي لم يكن قد وصل إليها خاصة الأقاليم الصحراوية النائية، وكان ذلك من أشكال مقاومة الجهل والأمية ونشر العلم والمعرفة في أوسع مجالاتها وبذلك استطاعت الطرق الصوفية أن تصنع أجيالا من العلماء الكبار والفقهاء والقضاة وكبار المفكرين، كانت زوايا الطرق الصوفية تستخدم بمثابة مخازن ودواوين للكتب والمحفوظات العلمية، في مختلف أنواع العلوم والفنون والمعارف، وذلك راجع لاهتمام شيوخها وطلابها بالعلم والتعليم والنقل والنسخ للكتب والتأليف والجمع والشراء ما إلى ذلك.

والملاحظ أن التعليم لدى الصوفية كان مقتصرا في معظمه على تعليم الذكور والإناث ولكن رغم ذلك ظهر من الطرق من ناصر المرأة أرجعوها في حلقة التربية والتعليم وأولوها

---

[1] يحي بوعزيز، نفسه، ص 145.

[2] يحي بوعزيز، المرجع السابق، ص 145.

العناية وقربوها من نشاطهم وهذا ما نجده خاصة عند الرحمانيين والتجانيين وكان الهدف من هذا الاهتمام بالمرأة أضعاف شوكة بعض المرابطين وصلتهم الوطيدة بالعديد من شؤون قضايا المرأة لذلك راهنت هذه الطرق على مواجهة المرابط في توظيف المرأة بخدمة طريقتها خاصة أن هذه الأخيرة كانت أكثر زيارة للأضرحة[1].

هناك أيضا:

- **الوظيفة السياسية (الجهاد)**:إن جولة بسيطة عبر الأحداث التاريخية تمكننا من الحصول على فكرة حول مختلف أشكال الوظائف التي كانت ترتبط بهذه الطرق الصوفية. ولهذا يجب أن نتذكر مقاومة المنظمات الدينية ضد الأوامر السلطانية ضد الفتاوي الرسمية ضد مختلف "الحكومات" التركية والفرنسية وسلطتها[2].

تقدم لنا إفريقيا الشمالية حقل تجريبي تتضاعف فيه الأمثلة في كل مرحلة تاريخية. نذكر هنا "طوائف" المرابطين والموحدين حيث كانت الألاف منهم تتدفق في القبائل محولة تحريض الجماهير باسم الدين لتهديد الحكومات في أبراجها وبالتالي إخضاعها على التعامل معها كقوة محركة.

في الغرب الجزائري، كانت القادرية تشتتت، بعد تحريض القبائل ضد قيادة الباي حسن. حيث كانت تظهر في حالة تلاشي وانعدام، لتظهر بعد ذلك بأكثر قوة وأكثر حماس. تتكون مرة أخرى في السر والخفاء و تعيد الكرة لتحميس السكان الذين بدورهم تدفعهم "الجرأة" إلى حد فرض الحصار على مدينة وهران. كما أن التيجانية بدورها ولو أنها تصرح في الظاهر على أنها غير مهتمة بالسلطة الدنيوية، كانت تقاوم بطريقتها انطلاقا من حصنها أو مركزها الواقع بعين ماضي[3].

في المنطقة الشرقية، بعد الحرب الخفية التي شنتها الحنصالية ضد البايات، ظهرت القادرية بدبورها ونهضت في مختلف أنحاء القبائل لتسجل عدة انتصارات على الجيش التركي. يذكر حمدان خوجة أن شيوخ الطريقة الصوفية أمروا جميع المواطنتين الجزائريين أمام الغزو

---

[1] يحي بوعزيز، المرجع السابق، ص 222.

[2] DEPONT.O.et coppolani (x), les confréries religieuses musulmanes,op .cit , p 252.

[2] DEPONT.O.et coppolani (x) , p 253

الفرنسي بالتعبئة العامة للإحاطة بالعاصمة والمقاومة[1]، كما ذكر الكابتن دي نوفو(Deneveu) من ضباط القيادة العامة في قسنطينة الدور الرئيسي للزوايا في المقاومة الدنية وأهميتها[2].

لقد كان بفرع المدينة طريقتان، الدرقاوية الذين كانوا معادين لنا كل العداء لأن غايتهم كانت سياسية بوجه خاص. أرادوا أن يشيدوا من جديد إمبراطوريه إسلامية و يطردوننا، إن هذه الطريقة منتشرة جدا في الجنوب ومن الصعب جدا مراقبتهم لقد كانت ندوات الإخوان سرية أغلبية رؤسائهم معروفة (النقيب ريتشارد، تقرير المفتشية العامة المحرر سنة 1864) "تسعى الزوايا التي يدير معظمها مقدمون من مختلف الطرق إلى إفساد عقول الأجيال المقبلة وذلك ببث عدم التسامح الديني في قلوب الشباب وحملهم على كراهية الكافر".

إن مشايخ الزوايا يختارون في تدريسهم للقراءة نصوصا من القران معادية لنا، مما يحطم فيهم وبسرعة الشعور الذي سعينا لتطويره فيهم عن طريق مؤسساتنا، وتعتبر التأثيرات الدينية من ألد أعدائنا والتي يجب أن نخشاها وتخطط لها سياستنا. ولقد كانت القبائل الأشد عداء لنا هي تلك التي ينتشر فيها التعليم الإسلامي[3].

- **الوظيفة الاجتماعية:** "ظلت الزوايا كمؤسسات تربوية تعليمية، عقودا من الزمن صامدة في وجه الحملات التبشيرية والتنصيرية." لقد استطاعت أن تحفظ الإسلام بهذه البلاد في عصور الجهل والظلمات، وعمل رجالها، الكاملون الأولون على تأسيس الزوايا الرباطات يرجعون فيها الضالين إلى سواء السبيل، ويقومون بتعليم الناشئة وبث العلم في صدور الرجال ولو لا تلك الجهود العظيمة لم كنا نجد الساعة في بلادنا أثرا للعربية ولا لعلوم الدين. فالزوايا الكبرى أمثال معهد الهامل ومعهد اليلولي ومعهد سيدي منصور هي التي كونت دائما في هذه البلاد طبقة فاضلة من العلماء والفقهاء وحفظة القران الشريف وكانت واسطة فعلية نقل الإسلام إلى بلاد أقصى الجنوب والسودان وكانت فوق ذلك ملجأ للعاجزين وابن السبيل.

---

(1) صلاح مؤيد العقبي، المرجع السابق، ص 72.

3 De neveu capitane, Khouan, les ordres religieux chez les ordres religieux chez les Musulmans, éditions, Ernest les Roux, Paris, 1846, p121.

(3) صلاح مؤيد العقبي، المرجع السابق، ص ص 73، 74.

"إن أهم أحداث هذا القرن السادس عشر الميلادي أن اتبع فيه نشاط الفرق والطوائف الصوفية التي كان من فضلها ومن بين محاسنها أو محاسن بعضها في الميدان الاجتماعي على الأقل أن بعثت بالتقاليد الإسلامية في كثير من الجماعات البربرية التي ظلت حتى ذلك الوقت بعيدة عن التأثر بالثقافة الإسلامية"[1].

كما عملت على التقريب بين عناصر السكان إن لم تكن قد جعلت منهم وحدة متكاملة، وفي بداية العهد المدروس، كانت الزوايا عبارة عن رباطا أو نقاط أمامية ضد الأعداء، فكان المرابطون يقودون أتباعهم في الحروب الجهادية وينصرون المجاهدين ويطعمنهم في زواياهم ويتحالفون مع الأمراء المكافحين من اجل الدين وحماية البلاد فقد كانت الزوايا بالإضافة غلى وظيفتها الدينية معاهد لتعليم الشبان وتنوير العامة.

وجاء دور المرابطين والزوايا فأدوا شؤون المداشر بالاتفاق والتفاهم ومراعاة المصالح مع جماعاتهم واعتنوا بنشر العلم وجلب الطلبة غلى معاهدهم فكان ذلك خيرا للبلاد وانتفع به المواطنون مدة طويلة من الزمان ولكل عصر ما يلائمه ويناسبه فدل هذا العمل على حسن نواياهم نحو معاشريهم. وإلى هذه الزوايا وأمثالها، قبل أن ينحرف بعضها في العهود الأخيرة ويعود الفضل في تكوين مجموعة من العلماء والفقهاء وحفظة القرآن الكريم الذين كانوا واسطة في نقل الإسلام إلى أقصى الجنوب الجزائري في أعماق الصحراء إفريقيا"[(2)]، والذين كانوا السبب في حفظ اللغة العربية والقرآن الكريم والعلوم الإسلامية في الجزائر.

5- مقامات التصوف

المقام هو قيام العبد بين يدي الله عز وجل، فيها يقام فيه من العبادات والمجاهدات والرياضيات والانقطاع إلى الله تعالى.

وقد اختلف شيوخ الصوفية أنفسهم في عدة المقامات وجعلها الشيخ الطقوسي في كتابه الشعير اللمع في التصوف سبعا وهي:

أ- **مقام التوبة:** هو انتباه القلب من رقدة الغفلة كما هو الرجوع كما كان مذموما في التسرع إلى ما هو محمود فيه.

[(1)] بن عتو بشير، المرجع السابق، ص ص 455، 456.

[(2)] بن عتو بشير، المرجع السابق، ص ص 456، 457.

ب- مقام الورع: الورع هو التقوى أي الابتعاد عن الإثم، الكف عن الشبهات والمعاصي.

ج- مقام الزهد: هو ترك الزائد الدنيا الفانية طمعا لزائد الآخرة الخالدة.

د- مقام الفقر: وهو انعدام الرغبة في الأجور الدنيوية.

هـ- مقام الصبر: الصبر من المقامات التي تمكن السالك من تحمل جميع ما تحل به المصائب والنكبات لأنها صادرة عن مشيئة الله.

و- مقام التوكل: هو الاستسلام استسلاما تاما المشيئة الله وأول مقام في التوكل أن يكون العبد بين يدي الله عز وجل وقد أثر الصوفيون تأثيرا قويا في الإسلام عن طريق قولهم بالتوكل طبعوه وهو ما يسمى عقدهم الاستسلام أو الجبر الإسلامي.

ي- مقام الرضا: وهو آخر المقامات حيث يرى الغزالي في الرضا عزة من عزات المحبة وهو أعلى مقامات المقربين[1].

6- أماكن اجتماع الصوفية:

ابتداء من القرن الثالث عشر، ازدهرت المؤسسات الخاصة بالحياة الروحية في كل الأراضي الإسلامية.

* **الرباط**: في بداية الأمر كان يقع الرباط على حدود المجال الإسلامي وعلى واجهة الأراضي الغير الإسلامية، شيئا فشيئا فقد الرباط دوره العسكري ولم يبق أثره إلا في البلاد العربية لاستقبال جنود الأصغر والصوفية[2].

وفي القرن الثاني عشر وكانت بغداد تعد عدة "رباطات" وعلى رأسها رباط "شيخ الشيوخ" الموظف من طرق الخليفة.

* **الخنقة:** ظهرت الخنقة في ايران من القرن العاشر لاستقبال أعضاء جمعيات التقوية المنتمية لها، وكذلك عابري السبيل والزوار، أصبحت بعد ذلك مقر الاندماج الاجتماعي. بني صلاح الدين الأيوبي خنقة لثلاثمائة صوفي شرقي، وهي مؤسسة عمومية ممولة من طرف النظام الأيوبي والمماليك بعد ذلك، وذلك بهدف مراقبتها على أحسن ما يرام وعن قرب، لكن الكثير من الصوفية أبدو تحفظهم تجاه المؤسساتية وظهرت لهم على أنها متناقضة لأن

[1] GEOFFREY Eric, initiation au soufisme,op. Ct, page 184

[1] GEOFFREY Eric, Initiation au soufisme, op. Ct, pp 185 ,186

المقيمين في هذه المؤسسات كانوا يتقاضون شبه راتب بينما "الفقراء في الله" من المفروض أنهم يتوكلون على الله واكتساب رزقهم بأيديهم.

* **الزاوية:** الزاوية هي مكان المبادرة الفردية العفوية الذي يأتي من "البحث" الروحي تعرف في العالم العربي فقط، وهي "الكن" الذي يلجأ إليه لممارسة الحياة الباطنية وفي الأصل ،كان منزل أو دكان الشيخ كافيا لوظيفة الزاوية لتشمل استقبال واستضافة الصوفية، ومن هنا ظهرت في المغرب العربي أكبر الزوايا في الأرياف خاصة ومسيرة حسب نظام الاكتفاء الذاتي ولتقدم تعليما في العلوم الإسلامية وتساهم بصفة واسعة في الانسجام الاجتماعي في اغلب الأحيان.

تتكون الزاوية الكبيرة من مسجد، مدرسة، دار الضيافة وأماكن خاصة تتمركز المجموعات الهامة حول "مقام" أو "مزار" الولي المؤسس أو أحد تابعيه الذي هو بمثابة مكان تجمع الصوفية ليجذب الجموع الغفيرة.

* **المدارس:** في الحقيقة الأمر وابتداء من القرن الحادي عشر تعدى انتشار الصوفية دور هذه الأماكن، لتظهر المدارس في العراق لاستقبال هذا التعليم، حوالي القرن الثالث عشر، تعممت الظاهرة لتشمل كل مصر على سبيل المثال، حيث ظهرت هناك المدارس لتدرج التصوف في برامجها زيادة بالطبع على علم الحديث وفي جامعة الأزهر، كان ابن عطاء الله يعلم معل الفقه والتصوف في نفس الوقت، عمر الصوفية المساجد للقيام بحلقات التعليم والذكر. ظهرت حصص أو مجالس الصلاة على النبي (ص) في الأزهر في أواخر القرن الخامس عشر، وبعده في مسجد الأمويين بدمشق، لتنتشر بعد ذلك في مناطق أخرى في العالم الإسلامي[1].

7- لمحة تاريخية عن الهيئات التي أسسها شيوخ الزوايا في الجزائر:

7-1- جمعية علماء السنة: لقد حضر مؤتمر تأسيس هذه الجمعية أكثر من ألف شخص يشملون مختلف الزوايا التيجانية والرحمانية والخلوتية والشاذلية والطيبية والقادرية والعلاوية، في هذا المؤتمر تم تأسيس جمعية علماء السنة، وتعيين أعضاء الإدارة البالغ عددهم خمسة وأربعين (45) عضوا، وقد أسندت رئاستها على الشيخ المولود الحافظ

[1] بن عتو بشير، المرجع السابق، ص ص 297، 298.

الأزهري، وقد كان تأسيسها في 13 سبتمبر 1932 بعد الخلاف الذي وقع بين شيوخ الزوايا وجمعية العلماء المسلمين "في طريقة العمل واسلوب الدعوة" الذي تبناه كل تيار. تجدر الإشارة إلى أن حضور شيوخ الزوايا كان كبيرا في الاجتماعات التي مهدت لتأسيس جمعية العلماء المسلمين. وقد كان من بين الأعضاء المؤسسين لهذه الجمعية الأخيرة المولود الحافظ الأزهري والسعيد البحري ومحمد الفضيل الورتلاني الذين يعتبرون "أبناء الزوايا"، في 14 ديسمبر 1932 أصدرت جمعية علماء السنة جريدة "الإخلاص" التي أسندت رئاسة تحريرها لرئيس الجمعية متخذة شعار الآية القرآنية "أدع إلى سبيل ربك بالحكمة و الموعظة الحسنة"[1].

7-2- جمعية جامعة مشايخ الطرق و الزوايا: ظهرت هذه الجمعية للوجود في سنة 1938، وقد كانت تهدف إلى الحفاظ على كيان الدين الإسلامي، في 25 سبتمبر من نفس السنة، ومن مقر جامعة مشايخ الطرق والزوايا، وخلال جمعية عامة، تم إنشاء جمعية الرشاد التي تعتبر فرعا من هذه الجامعة وامتدادا له، وكان يترأسها هو "نشر العلم والمعرفة" وترسيخ القيم والأخلاق الإسلامية عن طريق الدروس والمحاضرات، وكان لسان حالها جريدة "الرشاد" وهي جريدة أسبوعية إخبارية وإرشادية تحت شعار الآية القرآنية " خذ العفو وأمر بالمعروف وأعرض عن الجاهلين"[2].

7-3- جامعة الزوايا لشمال إفريقيا: إن هذه الجامعة هي نتيجة للحوار الواقع بمؤتمر الزوايا بالشمال الإفريقي (الجزائر، تونس، المغرب) الذي انعقد بالجزائر العاصمة بتاريخ 15 مارس 1948، وقد حضره ما يزيد عن 120 رئيس زاوية .

وأهم ما احتوى عليه برنامج أعمالها:

* نشر التعليم المجاني بواسطة "برنامج واسع النطاق" في الزوايا وإحداث معاهد أخرى في المنطقة (شمال إفريقيا).
* الدعوة والإرشاد إلى التمسك بأهداف القرآن وتبيين محاسن الشرع الإسلامي.
* العمل لإزالة البؤس والشقاء عن الفقراء ولاسيما اللاجئين إلى الزوايا.

---

[1] صلاح مؤيد العقبي، الطرق الصوفية في الجزائر، تاريخها ة نشاطها، دار البراق، بيروت، 2002، ص 597.
[2] صلاح مؤيد العقبي، نفسه، ص 605.

وقد خصص لكل مشروع من هذه المشاريع الثلاثة صندوق مالي خاص به وذلك بتقدير المؤتمر المنعقد في التاريخ الذي ذكرناه سابقا برئاسة الشيخ عبد الحي الكتاني، وكان مقرها بسيدي محمد ببلكور (بلوزداد حاليا) وجاء في القانون الأساسي للجمعية أن الجامعة لا تتدخل في الشؤون السياسية.

7-4- الجمعية الصوفية: ظهرت هذه الجمعية بمدينة غليزان في سنة 1945 برئاسة المشري الحطابي وكاتبها الشيخ شنتوف، ومن بين أعضائها الشيخ مصطفى بن إسماعيل والشيخ محمد مقلع والعقيد عميروش.

7-5- الجمعية العلمية: تعتبر من الجمعيات التي قام بتأسيسها شيوخ الزوايا وهيأ لها الشيخ أحمد العلاوي قانونها الأساسي ولكن الظروف لم تسعف على تحقيقها وقد جاء في قانونها الأساسي ولا تخرج الجمعية عن خطتها في بث العلم والتعليم لإخراج أبناء الوطن من سجن الجهالة والاختلاف إلى فضاء العلم وتحسين العلائق والروابط الودية بالوسائل التهذيبية الموافقة للشريعة الإسلامية مع مراعاة القوانين الدولية[1].

7-6- جمعية التنوير: يعود تاريخ تأسيسها إلى الثلاثينات من القرن العشرين من طرف أحمد العلاوي وشيخ الطريقة العلاوية، ومهمتها كما جاء في جريدة المرشد في عددها 41 في الانشغال بتنوير مساجد الطريقة وزواياها وتفرشها وترميمها "إذا دعت الضرورة غلى ذالك".

7-7- الجمعية الوطنية للزوايا الجزائرية: ظهرت في عهد الاستقلال وفي إطار الانفتاح السياسي الذي عرفته البلاد. بعد أحداث أكتوبر 1988 ودستور 1989، انعقد في الجزائر العاصمة ملتقى وطني لشيوخ الزوايا وتم خلاله تاسيس الجمعية الوطنية للزوايا الجزائرية.

تقرر خلال هذا الملتقى تعيين الدكتور قعيش قدور من زاوية بن تكوك السنوسية رئيسا شرفيا لهذه الجمعية مدى الحياة.

كما تم أنشاء لجنة الحكماء وهي الهيئة العليا للجمعية لهذه الجمعية و تتكون من عبد الجبار التيجاني (شيخ الطريقة التيجانية) ومحمد بلقايد (سيخ الطريقة الهبرية) ومحمد بلكبير (شيخ الطريقة السنوسية). كما نم انتخاب السيد محمد شنتوف رئيسا للجمعية والشيخ عبد

[1] صلاح مؤيد العقبي، المرجع السابق، ص 623.

الفادر دحاح كاتبا عامل لها وتهدف الجمعية إلى: تربية النشأ وإصلاح ذات البين، تحفظ القرآن وتفسيره، تعليم قواعد اللغة العربية، تعليم الفقه وتفسير وتوسيع السنة النبوية وترسيخ المذهب المالكي وهو مذهب أغلبية الجزائريين، الترميم والمحافظة والتعريف بالمخطوطات والتكفل بالفقراء والمساكين وأبناء السبيل، إن أمكن ذلك والترميم والمحافظة على الآثار الدينية التاريخية للزوايا وملحقاتها، كما تتعهد بأن لا تسئ الى تحقيق هدف أخر غير ما صرحت به.

أما موارد الجمعية فهي كالتالي: اشتراكات الأعضاء والهبات والوصايا، مداخيل أنشطتها العلمية والدينية والتربوية والثقافية والاجتماعية ومداخيل النشر والتوزيع ومداخيل الحبوس والأوقاف[1].

7-8- الرابطة الرحمانية للزوايا العلمية: في 29 ديسمبر 1989 قامت "طائفة" من شيوخ الزوايا الرحمانية بإنشاء "الرابطة الرحمانية للزوايا العلمية"، وذلك بزاوية بن عبد الرحمن الأزهري مؤسس الطريقة الرحمانية.

تعتبر هذه الرابطة جمعية ذات طابع ديني وروحي وعلمي وتربوي حسب ما ورد في المادة الثانية من القانون الأساسي الذي يضم 31 مادة تحدد أهداف الجمعية والوسائل المشروعة لبلوغها، غن الهدف من إنشاء الرابطة الرحمانية للزوايا العلمية هو النهوض بهذه المؤسسات التربوية لتعود غلى سالف مجدها وتظل معقلا للتربية والدعوة والتعليم، وغايتها هي حماية شبابنا من أفات الزيغ والإلحاد ووقاية مجتمعنا من تيارات التمزق والتفسخ. "إننا نسعى إلى المحافظة على الصيغة الأساسية لأمتنا بتوحيد العقليات وتلقيحها.."، ولبلوغ الغايات المنشودة فإن رابطتنا تستعمل بالتعاون مع الهيئات والجمعيات العاملة وحقل الدعوة الإسلامية من أجل التعريف بالرؤية الإسلامية المتميزة وتوجيه المجتمع إلى تنظيم شؤونه. تدعو الطاقات الحية في الأمة غلى التصدي بشدة وحزم للمحاولات التنصيرية والمخططات التغريبية والتيارات الإلحادية تدعو كل الزوايا والطرق الصوفية في الجزائر إلى إيجاد إطار لتنسيق جهودها وتحقيق تعاونها ومجالات التربية والإصلاح الاجتماعي والعناية بعلوم القرآن الكريم والسنة المطهرة وعلوم العربية باعتبارها لغة القرآن الكريم ومفتاح معرفته،

[1] بن عتو بشير، المرجع السابق، ص ص 513، 514.

تدعو إلى العناية بتعليم الفتاة وتربيتها تربية عربية إسلامية صحيحة، وتوجيه المرأة الجزائرية غلى القيام بدورها العظيم في تربية النشء على الفضيلة وإعداد جيل صالح من أمثال الأمير عبد القادر السنوسي، وابن الحداد وبوعمامة ومثيلات فاطمة نسومر وأم الحياة صفية البسكرية... الخ.

أما مجلس الرابطة فيتكون من: الشيخ الطاهر ايت علجت (رئيسا)[1].

7-9- الجرائد التي أنشأها شيوخ الزوايا:[2]

من الملاحظ أن كل هذه الجرائد ظهرت للوجود في الفترة الاستعمارية وبالتحديد الحرب العالمية الثانية.

الجريدة	المؤسس	السنة
لسان الدين	أحمد بن مصطفى العلاوي	1923
البلاغ الجزائري	أحمد بن مصطفى العلاوي	1926
الحق	علي بن موسى العقبي	1926
النجاح	عبد الحفيظ ابن الهاشمي	1919
الإخلاص	المولود ابن الصديق الحافظي	1932
المعيار	هراس مصطفي	1932
الفضيلة	موسى خداوي	1935
الرشاد	عبد الحفيظ القاسمي وأخوه عبد القادر	1938

[1] بن عتو بشير، المرجع السابق، ص ص 515، 516.

[2] صلاح مؤيد العقبي، المرجع السابق، ص 625.

الوفاق	محمد السعيد الزاهري	1938

1- نبذة عن حياة سيدي الشيخ (طفولته، دراسته، طريقته في التصوف)

يشكل سيدي الشيخ واسمه الحقيقي عبد القادر بن محمد الحلقة الثامنة الأساسية من بوبكرية الجنوب الغربي الجزائري (عبد القادر بن محمد بن سليمان بن بوسماحة بن بوليلي أو بن بلحيا بن عيسي أو بن بوليلي بن معمر أبو العالية ....).

يمكن تحديد تاريخ ميلاد سيدي الشيخ في سنة 1533م /940ه ووفاته في سنة 1916م/1025ه " من المرجح أن عبد القادر ولد بمنطقة الشلالة تحت خيمة" في حين يقول ح. بوبكر انه " ولد بنواحي قصر ربوات[1].

في البداية كان عبد القادر تلميذا لأبيه، تعلم منه أساسيات القراءة والكتابة وبدأ في حفظ القرآن الكريم تحت خيمة الزاوية المتنقلة والتي باتت جزءا لا يتجزأ من مخيم سيدي محمد بن سليمان[2].

تناقلت انه لكي يستكمل دورته التعليمية الأولى (القواعد واللغة، الحساب دراسة القرآن والحديث ....) تم نقل الطفل من الشلالة إلى فكيك وهي مدينة مغربية حدودية كانت تشكل القطب الاقتصادي والثقافي لجميع أنحاء المنطقة لكي يتعلم بزاوية أل عبد الجبار.

إضافة إلى دروسه بزاوية عبد الجبار، تابع عبد القادر دروسا أيضا بزاوية سكونيه بقصر اوداغير التي أسسها الشيخ عبد الرحمن السكوني مؤلف كتاب المناقب .... وهو كذلك من ال سكوني، لم ينس ان يلاحظ انه وكعرفان بالجميل، كان سيدي الشيخ وعبر حياته يبعث بالهبات الى عائلات السكوني، لم يكتف عبد القادر بالتعليم الكلاسيكي الذي يتلقاه من الزوايا التقليدية لفكيك بل توجه للبحث عن معارف جديدة وهكذا انتقل الى زاوية سيدي أمحمد بن عبد الرحمن السهلي[3].

وهي زاوية مشهورة جدا تقع جنوب شرق المغرب (160 كلم غرب فكيك غير بعيد عن مدينة بوذنيب) عبد القادر ابن وحفيد مقدم الشاذلية تم توجيهه بطبيعة الحال الى مكان معلوم

---

[1] خليفة بن عمارة، سيدي الشيخ شخصية خارقة للعادة، ترجمة: بوداود عمير، سيرة البو بكرية، ج2، مكتبة جودي مسعود، نهج بوتليليس وهران، 2009، ص 16.

[2] خليفة بن عمارة، نفسه، ص 17.

[3] خليفة بن عمارة، نفسه، ص 18.

نحو اشهر زاوية لهذه الطريقة بالمنطقة كلها، نحو زاوية كان شيخها مول سهول يكن احتراما كبيرا لسيدي سليمان[1].

2- تأسيس سيدي الشيخ للزوايا:

أ- زاوية مغرار التحتاني :

كانت أول زاوية يؤسسها سيدي الشيخ يقول خليفة بن عمارة " بعد تفكير طويل قرر الإقامة في منتصف الطريق بين فكيك والشلالة الظهرانية في مغرار حيث سينش زاوية، اختاره لم يكن اعتباطيا فمغرار التحتاني قرية أثرية تحتوي على صخور منقوشة جميلة (خاصة محطة افقية عجيبة) وهو قصر مزدهر سكنه البربر الزناتة، تحيطه واحة تضم الآلاف من أشجار النخيل المثمرة.

ففي طريق رحلتهم نحو الجنوب يمر حميان القادمين من ناحية المشرية بالضرورة بقصر مغرار التحتاني حيث تتواجد محلات التخزين المحمية من طرف سكان القصر الحضر ويشكل محطة الانطلاق الأولى والمهمة لوادي الناموس[2] .

ب- زاوية فكيك:

لقد تذر سيدي الشيخ وصية شيخه التي تقول "من الأفضل الإقامة بفكيك أو إلى ابعد". لاحظ عبد القادر وهو يغادر تلمسان في اتجاه الجنوب انه لا توجد هناك اية مدينة يمكنها منافسة فكيك، وهي احدي أهم المدن في جنوب المغرب العربي.

التي ذكرها ع.ابن خلدون والذي كتب في القرن 14 م مؤكدا أنها تجمع كل منتوجات الحضارة البدوية فكيك التي زارها ليون الإفريقي (حسن بن محمد الوزان) انبهر إمام دقة ورهافة قماشها، فكيك واحة كبيرة تتكون من مجموعة من القصور المزدهرة في مفترق طرق شرق غرب وشمال جنوب[3].

---

[1] خليفة بن عمارة، المرجع السابق، ص 19.
[2] خليفة بن عمارة، المرجع السابق، ص 23.
[3] نفسه، ص 30.

انشأ عبد القدر زاويته بالنواحي المحاذية لزناقة في اتجاه اوداغير الذي يقع في الشمال الاقامة في هذا المكان تحديدا لم تكن مصادفة هذان القصران كانا في نزاع في نزاع بخصوص مياه عين تزاورت وذلك منذ القرن 11 م / 5ه[1].

انشأ زاويته سنة 1560 م (967ه) وقد وضعها تحت رعاية شيخه سيدي بومدين شعيب بن الحسن أبي مدين الأندلسي وهو شيخ الشاذلية، أطلق عليها اسم العباد وهو اسم حي بتلمسان أين دفن به كتب الهاشمي بن محمد يقول " أقام سيدي عبد القادر بعض الوقت في فكيك .. يظهر أن هذا الولي لم يكن يروه بعين الرضا وقد تلقى صعوبات جمة"[2].

ج- الزاوية المتنقلة:

كون سيدي الشيخ زاوية أصبحت مهمة ومزدهرة كان يستقبل عددا كبيرا من الزوار الأتباع والحجاج، كانت زاوية الشيخ المتنقلة ترافق قوافل (نهاية الربيع والصيف قبائل الجنوب الغربي الذين كانوا يتنقلون إلى أسواق تلمسان، سيدي بلعباس، معسكر[3].

آو الذين يقومون بتصييف قطعان ماشيتهم في مناطق أخرى بالتل واعتبارا للتأثير القوي الذي كان يمارسه على العديد من القبائل التي أصبح عليها، اعترف الأتراك الذين لو يكونوا اقوياء لدرجة مراقبة جنوب البلاد بقيمة كشيخ زاوية شاذلية وممثل لقبيلة مرابطية كبيرة فجعلوه حليفا لهم و بعد ان كانت متواضعة في البداية، انتهي الأمر بهذه الزاوية المتنقلة حسب العديد من الروايات الى أن تأخذ اهتماما كبيرا، وهكذا سيفضل شيخ البوبكرية هذه الزاوية المتنقلة عن أي مكان مستقر واخذ يستعملها حتى نهاية حياته.

د- زاوية الأبيض سيدي الشيخ :

يبدوا أن عنصرين اثنين، احدهما ديني والآخر اقتصادي، هما اللذان قادا الشيخ عبد القادر إلى اختيار الأبيض (الأبيض سيدي الشيخ حاليا) عندما جاء الجد الأول للبوبكريين (معمر بو العالية) إلى الجنوب الغربي خلال القرن 14 م، أقام بقصر الربا (الربا التحتاني حاليا) قرب واد غزير المياه وواسع المنحنى يقع بالمنفذ الذي يصل جبال القصور بجبل العمور، يصل بالطريقة الأكثر يسرا المنطقة الوهرانية بالصحراء أهمية هذه النقطة الإستراتيجية لم

(1) خليفة بن عمارة، المرجع السابق، ص32.
(2) خليفة بن عمارة، المرجع السابق، ص 33.
(3) نفسه، ص 38.

تكن تخفي على القدماء فقام خوارج القرنيين الثامن و التاسع بوضع محطة سير لا بديل عنها تربط بين مملكة سجلماسة في الجنوب المغربي بالمملكة الرستمية في تيارت، كما اقام فيه الفاطميون للقرن 10 م بدورهم أثناء حروبهم مع الخوارج في القرن 14م كان الملك الزياني أبو حمو موسي الثاني يأتي في الكثير من المرات إلى الربا[1].

وقد قام المرينيون الذين كانوا يتعقبونه بتهديم القصر تهديما كليا كما اشار إلى ذلك عبد الرحمان ابن خلدون أما بالنسبة للطرق الصوفية، تجدر الإشارة إلى انه في منتصف القرن 16م لم تكن تتواجد هناك زاوية شاذلية بالربا، البوبكريون الذين سبقوا سليمان كانوا يملكون زوايا سنية لكنها لم تكن تنتمي إلى هذه الطريقة .

وهذا وقد كان سيدي سليمان المقدم الأول للطريقة الشاذلية قد أسس في بداية القرن 16 م زاوية ببنى ونيف بجوار فكيك على بعد 250 كلم جنوب شرق الربا، من جهته اسس سيدي الحاج بن عامر وهو المقدم الثاني لهذه الطريقة زاويته في مكان معزول سنوات بعد ذلك على بعد 15 كلم شمال الربا.

خلال تلك الفترة بذلك الطريقتان الصوفيتان الأكثر شهرة وهما القادرية والشاذلية جهودا معتبرة من اجل الإقامة في أي مكان يسمح لهم بذلك، "وقعت، يقول ح. بوبكر وهو أصيل المنطقة، روح تنافسية بين ممثلي هذين الطريقتين"[2]، بعد وفاة أبيه سنة 1569م، وطد الشيخ عبد القادر من مكانته، فعلاوة على صفته كشيخ الزاوية الشاذلية، أصبح رئيسا للسلالة البوبكرية الأساسية، ذكر أ. جيا كوبيتي أن أباه عينه وصيا على أخوته الطاهر أحمد وعبد الرحمن.

ومع ذلك قرر الشيخ عبد القادر الإقامة في حاسي الأبيض وذلك بنصب خيم زاويته المتنقلة ابتداء من هذه اللحظة كتب يقول ك.تريملي " شرع حقيقة في انجاز العمل الذي قرر تجسيده[3].

فقد أسس زاوية بالأبيض وهي زاوية صارت أكثر شهرة في هذا الجزء من الصحراء و الى ابعد، وقد كان المنخرطون يتسارعون حشودا للإصغاء لكلمة الشيخ تفطن إلى النتائج المثمرة

(1) خليفة بن عمارة، المرجع السابق، ص 38.
(2) خليفة بن عمارة، المرجع السابق، ص42.
(3) نفسه، ص43.

من وراء إقامته في هذا الموقع وهو مكان عبور لجزء كبير من المبادلات التجارية بين المنطقة الوهرانية والصحراء وانطلاق خط مركزي (وادي الغربي) للمسارات الثلاث لقوافل المنطقة، وهذا يخص جميع النشاطات الاقتصادية للقبائل الرحل لهذا الجزء من الأطلس الصحراوي (البوبكرية، أهل ستيتن، عكرمة وأولاد زياد، الرزاينة، دراقة، أولاد عبد الكريم، أولاد سرور وجزء من الاغواط كسال من بينهم أولاد مومن والرزيقات ....)

إلى جانب القصور المجاورة مثل الربا الفوقاتى والتحتاني، بنود، بوعلام، بريزينة، الغاسول وكراكدة، سيدي طيفور، ستيتن، سيدي الحاج بن عامر ... وهو ما سينمي بشكل جوهري مداخيل الزاوية بفضل التبرعات العديدة.

أخذ عدد الزوار العابرون ومريدو الطريقة في تزايد وكذلك تلاميذ مختلف الأصقاع الذين كانوا يأتون لمتابعة تعليم الشيخ ولمدة طويلة.

وبعد مدة كان الشيخ مضطرا إلى أنجاز بناءات تسمح له باستقبال كل هؤلاء الناس وهكذا تحولت مؤسسة حاسي الأبيض إلى الزاوية الأم لسيدي الشيخ وبقيت كذلك الى يومنا هذا[1].

أما أولاد سيدي الشيخ عبد القادر انقسموا إلى ثلاثة أقسام:

قسم استقروا في قصر الأبيض سيدي الشيخ حول قبر أبيهم واستقر فرع بزعامة الابن الأكبر الحاج أبي حفص في شرق قصر الأبيض سيدي الشيخ، وأسسوا لأنفسهم زاوية خاصة، وسموا بأولاد سيدي الشيخ الشراقة، واستقر فرع بزعامة الابن الثالث الحاج عبد الكريم في غرب القصر الأبيض[2]، وأنشئوا لأنفسهم زاوية خاصة كذلك، وسموا بأولاد سي الشيخ الغرابة. وتمتد السلسلة الشيخية من سليمان بن بوسماحة إلى ابنه محمد، إلى حفيده سيدي الشيخ عبد القادر وإلى الحاج بوحفص والحاج عبد الكريم[3] إلى ابن الدين العربي، إلى بوبكر مولى .. إخوته: سليمان، ومحمد، وأحمد، و قدور، وابن أخيه العربي.

لقد كان أولاد سيدي الشيخ، وارثين لمجد عائلي ودين، فجلب إليهم ذلك مكانة مرموقة بين الناس، وزادهم أهمية وضعهم الجغرافي والمفتوح على الطرق الصحراوية جنوبا، والتلية

---

(1) خليفة بن عمارة، المرجع السابق، ص43.

(2) يحي بوعزيز، ثورات الجزائر في القرنيين التاسع عشر والعشرين، ج1، الجزائر، 1996، ص 163.

3 Duveyrier (H).Exploration du Sahara, PARIS, 1905, p31 Rinn, op.cit.pp.349-368.

شمالا. فاستغنوا بالدين والتصوف، وتحكموا بالسياسة والجاه و كونوا اتحاد كبيرا من الأعراش والقبائل، واهتموا بالقوة الروحية الدينية والصوفية وبالحياة الدنيوية معا، ونشروا طريقتهم الدينية عن طريق سلطتهم السياسية

لكن في أواخر القرن التاسع عشر، كان أولاد سيدي الشيخ تمزقهم الخلافات العائلية، والأطماع الفردية، وتتحكم فيهم الظروف الخارجية, لقد كانوا يثورون ويتراجعون بدون نتيجة، رغم مكانتهم الكبيرة وثقافتهم الروحية الصوفية ووزنهم السياسي والجغرافي[1].

مكانة التصوف عند سيدي الشيخ

يقول خليفة بن عمارة : "حتى و ان استعمل الأماكن المنعزلة التي كان يأتي إليها أجداده يبدو أن أول خلوة لسيدي الشيخ بصفته مقدما في الطريقة الشاذلية كانت بمغرار التحتاني وهو القصر الذي بنيت فيه زاويته الأولي المعبد موجود إلى اليوم ويزوره الناس يقع المكان على مرتفع قرب القصر وهو عبارة عن تجويف في عمق الصخرة بحوالي مترين مكعبين تحت الأرض تتقدمه ردهة كبيرة نسبيا.

وحتى يتمكن من القيام بتأملاته يتطلب الأمر من سيدي الشيخ يختار أيضا أماكن معزولة يتردد إليها أثناء إقامته في زاويتي العباد والحمام الفوقاني، مؤلف المناقب ... نقل حسب أقوال بن عيسي (وهو ابن سيدي الشيخ ومن مواليد فكيك) "كان الشيخ أذا بقي لعيد الأضحى عشرة أيام يعتكف وينعزل بالكلية في خلوته ولا يخرج منها ألا يوم العيد ولا يناوله أحد منا ما يتقوت به ولا ماء يتوضأ به البتة" وهو ما يذكره به أيضا أ. جياكوبيتي في رواية أخري لبن عيسى نفسه فيقول "أنه يحدث أن يبقى لمدة شهرين متتالين، ففي النهار يمشي في الجبل و في الليل يعبد بالمقبرة"، مع إنشاء الزوايا المتنقلة أخذت " الخلوات " تبتعد عن التجمعات السكانية وتضاعفت وفقا لمسار تنقلات الشيخ ففي وادي الناموس على امتداد مغرار التحتاني وبعد الأوتاد والزعفراني وتتواجد خلوة سيدي الشيخ وبعيدا قارة الفقول وخلوات أخرى في أماكن توقف القوافل طوال الطريق في اتجاه تيميمون[2].

---

[1] Duveyrier (H).Exploration du Sahara, PARIS, 1905, p31 Rinn, op.cit.pp.349-368.

[2] خليفة بن عمارة، المرجع السابق، ص84.

في الوادي الغربي خلوة سيدي الشيخ قرب رأس المحرق، وحاسي الشيخ في جنوب شبكة مريم و مقام سيدي الشيخ بالعرق الغربي الكبير (100 كلم شمال تبلكوزة) في وادي سقر ونواحيه وعلى نفس خط العرض نجد سيدي الشيخ متاع الكبش وسيدي الشيخ متاع مزار وفي الشرق خلوة أخرى لسيدي الشيخ.

خلال سنوات 1570 م أضيفت خلوات أخرى حوالى الربا الفوقاني والزاوية الجديدة بالأبيض، ثم تأتي خلوات أخرى كثيرة الزيارة مثل تلك المتواجدة بجبل عنتر بالمشرية أو المستعملة بمناسبة تنقلاته مثل خلوة سيدي الشيخ جنوب سيدي الحاج بن عامر او قرب الغاسول او مقام سيدي الشيخ بجبل كسال قرب ستيتن او جبل العمور قرب بوعلام .....الخ ومواقع عديدة عبر كامل المنطقة الوهرانية (منطقة ندرومة، اولاد ميمون، عين تموشنت ..)[1]. يقول محمد ابن إبراهيم بن عياد المنظر الكبير للطريقة الشاذلية وصاحب كتاب المفاخر العلية في المآثر الشاذلية " الشريعة ما ورد به التكليف والحقيقة ما ورد بها التعريف، فإذا الشريعة مؤيدة بالحقيقة والحقيقة مؤيدة بالشريعة ....." وفي عرف القوم... فالشريعة بواسطة الرسل والحقيقة تقرب بغير واسطة.

يقول سيدي الشيخ " الشيء القليل ليس بسبب مفردات لغة على كل حال غير ملائمة ولكن لأنه مرتبط بسيرين، يذكرهما هو نفسه في البيت 31 أن إفشاءهما يعتبر كفرا. وقد ذكر أ. الغزالي بيتا للجنيد و (كلاهما ينتميان الى نفس الشجرة الصوفية التي ينتسب أليها سيدي الشيخ) بخصوص السر: "سأكتم من عملي به ما يصونه، وابذل منه ما ارى الحق يبذل" وأبو حامد الغزالي نفسه يضيف مقطعا يستحق ان ينقل وامثل هذه المعارف التي أليها الإشارة لا يجوز أن يشترك الناس فيها[2].

ولا يجوز ان يظهرها من أنكشف له شيء من ذلك لمن لم ينكشف له فالحكمة تقتضي شمول الغفلة لعمارة الدنيا، ولأنه تربى منذ طفولته في كنف الشاذلية، لم يقم سيدي الشيخ سوي بإتباع وتقليد ما أمكن الشيوخ الذين كونوا عبر مختلف العصور سلسلة صوفية لهذه الطريقة ولعل أشهرهم(من المشرق العربي) ابو القاسم بن محمد الجنيد (ايران القرن 9 م/ بداية

[1] خليفة بن عمارة ، المرجع السابق، ص84.
[2] خليفة بن عمارة، المرجع السابق، ص86.

القرن 10 م) والذي درس بالعراق (بغداد) ووضع أسس التصوف وكان يحث الناس دائما على امتحان ضميرهم أبو حامد الغزالي (ايران القرن 11 م / بداية القرن 12 م) وهو شيخ مشهور بالعراق (بغداد) صاحب مؤلفات مشهورة، يعتبر أحد ركائز الأدب الإسلامي في الزهد والشريعة والذي تخلى في سنواته الأخيرة عن كل شيء ليعيش في العزلة ويعمق تجربته الصوفية وكان يقول إن أفضل طريقة للعيش هي معيشة الصوفيين.

من المغرب العربي: ابو يعزي (المغرب القرن 12 م) والذي بعد أن كان شيخا متميزا لمدة طويلة انسحب إلى البادية للتجنب معاشرة الناس وغذائهم وليمضي ثمانية عشرة سنة أخيرة من حياته في كنف العزلة المطلقة يأكل العشب والجذور ويرتدي عباءة من جريج و برنوسا ممزقا وشاشية من القصب، شعيب بن حسين الأندلسي المدعو سيدي بومدين (الأندلس القرن 12 م) وهو الولي الصالح لتلمسان، رحالة كبير (المغرب والجزائر، المشرق) شيخ متميز في العلوم الشرعية و قد كان يمارس دون توقف الحياة التأملية وقد تخلى عن مشاغله الدنيوية وهو مؤلف للعديد من الأبحاث في التصوف وفي الأشعار والأمثال، عبد السلام بن مشيش (المغرب القرن 12 م) وهو شيخ ومتصوف كبير، عرف باستقامته وورعه وكذلك بمواقفه فيما يخص الحكام (لا تسوية معهم، وكراهية للوظائف العمومية)[1].

أبو الحسن الشاذلي (المغرب القرن 13 م) وهو الذي سميت باسم الطريقة كان رحالة كرس حياته للترحال ولتمارين الجذب وكان بعيش بالخلوات المعزولة بتونس ومصر قبل أن يفرض نفسه كشيخ من شيوخ العلوم الشرعية والتصوف، يذكر دائما إن الإنسان لا يمكنه أن يرتفع إلا إذا غرق في التأمل (كلماته المشهورة " العزلة والعبادة والتواضع بصحبتك حتى لا يكون فيه متسع لغيرك)، سيدي احمد بن يوسف الراشدي (الجزائر القرن 15م / بداية القرن 16م) شخصية مركزية في الحركة المرابطية وهو حليف أساسي للعثمانيين وداع للجهاد في سبيل الله ومتصوف كبير ورحاله كبير وهو الذي أدخل الطريقة الشاذلية في الجنوب الغربي الجزائري ولقن سيدي سليمان جد سيدي الشيخ، كان يدعو دائما الى ممارسة التمارين الصوفية إلى غاية الجذب الذي هو أحسن وسيلة للتقرب من الله.

[1] خليفة بن عمارة، المرجع السابق، ص87.

لم يكن الأستاذ أو الشيخ الزاوية أو زعيم البو بكرية أو مقدم الطريقة الذي يتواجد وحده في خلوة، بل كان كائنا بسيطا، إنسانا فقيرا فقير بالمعني الصوفي للكلمة والتي تعني أولى الدرجات التي يرتقيها المتصوف تاركا من ورائه الأمور الدنيوية في بحثه عن السعادة الربانية.

ك. تريملي يبين لنا إلى أي مدى بلغه من تعذيب الجسد عندما كان يقيم بهذه الخلوات "حتى لا يستسلم للنوم كان يربط قطايته (وهي قطعة من الشعر المكثف أعلى الرأس المحلق) بحبل، يقوم بتثبيته في نفس الوقت في أعلى الخلوة وعندما ينال منه التعب ويستسلم للنعاس يمنعه هذا الحبل من الوصول إلى الحصيرة التي كان ينام فوقها ويوقظه عن طريق السحب المؤلم على قطعة شعره".

يمكننا أن نرى للان داخل خلوة مغرار التحتاني الوتد الذي كان يثبت عليه هذا الحبل[1]، يعود أصل الشاذلية غلى المغرب لكنها ترسخت في مصر لتنتشر بعد ذلك في مناطق عديدة من العالم. بعدها ذهب للقاء "القطب الروحي" لزملنه وجده، أبو الحسن الشاذلي بالقرب منه في الريف المغربي وفي شخص عبد السلام مشيش الذي يندرج في سلسلة أبي مدين. يعتبر عبد السلام ابن مشيش المحرك الحقيقي للشاذلية كبديل للمدنية (نسبة لأبي مدين) في مصر والمغرب .

أول مرحلة لأبي الحسن الشاذلي هي تونس أين انعزل في خلوة في الجبال الواقعة بين العاصمة تونس والقيروان بالقرب من الشاذلي (جاء اسم الشاذلية من اسم هذه القرية لكن أبو الحسن أعطى له معنى أخر، معنى روحي: شذ أي من ابتعد عن العالم الدنيوي وكرس حياته لي)، بعد ذلك استقر في الإسكندرية عام 1244 ليذهب كل موسم حج إلى البقاع المقدسة حيث يجتاز كل الأراضي المصرية ليعبر البحر الأحمر وتوفي خلال أحد هذه الاسفار في الصحراء المجاورة للبحر الأحمر وتوفي خلال أحد هذه الأسفار في الصحراء المجاورة للبحر الأحمر وأرشد الشاذلي إلى التجريد الداخلي والتركيز على الله فقط عن طريق فضيلة "الذكر" ونبذ كل موقف تفاخري (الملبس والأحوال الروحية، المعجزات، الخ..) وكان يطلب من تلاميذه "الذوبان" في المجتمع إن الالتزام بالشريعة والسنة بالنسبة إليه هو شرط

[1] خليفة بن عمارة، المرجع السابق، ص91.

أساسي لكل سلوك مساري تفسر بعض الخصائص الملاماتية التجانس القائم بين الشاذلية والنقشبندية كما أن تأثير ابن عربي على هذه الطريقة يبدو واضحا ولم يترك لأبو الحسن الشاذلي ولا وارثه الأندلسي أبو العباس المرسى، أي مخطوط في هذا المجال ليأتي المعلم الثلث للطريقة المصري ابن عطاء الله ليطور ويشرح تعليمها، تقترح "الحكم" على شكل أمثال جوهرية بيداغوجية مسارية متوجهة مباشرة الى النفس الواعية للطالب وتمثل لطائف المنن الوصية الروحية لابن عطاء الله و النص المذهبي المرجعي للشاذلية[1].

4- أهم كرامات و بركة سيدي الشيخ:

إن أهم الكرامات المنسوبة لسيدي الشيخ تتواجد في كتاب المناقب للسكوني والذي يظم تقريبا 150 قصة، بجميع انواعها وقد كتبت بأسلوب ذلك العصر، بين العربية الفصحى والدارجة، سنقوم بتلخيص أهم الكرامات التي نسيت الى سيدي الشيخ :

- خلال رحلة الى زاوية السهلي، في عمق الصحراء واشتكي رفقاء سيدي الشيخ من العطش وبدلا من الرد عليهم وطلب منهم هذا الأخير تجهيز ملاجئ للحماية من المطر، رغم أنه لم تكن هناك غيوم في الأفق.

بعد وقت لاحق، وجد أولئك الذين لم يأخذوا بنصيحة الشيخ أنفسهم دون حماية عرضة لمطر غزير في حين ارتوى جميع المسافرين من العطش.

- في أحد الأيام وبعد وقت قصير من وفاة سيدي الشيخ وقع فيضان مهول لوادي بني ونيف (بالقرب من فكيك) في وقت الحصاد، اكتسح جميع بساتين هذه المنطقة باستثناء بستان الشيخ.

وحسب أحمد بن عبد الوحيد الرفاعي وهو مريد لسيدي الشيخ , في احد الأيام كان في حلقة حضرة فظهر إنسان مجذوب صرخ صرخة مدوية ثم ذهب الى الشيخ الذي مد له يده، أمسكها المجذوب وأخذ يمص أصابع سيدي الشيخ التي كان يسيل منها اللبن بغزارة.

[1] بن عتو بشير، المرجع السابق، ص ص292 ،293.

- في احد الأيام، استقبل سيدي الشيخ بشكل غير متوقع ما بين 300 إلى 400 ضيف من قبيلة الخراريج فالتمس مساعدة من شيوخ فكيك ولكنه فشل في جمع الشيء الكثير لأنه كان في وقت ندرة وغلاء[1].

ولأنه لم يكن يملك إلا شيئا من القمح في كيس فأمر بطحنه وأصبح طعاما، ثم قدمه في قصعة ة أمر الناس بالدخول جماعة بعد جماعة إلى أن أكل الجميع و شيعوا وأعطى منه لسكان القصر وبقي من الطعام تسعة مقادير (إناء من الخشب)[2].

خلف الشيخ سيدي عبد القادر بن محمد رضي الله عنه في فن الشعر قصيدتين من البحر الطويل إحداهما تسمى(الياقوتة) أو(السلسلة) وهي من المطولات التائية إذ يصل عدد أبياتها إلى مائة وثمانية وسبعين بيتا، وأخرى تسمى (الحضرة) وعدد أبياتها أربعة وعشرون وكلاهما في موضوع التصوف بالإضافة إلى قصائد ونتف شعرية في نفس الموضوع وفي النثر خلف رسالة جوابية في التصوف أيضا بعث بها إلى السلطان السعدي زيدان وهي إحدى رسائله الضائعة بالإضافة إلى أقوال وحكم. كما تنسب له بعض المؤلفات إلا أنها لازالت مفقودة

كان الشيخ سيدي عبد القادر بن محمد رضي الله عنه ينتمي إلى الجيل الشاب المجدد بالشمال الإفريقي آنذاك الذي خلده التاريخ من خلال الدور الريادي الذي اضطلعت به طريقته الصوفية المعروفة (بالشيخية) في ترسيخ الإسلام الحق وطرد المحتل الإسباني من المغرب، وخدمة المشروعية. ولم يتوقف هذا الدور بعد وفاته بل استمر على يد أنجاله منهم خليفته الولي الصالح سيدي الحاج أبو حفص و الولي الصالح سيدي عبد الحاكم و خاصة الولي الصالح القطب المجاهد البطل الشيخ أبي عمامة سيدي محمد بن العربي البوشيخي رضي الله عنه الذي كرس حياته للجهاد ضد المحتل الفرنسي وطرده من المناطق الشرقية للمغرب ويحمل سيدي عبد القادر بن محمد لقبه الشهير سيدي الشيخ الذي أصبح اسمه الشائع حتى أن حفدته تسمى بأولاد سيدي الشيخ ويعود سبب حمله لهذا الاسم الى كرامة شهيرة متواترة مفادها، أن امرأة تلميذة للشيخ سقط ابنها ذات يوم في جب فنادت بأعلى صوتها: "يا القادر يا

[1] خليفة بن عمارة ، المرجع السابق، ص91.
[2] خليفة بن عمارة، نفسه، ص91.

عبد القادر...." فاذا بشيخين يحملان معا اسم عبد القادر هبا لإنقاذ الطفل أما شيخ المرأة فقد أعد يده من الأسفل قبل أن يسقط في الماء، وأما الشيخ سيدي عبد القادر الجيلاني فسارع لإمساكه من الأعلى، ولما لاحظ هذا الشيخ أن الطفل مستقر في يد شيخ آخر علم أنه يشاركه في الاسم [1]. فتوجه له بالقول:" ميز اسمك عن إسمي يا شيخ." علما منه أنه لا يستطيع القيام بإغاثة من هذا القبيل إلا شيخ كامل، فأجابه سيدي عبد القادر بن محمد:" هو ذاك يا شيخ من الآن فصاعدا سأحمل اسم الشيخ الذي شرفتني به." وهكذا تمت له الشهرة بهذا اللقب على حساب اسمه الحقيقي عبد القادر من خلال هذه الكرامة نفهم أقوال الشيخ إذ يقول في الياقوتة مبينا حضوره في الشدائد وكذا قولته المتواترة:"اخديمي انجيه طاير، وعبدي انجيه غاير، وولدي انجيه ساير."وفي ختام هذه الترجمة المباركة نعترف بعجزنا الكبير عن الإحاطة بالتعريف ولو ببعض جوانب الشخصية العظيمة لشيخنا وقدوتنا الشيخ سيدي عبد القادر بن محمد رضي الله عنه، ولعل ما يعوضنا عن ذلك ويسلينا أيضا قول العلامة أحمد بن أبي بكر السكوني في

تقوية إيمان المحبين والمصدقين. عن بسطه وأوصافه ومزاياه ومن أوصافه رضي الله عنه ونفعنا به وبسيرته وما كان عليه من الأخلاق الحميدة كان رضي الله عنه تائبا ورعا زاهدا صابرا، صادقا حسن القصد، راضيا عن الله ورسله موحدا، عارفا، مداوم على الذكر، مفوضا ذا حياء حزينا يحب العلماء والشرفاء وأهل الدين، يتلقاهم بالإكرام والمحبة والبشاشة، ويتلقى القاطعين بالدعاء والإكرام والموعظة، حامدا لمولاه، خشعا راجيا، محسنا ظنه في مولاه، ذا أنس ذا رأفة ذا سخاوة، سخاوته تضرب بها الأمثال مداوما على الأعمال الصالحة، ذا خلوة ذا إيثار، متفكرا في أمور مولاه، ذا همة عالية، منعزلا عن الناس غالبا، ملازما للجوع، مداوما على الصوم، قليل النوم، وفي مثله يقول القائل علم الشوق مقلتي سهر الليل فصار في غير نوم تراك قنوعا بما قسم الله له، مؤدبا سهل الملتقى، ذا خلق حسن، ناصحا لله ولرسوله ولعامة المسلمين آمرا بالمعروف، ناهيا عن المنكر، ذا هيبة في النفوس موافقا للسنة، وكان رضي الله عنه أكثر كلامه لوائح، دون تصريح، أعجوبة زمانه ونخبة

[1] الأستاذ مقدم الطريقة الشيخية بمدينة فاس السيد أحمد المهاجر، موقع الطريقة الشيخية، 2016/03/10.

عصره وأوانه، ذا قبض ذا بسط، صاحب تمكين، أهان نفسه بالطاعة بل يتلذذ بها، وليس له حظ في الشهوات البطنية وكان رضي الله عنه لا يتكلم في المسجد بكلام الدنيا[1]،

مهما أراد أن يكلم أحدا في أمر الدنيا خرج معه من المسجد فحينئذ يكلمه، وكان رضي الله عنه ممتثلا للأوامر، مجتنبا للصغائر فضلا عن الكبائر وكان رضي الله عنه يحمل الأذى ممن آذاه ويتلقاه بالغفران والإحسان، ويكف الأذى عن الأقارب والأباعد والإخوان تاركا للدنيا ومحبتها، وأتته على رغم أنفها، ومال عن الركوب إليها وكان رضي الله عنه يقدم الفقراء والغرباء على الأغنياء في المحبة والانبساط، وكان جميل الصفات شريف الأخلاق، وكامل الأدب كثير التواضع دائم البشر، وافر العقل، وكان رضي الله عنه نافذ التصريف، مجاب الدعوة، ظاهر الكرامات، كثير الهيبة، وقد انتهت إليه رئاسة هذا الشأن في زمانه، قد فتح الله عليه بمواهب قلبية، وأسرار ربانية إستفادها بالتوجه والعمل، وارتقى فيها إلى غاية ما يؤمل، واشتهر ذكره في الآفاق، وقصده الزوار من كل فج، وظهرت إمارات قربه من الله، وتلقاه الناس بالتبجيل والاحترام والرجوع إلى قوله والمصير إلى حكمه، ورمى بالأموال من كل جهة، وهرع إليه أهل السلوك من كل فج عميق، وأشار إليه الأشياخ من جميع الجهات، وأصبح الغرب يفتخر بنسبته إليه، والشرق يود لو احتوت جهاته عليه، وبلاد " الأبيض" يرقص طربا لحلوله فيه تالله لو لاحظه الشيخ الهواري لما قال في أهل المغرب مقالته، ولو جالسه الشيخ أبو مدين الغوث لقرت عينه به، لأجل أنه من ولادته " كذا "، ولو أدركه الشيخ أحمد بن يوسف الملياني لفرح به لكونه من أحفاده، ولو تكاتب مع الشيخ زروق لعلم أن له حظا في العلوم من كتابته، ولو لازمه الشيخ الشبلي لتيقن أنه تمكن في ولايته، ولو غزا مع الشيخ الجنيد لتبينت له شجاعته، ولو تعبد مع الشيخ أويس القرني لشهد له بالصبر وعدم القلق في خلواته، ولو مشى بين يدي الشيخ إبن مشيش لأفصح للناس بعلو منزلته وجلالته، ولو رأى كرمه وسخاءه الشيخ أبو العباس المرسي لدل الناس إليه لزيارته والتبرك به، ولو جلس في حلقة الشيخ أبي الحسن الشاذلي لقربه إليه بالبرور والمحبة ومعانقته، ولو التقى مع الشيخ أبي يعزى لبان له وظهر ما كتب على رأس قنته، بل هو الذي قال في مثله

(1) الأستاذ مقدم الطريقة الشيخية بمدينة فاس السيد أحمد المهاجر، موقع الطريقة الشيخية، مرجع سابق، 2016/03/10.

القائل

حلف الزمان ليأتين بمثله حنثت يمينك يا زمان فكفر بالله لقد أحي طريق السلف، وزين جميع الخلف، فلو سمع به الشيخ القشيري لم يقل ذهب أهل التحقيق ولا نوه بدروس معالم الطريق، ولو رآه الشيخ ابن أدهم لعده من أقرانه، ولو باشره الشيخ بشر لبشر به أهل زمانه، ولو تصافح مع الشيخ الفضيل لشهد له بفضله[1]، ولو تكلم مع الشيخ الثعالبي لعلم أنه على النهاية في الإتباع، من قوله وفعله، ولو عاصره الشيخ السري السقطي لحض الناس على إسراع السرى إليه، ولو عرضت أحواله على الشيخ أبي يزيد لزاد في الثناء عليه، معارف الشيخ معروف تنشق من عرفه، ولطائف الشيخ ذي النون تشتمل من شمائل لطفه، موارد وإراداته صافيات المنهل، ومنازل منزلاته كل ربع منها آهل، وشاهد مشاهداته مشهورة الدلائل، فبدايته نهاية، ونهايته تقصر عنها الغية، ولو تتبعت مناقبه لأطلت ولو طولت في ذلك لتطولت ولكن وصفت منها ما وسع عقلي ونزرا مما أحاط بصري ونقلي، وأنى لي بدرك معاليه. والإحاطة بوصف مقامه، لكن طلوع الشمس من المشرق وغروبها من المغرب لا يفتقران الى دليل، والماء البارد والسخون يميز بينهما كل عاقل[2].

5- ركب مدينة الابيض سيدي الشيخ:

الأبيض سيدي الشيخ مدينة عريقة بتراثها التاريخي الحضاري وهذا لموقعها الجغرافي الاستراتيجي الذي جعل منها بوابة للصحراء فيعود تأسيسها الى حوالى القرن التاسع للهجري وكما لعبت دور كبير وهام في تحرير واستقلال الجزائر من الاستعمار الفرنسي حيث شارك أبنائها في المقاومات الشعبية التي قادها الشيخ بوعمامة ضد المستعمر في الحقبة التاريخية بين سنة 1881 الى غاية 1908 ومشاركتها في ثورة أول نوفمبر 1954 الخالدة.

تقع مدينة الأبيض سيدي الشيخ في الجنوب الغربي الجزائري وتبعد عن العاصمة الجزائرية أكثر من 900 كلم حيث يحدها شمالا ولاية البيض مقر الولاية، غربا ولاية النعامة و بشار، جنوبا ولاية أدرار، شرقا ولايتي الاغواط وغرداية.

---

(1) الأستاذ مقدم الطريقة الشيخية بمدينة فاس السيد أحمد المهاجر، موقع الطريقة الشيخية، مرجع سابق، 2016/03/10.

(2) نفسه.

يحدها من الشمال جبل بونقطة غربا جبل تامدة، شرقا كثبان رملية، جنوبا جبل تيس مرت أما مساحة بلدية الأبيض سيدي الشيخ 602-330 كلم مربع، أما عدد سكانها ثمانية وثلاثون ألف نسمة.

تظم أربعة بلديات، بلدية الأبيض سيدي الشيخ وبلدية البنود، بلدية اربوات، بلدية عين العراك واما نباتات صحراءها هي الحلفاء والرتم والرمث والبجيق، الدقعة .. الخ. حتى نعرف مغزى ركب سيدي الشيخ لابد من ذكر العوامل الأساسية التي جعلت منه ركبا سنويا، إن مفهوم الركب تأسس بوفاة الأب الروحي والديني سيدي الشيخ بنواحي الكراكدة إلى نقل جثمانه الطاهرة إلى الأبيض تلبية لطلبه في موكب جنائزي سمي الركب، فأصبح هؤلاء السكان مجبرون للأحياء ذكرى وفاة الشيخ سنويا تكريما و تخليدا لروحه الطاهرة[1].

أما مدينته فهي معروفة تاريخيا بأنها كانت منبع المقاومات الشعبية فمنها كان سيدي حمزة ومنها اشتعلت نار المقاومة بقيادة أولاد سيدي الشيخ أما زاويته فهي معروفة فهي مركز إشعاع للعلم والمعرفة بالنسبة للمنطقة والمناطق المجاورة هذا ما تجلى لظهور شعراء وعلماء عظماء بالمنطقة أمثال محمد بلخير وغيره، الشيء الذي جعلها سببا في انتشار الوعي القومي لدى السكان مما أدي إلى ظهور عدة مقاومات شعبية بقيادة أولاد سيدي الشيخ وكانت آخرها مقاومة الشيخ بوعمامة ومازالت إلى اليوم تلعب دورها الرئيسي المتمثل في نشر العلم والمعرفة من خلال تعليم القرآن والسنة والقضاء على الأمية والجهل[2].

ـ **قبيلة أولاد سيدي الشيخ :** قبيلة أولاد سيدي الشيخ هي قبيلة عربية بالغرب الجزائري، تتربع على مساحة كبيرة من ولاية البيض كما تتداخل الشراقة والغرابة، أما عن نسبهم فهم أولاد أراضيها من ناحية الشمال والغرب مع حلفائهم التاريخيين من قبائل الحميان سيد الشيخ البو بكريون من نسل أبي بكر الصديق التيمون الأجواد نسبة لبنو تيم إحدى بطون قريش.

يعود تاريخ دخولهم للمغرب العربي إلى القرن الرابع عشر حيث دخل أسلافهم الجزائر بقيادة سيدي معمر بن سليمان العالية مع القبائل الهلالية في الهجرة العربية الشهيرة للمغرب (التغريبة الهلالية) واستقر أحفاد البو بكريون في صحراء شلف من حدود الشلف الى البيض

---

(1) ويكيبيديا، الموسوعة الحرة، الأبيض سيدي الشيخ 11 H02 / wiki 25/01/2016 https://ar.wikipedia.org

(2) ويكيبيديا، الموسوعة الحرة، الأبيض سيدي الشيخ/ Tribu de Ouled Sidi Cheikh 29/01/2014 ولاية البيض.

وصولا لواحات فجيج بالمغرب الأقصى، برز من خلف سيدي معمر التيمي، رجل يدعى سليمان بن أبي سماحة وطهر بعده حفيده عبد القادر بن محمد المكني " بسيدي الشيخ" رحمة الله عليه.

كان لسيدي الشيخ ثمانية عشر ولدا، عاش منهم أحد عشر :

1-سيدي الحاج بن الشيخ.

2- سيدي الحاج عبد الحاكم.

3- سيدي سيدي المصطفى.

4- سيدي الحاج إبراهيم.

5- سيدي امحمد عبد الله.

6- سيدي الحاج أبي حفص.

7- سيدي عبد الرحمان الحاج احمد وأمه نصرانية أسلمت وهي دفينة خميس مليانة.

8- سيدي محمد.

9- سيدي التاج.

10- سيدي بن عيسى لعرج.

أما الأسماء الآخرين فهم سيدي قاسم، سيدي الموسم، سيدي بونوار وسيدي زروقي، سيدي الحاج الدين وسيدي حسن وسيدي المدني، تكونت بطون قبيلة أولاد سيدي الشيخ من خلفه وتفرعت نسبة لكل ولد على حدة.

أصبحت للقبيلة مكانة مرموقة ومتميزة في المناطق التي تواجد بها أعضائها، يشهد لهم التاريخ بوزن سياسي ثقيل وبطولة قوية والتشبث بالدين كما أن الرشيف الفرنسي مليء بالوثائق التي تحدثت عن هذه القبيلة البو بكرية التيمية القرشية وخصوصياتها وتأثيرها على محيطها حاولت الادارة الفرنسية تقسيمهم إلى مجموعة من العروش والبطون حتى لا تتحد من جديد فمثلا المعلوم انقسمت قبيلة أولاد سيدي الشيخ إلى فرقتين 1845 معاهدة لالة مغنية الموقعة بين فرنسا والمغرب في 18 مارس[1].

[1] ويكيبيديا، الموسوعة الحرة، الأبيض سيدي الشيخ/ Tribu de Ouled Sidi Cheikh 29/01/2014 ولاية البيض.

أولاد سيدي الشيخ "الشراقة أو الشرقيين" و أصبحوا بوجب الاتفاقية جزائريين و هم:

-أولاد سيدي محي الدين.

-أولاد سيدي العربي.

-أولاد سيدي طاهر.

-أولاد سيدي بونوار.

-أولاد سيدي الزيغم.

-الرحامنة.

أولاد سيدي الشيخ "الغرابة أو الغربيين" وأصبحوا بموجب نفس المعاهدة مغاربة :

- أولاد سيدي التاج.

- أولاد سيدي بن عيسى.

-أولاد سيدي محمد عبد الله.

-أولاد سيدي عبد الحكم.

-المعابدة.

-المراسلة.

-اولاد سيدي سليمان.

-أولاد سيدي براهيم.

-أولاد سيدي الحاج أحمد.

-أولاد بن بوسعيد.

-أولاد عزيز.

وكرست المعاهدة انقساما سابقا كان بين الفريقين جراء خلافهما حول زعامة القبيلة وصراعهما حول تسيير زاوية جدهما الشيخ سيدي عبد القادر بن محمد السماحي[1].

وقد عرفت هذه الزاوية في حياة مؤسسها وبعده اشعاعا غطى كل من الجنوب الغربي الجزائري والجنوب الشرقي المغربي.

[1] ويكيبيديا، المرجع السابق.

كان لقبيلة أولاد سيدي الشيخ وزن سياسي كبير في الغرب الجزائري وذلك راجع لمل كانت تتمع به من صيت حسن لدى باقي القبائل وهو ما نلاحظه في كتابات اغلب المؤرخين الذين مروا بالمنطقة عن ثورة أولاد سيدي الشيخ في الصحراء بالخصوص فقد كتبت الكاتبة **أنري قولدزيقر** في كتابها الجنوب الغربي الجزائري التي سمته في كتابها هذا 'بلاد الخوف والبارود وهذا لأن الصحراء الشرقية أي الجنوب الشرقي الجزائري يختلف تماما مع الجنوب الغربي لأسباب جغرافية.

6- أضرحة الأولياء عبر مختلف الديانات

6- 1- في الديانات القديمة:

كان اعتقاد الناس بأن الكون وما يعيش فيه موكول أمره إلى مجمع من الكائنات الحية، هيئتهم كهيئة إنسان وإنما يختلفون عنه بتفوقهم جسديا وفكريا، ولا ينال منهم الموت، وبأنهم من الذين يديرون دقة العالم ويتحكمون بمصيره، هذه المخلوقات تسمى الآلهة، فهناك آلهة مسئولة عن السماء وأخرى عن الأرض وعن كل ما في الحياة من مرافق وما لدى الإنسان من حاجات، فقد كان الإنسان القديم يعتقد بأنه خلق من أجل خدمة الآلهة، وذلك عن طريق تقديم الطعام والشراب والمأوى لها ضمن طقوس وصلوات يقدمها في المعبد وكان يعتبر بيتا للآلهة ومركز للعبادة والصلاة وله كهانة ومنشدون وعازفون وصبيان وبقايا مقدسات استرضاء لها وتهدئة غضبها وقد حان أول مظهر للدين عيادة أبناء القبيلة لأميرهم، حيث قال سينسر في هذا الصدد:" أن عبادة السلف أساسي الأديان جميعا" وجاء أيضا أن "ودا" و "سواع" و "يغوث" و"نسرا" كانوا قوما صالحين ماتوا في نفس الشهر، فجزع عليهم أقاربهم فصنعوا له تماثيل وليقوها لهم فكان يأتي أخاه وابن عمه فيعظمه ويسعى حوله حتى ذهب القرن الأول ثم جاء قرن ثاني فعظموهم أشد تعظيما من القرن الأول ثم جاء قرن ثالث ورابع فعبدوهم[1].

وتجدر الإشارة هنا إلى ما ذهب إليه "يوسف شلحت" حين قام بنقص هاته الفرضية التي قامت على اعتبار أن (الديانات عبادة أموات)، وبدعوى أن دفن الميت لم يحث تاريخيا إلا

[1] راضية وعلي، "المرأة الجزائرية وزيارة الأضرحة"، دراسة سوسيو أنثروبولوجية لمنطقة شرشال، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في علم الاجتماع ، جامعة سعد دحلب- البليدة، السنة الجامعية 2007-2008، ص 41.

في مجتمعات تعتقد بوجود عالم آخر، وباستمرار الحياة هنا وهناك على إيقاعات مختلفة حيث يقول: " ولا نذهب هنا مذهب سبنسر في رأيه أن الديانة نشأت عن احترام الأصوات وعبادتهم بل نعتقد أن عبادة الأموات متأنية عن ديانة أقدم، ولم يوار الميت في اللحد إلا بعد أن نشأت في ذهن الإنسان تصورات عن العالم الثاني، ودليلنا على ذلك أن وضع الميت في القبر يختلف باختلاف الاعتقادات فإذا توهمنا أن الإنسان يولد من جديد بعد موته، وصفنا الميت في القبر على هيئة الجنين في أحشاء والدته استعداد للولادة الثانية، وإذا سلمنا بأن بقايا الميت تحتوى قوي تساعدنا على نبل رغائبنا، فلا شك في أننا نعمل على حفظهما من كل تلف (التحنيط)[1].

أما في المجتمع الروماني فكانت المعتقدات العامة معقدة شأن غيرها في المجتمعات فقد كان الأسلاف في التراث الروماني على نفس الدرجة من الأهمية، والتبجيل التي كانا عليها في التراث الإفريقي ، فالرجل الأرستقراطي بقي يحتفظ بتماثيل وأقنعة لأسلافه لكي ينتج منها نسخا من الظروف المناسبة، مع شهورهم بالهيبة والإجلال لأرواح الموتى وفي عهد الإغريق دخلت إلى مصر عبادة الأبطال، حيث كان المصريين يحجون إليها ويقدسونها فدخل الحكماء إبان العهد الإغريقي في عدد الآلهة ومن هؤلاء "أمينوس بن جابو" الذي انتشرت عبادته في طول البلاد وأضحى قبره قبلة لمن يطلبون الشفاء من أوجاعهم بل إنهاء فكرة بدوية تاريخية صبغت بصبغة الإطناب والمغالاة لإظهار أهميته في جيل زال أثره من ذهن الناس والناس بالطبع يكبرون الشيء الصغير لإظهار عظمته (الجيل السالف) ولذلك نرى الناس يعظمون الأموات وكلما بعد عصور الأموات من الأحياء كبرت عظمتهم وبلغوا درجة الآلهة، ومن بين الآلهة التي عبدها الإغريق "جوبير" أله الآلهة "جامبو" ملكة "السماء" "أبولولو" ملك الشمس والطب والموسيقى والفن، وآلهة الجمال "فينوس" والضحك والزواج، ولم يقف الإنسان بعبادته عند حدود تقديس الظواهر بمخاوفها ومباهجها وإنما عبد الطوطم والأسلاف والجمجمة والخاتمة بالنساء كدليل على الخصوبة نظرا لقداسة المرأة في تلك المجتمعات وكذلك الشاماتية التي يقوم فيها الشامات باستحضار الأرواح الخفية في سبيل أو تجنب للكوارث والمجاعات والأمراض ومن أجل بلوغ هذا الهدف

[1] يوسف شلحت، نحو نظرية جديدة في علم الاجتماع الديني، ط1، دار الفارابي، بيروت، 2003، ص 60.

يلجئون إلى طقوس وعمليات سحرية مستخدما فيها بعض المواد المخدرة، فالبعض يرى الشامانية علاجا نفسيا، اجتماعيا للحالات التي تتميز بالاضطراب العام ونجده خاصة في المجتمعات الإفريقية، فقد تمت عبادة الأسلاف بلا ريب تاريخيا على أساس النظام الأبوي العشائري الذي وصلت إليه أكثرية شعوب إفريقيا منذ زمن قريب في مراحل تطورها الاجتماعي.

كذلك تعتبر عبادة الأسلاف من مختلف العشيرة الأموية والتي هي قوية مكانيا خاصة لدى الشعوب الزراعية – دليل على الخصوبة- ونظرا لظهور العائلة الشخصية فقد اتخذت عبادة الأسلاف شكلا عائليا إلى درجة يصعب فيها التعريف بينها وبين الأقرباء المقربين وهذا من خلال العلاقات والروابط والاتحادات القبلية فيما بينها وبذلك تكوين الشعوب البدائية[1].

بذلك تطورت عبادة الأسلاف القبلية لتتخذ نمط تأليه السلف من الزعماء والملوك، حيث يتم تصوير أرواح الأسلاف كمخلوقات تقوم بحماية العائلة أو العشيرة، كما اعتبر فرعون في مصر إله الشمس، واعتباره ابن اله كإله حي كان قد سيطر منذ بدئ تاريخ مصر السياسي من لحظة انتهائه فقد كان الملك يقيم لنفسه أكثر الطقوس الدينية أهمية فقد أنشأ المعابد، استخدم تأليه الملوك الذي مارسنه الطبقات باعتباره سلاحا جبارا لإخفاء احتجاج الجماهير الشعبية المضطهدة، حيث كان لكل إقليم من أقاليم المصرية معتقداته والتي تتمثل في عبادة الحيوانات أو أصنام تمثل شيء ما في الطبيعة، كما قدسوا نهر الدلتا، كذلك عبدوا ملوكهم بصفتهم تجسيدا للآلهة كعبادة الإسكندرية وبعده سلالة بطليموس الذي سمي بالإله المنفذ هما تضفي لديهم قداسة الرجال، العظام بعد موتهم[2].

أما اليونان القدامى فكانت لديهم عبادة الأبطال متأخرة، نتجت من انهيار عشائرية معينة ومن هنا بدأ الاهتمام بالأبطال ومن بينهم "هرقل" وشقيقه "إيفيكل"، ومع انحلال نظام العشيرة وتشكل الجماعات على أساس المقاطعة انتقل مركز الثقل في الديانة اليونانية، إلى عبادة أضرحة الأولياء المحلية والعامة ومن بينهما "غيرا"، "أثينا"، وكان هناك العديد من الجماعات التي تقوم بعبادة حماته تحت أسماء عامة ومركبة، حيث شغلت الآلهة العظام لدى

[1] راضية وعلي، المرجع السابق، ص 41.
[2] نفسه، ص 42.

الديانة اليونانية مكانة خاصة وذلك بتقديم القرابين لها، إذ تمثل الطقوس بالنسبة إليهم طابع الأحياء الاحتفالية الشعبية العامة.

أما الحالة الدينية في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام فكان العرب يعيدون الأولياء بزعم تقربهم إلى الله تعالى زالفا، وكانوا يطلقون على تلك القبور المقدسة الأنصاب- وهي نفسها الأضرحة في عصرنا- فكانوا يقيمون الأعباء لتلك المناصب كما عبدوا الكواكب من الشمس والقمر واعتبروها المديرة لهطا العالم، ومنها تصدر الخيرات والثروات والسعادة والشرق، حيث تعتبر هذه الأخيرة التالون المقدسي الرئيسي باعتبارها حامية العدل والقانون كما عظم السكان الموتى هذا البشر إلى جانب عبادة الطوطم واعتباره كإله ، كذلك قدسوا الأشجار وعبدوه الجن[1].

6-2- في الديانة اليهودية:

اليهودية هي ديانة العبرانيين المنحدرين من إبراهيم عليه السلام والمعروفين بالأسباط مدني إسرائيل الذي أرسل الله إليهم موسى عليه السلام مؤيدا بالتوراة ليكون لهم نبيا، وهي ديانة يبدو أنها منسوبة إلى يهود الشعب، وهذه بدورها قد اختلف في أصلها، وقد تكون نسبة إلى يهودا أحد أبناء يعقوب وعممت على الشعب على سبيل التغليب[2].

كما تعد أحد الأديان القومية القليلة في العالم والتي ما زلت مستمرة في الوجود إلى يومنا هذا وقد كان للديانة اليهودية دورا بارزا في تاريخ أديان العالم، بسبب دخول قسمهم محسوس من تعاليمها في تركيبه المسيحية والإسلام فاليهودية هي ديانة العبريتين، لقد مجدوا في العصور الغابرة الأشجار والجبال والصخور والينابيع وكذلك الأعمدة المقدسة (أشير)، كما عبدو العجل الذهبي، وصاغوا عبادة "يهودة" الذي يمثل لهم الصورة التي كانوا عليها فجعلوا منها إلها صارما ذ نزعة حربية إلى جانب عيادة زوجة الإله "يهودة" إلهة "عنان" كما عرفت إسرائيل قيمة مجدها في زمن سليمان عليه السلام ، إذ يعتبر بناء الهيكل لعبادة "يهودة" في أورشليم بعدما كانوا يقربون القرابين في هياكل بسيطة فوق التلال ويسمى الهيكل "بين

---

[1] راضية وعلي، المرجع السابق، ص 43.

[2] الموسوعة المسيرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، الندوة العالمية للشباب الإسلامي، موقع الكاشف موقع صيد الفوائد، ص 48.www.Saaid.net

الأبد" وضع فيه تابوت العهد كما اعتبر المركز الروحي لليهود ويستدل من أقدم أسفارهم أنهم كانوا يعتقدون بتعدد الآلهة، فيرون ثمة إلها خاصا بشعيب إسرائيل، يختلف عن إلهة الشعوب الأخرى هو أولاده وأحباؤه، إلا أنه يتصف بصفات البشر فيجادل ويأمر وينهى ويتدخل ف شؤون الأمة التافهة عنها والهامة ويندم ويتذكر ويخاصم ويقهر ويعقد بعقد العقود والمواثيق ويشتد غضبه ويشني ويصفح وقديراه الناس ذات قدسية خاصة، أو إله وهبا صفة القداسة وعرفت باسم "نازوين" واعتبارهم شخصيات أسطورية كولادة "أم شمشوم" التي اعتبرت "ملاك الرب" كذلك نجد داخل اليهودية من حيث التركيب الجيولوجي التراحمي، طبقة توحيدية تدور حول الإيمان بالإله الواحد الذي لا جسد له ولا شبيه، وقد وصل التوحيد في اليهودية إلى ذروته على يد الأنبياء الذين خلصوا التصور اليهودي للإله من الوثنية الحولية، منذ البداية تعايشت فكرة الإله الواحد المتسامي مع الأفكار الأخرى التي يتناقص معها، ولهذا لم يكن غريبا أن يقبل العهد القديم عناصر وثنية مثل الأصنام، ومع ظهور الإلهية التلمودة الحاخامية يزداد الحلول الإلهي والاجتهاد البشري وتجمع أراء الحاخامات في التاموذ الذي يصبح أكثر قداسة من التوراة، وتزداد أهمية الشعب اليهودي كشعب مقدس ويزداد التحاق الإله بهم وتخبره لهم، ضد أعدائهم ويصل الحلول إلى قمته في التراث القبلي بحيث لا يصبح هناك فرق بين الجوهر الإلهي والجوهر اليهودي، بل اكتسبت قوة من خلال التفاعل مع الفكر الديني الإسلامي، كما هو الحال مع سعيد يوسف القيومي وموس بن ميمون وكثيرا ما حاول الحاخامات أن يفسروا الطبائع البشرية للإله بأنماط مجرد محاولة التبسيط ليفهمها العامة[1].

6-3- في الديانة البوذية:

هي فلسفة وصفية انتحلت الصفة الدينية، وقد ظهرت في الهند بعد الديانة البرهمية الهندوسية في القرن الخامس قبل الميلاد وكانت في البداية تناقض الهندوسية وتتجه إلى العناية بالإنسان، كما أن فيها دعوة إلى التصوف والخشونة ونبذ الترف والمناداة بالمحبة والتسامح وفعل الخير، ولقد على أباعها في مؤسسها بوذا حتى ألقوه وهي تعتبر نظاما أخلاقيا ومذهبا فكريا مبينا على نظريات فلسفية تعاليمها ليست وحيا، وإنما هي آراء وعقائد

[1] راضية وعلي، مرجع سابق ، ص 45.

في إطار ديني، وتختلف البوذية القديمة على الجودية الجديدة وان الإله صبغتها أخلاقية، في حين أن البوذية لجديدة هي تعاليم جواد مختلطة بآراء فلسفية وقياسات عقلية عن الكون والحياة[1].

وهكذا صارت البوذية عقيدة تستطيع أن تجد أتباعها شعوب العالم، فمصي بود ولكن تعاليمه ضلت تجد الآلاف والملايين من الأتباع كلهم يؤمنون بحكمة الرجل الذي قال على الإنسان أن يتغلب على غضبه بالشقي وأن يزل الشر بالخير، أن التصوف يولد المقت لأن المهزوم دائما في شفاء أن الكراهية يستحيل عليها في هذه الدنيا أن تول بالكراهية مثلما وإنما تزول بكراهية الحب، إن التعليم المسيحي عن الموت والقيامة هو انعكاس للعبادات الشرقية عن الإلهة الموتى والقائمة فعباد الإله "مترا" تمت على أساس استعارته كنموذج فهو نسخة من عيادة "إرسيدا" التي أصبحت عبادة عالمية بفضل صبغتها الشهوانية، حيث كانت المسيحية مزعمة على إيجار آلهة نسائية فمن هنا برزت وظهرت عبادة والدة الرب المسيحية، وبعد انتشار المسيحية ساهمت في تقديمه بعض المنافع للسكان المحليين كالعلاج، التعليم، والنضال ضد العبودية وغيره، لكن رغم هذا فإنه كان لاعتناق الدين المسيحي لدى الشعوب فتور ملحوظ وهذا الانتشار وتوسع الديانات الأخرى كالإسلام واليهودية كما حدث امتزاج أشياء أخرى كثيرة في تعاليم الدين المسيحي منها عبادة عالم الأموات القديمة مع الإيمان الذي رافقها بحياة الروح بعد الموت العبادة الإله الشخصي "GEM" القديمة وبعد ذلك تحولت إلى الإيمان لمسيحي بالملائكة الحراس وما إلى ذلك من رواسب الطقوس الطوطمية[2].

يعتقد البوذيون أن بوذا هو ابن الله وهو المخلص للبشرية من مآسيها وآلها وأنه يتحمل عنهم جميع حظاياهم وأن تجسد بوذا قد تم بواسطة حلول روح القدس على العذراء، يصلي البوذيون لبوذا ويعتقدون أنه سيدخلهم الجنة، والصلاة عنه تؤدي في اجتماعات يحصرها عدد كبير من الأتباع الذين يقولون أن بوذا لما مات قد: صعد إلى السماء بجسده بعد أن أكمل مهمته في ارض ويؤمنون برجوعه ثانية إلى الأرض ليعيد السلام والبركة إليها[3].

---

(1) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، المرجع السابق، ص 790.
(2) راضية وعلي، المرجع السابق، ص 47.
(3) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، مرجع سابق، ص 791.

6-4- في الإسلام:

كان العرب الأمم القديمة يعبدون ما في الطبيعة كالشمس والنجوم وأرواحها كما عبدوا ذكرى آبائهم إبراهيم وإسماعيل، وبنوا الأصنام في مكة بالقرب من الكعبة الشريفة وعبدوها، حيث كانت لهم ثلاثة مئة وستون صنما، بعبدون فيها في كل يوم صنم طوال أيام السنة وقبل أن قريشا وضعت هذه الأصنام حول الكعبة لتنتفع من قدوم القبائل العربية كلما في موسم الحج، فإذا وجدوا معبوداتهم حولها أولوها احترامهم وتقديسهم ومن أهم هذه الأصنام "هبل" فلكل قبيلة صنمها واعتقاداتها وغالبا من كانت القبائل تتناقل بقسوة يسخر بعضها من معتقدات البعض الآخر رغم صلة النسب القديم بينهم، ومع ذلك استمرت عبادة الأصنام وتقديسها تأخذ مكانا بارزا في نفوس أهل شبه الجزيرة العربية الإسلامية وعدد الأصنام في تزايد مستمر هكذا ظلت بلاد العرب غارقة في حروبها القبلية وخلافاتها حول مختلف معتقداتها الدينية التي اكتظت بها وكتبت بمختلف صورها على حجارة مقدسة أو تلال أو نحيل، وبمجيء الإسلام وانتشاره في العالم، والذي أتى بمعجزة القرآن الكريم على نبيه محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء والمرسلين، ذلك الكتاب المقدس الذي شغل المسلمين من الباحثين منذ أن أنزل على نبيه الكريم الأمين، فكان هداهم ومرشدهم وعاصم دينهم وعقيدتهم من الفتن والطغيان، فالإسلام هو ودين التسليم الله، دين خضوع الإنسان وإخضاع حربية لمسيئة الله تعالى، وعليه فإن تفكير الإنسان وقوله وعمله وحياتهم تحت إمرة الله تعالى وبالتالي يقع تحت الهيمنة المباشرة للدين، أما الأسس العلمية لهذا النظام الذي يشمل جميع مرافق الحياة، يتم تبليغه للمؤمنين بواسطة الشريعة الإسلامية التي تقوم بدورها على أحكام القران الكريم معطيات الحديث أي السنة النبوية الملزمة، حيث جعل القرآن الكريم وعلى الإنسان بهذه الفطرة الخاصة بالإنسان ووعيه بما يدعم إحساسه بوجود الله سبحانه وتعالى من قوي معرفية (سمع، بصر، أفئدة)، الأساس للتوجه إلى معرفة الله والإسلام له تعالى وحرية الإنسان هي في هذا التحرر وغفي هذا التوجه إلى معرفته تعالى عن وعي.

وأما عن تصورات الجماهير الشعبية الإسلامية آنذاك فهناك الكثير من المعتقدات القديمة التي تعود إلى العصور السابقة للإسلام من عبادة للأماكن المقدسة والأولياء المسلمون مثيلا للآلهة الحماة المحلية القديمة، ولكن بأسماء إسلامية وكثيرا من الأماكن الخاصة في آسيا،

على سبيل المثال هناك مرارات – مقابل الأولياء- هي في الواقع أمكنة للعبادة القديمة حيث عثر الباحثين على طبقة كاملة ترسخت في الإسلام من معتقدات وطقوس تقود لأزمنة سحيقة أي منذ القدم، أين ارتبطت بعبادة آلهة الخصب الزراعية وبعابدة الأسلاف السلالة العشائرية[1] كما تعود إلى جذور ثمانية وبالتالي أجري الإسلام تغييرا حاد في مظهره أما الشعوب الإفريقية المحلية، التي حافظت على نظامها العشائرية القبلي ليحقق تلاؤمه مع الشروط المحلية، فكثير ما كان لسكان يستوعبون من لدين الإسلامي مجرد مظهر الخارجي وطقوسه الأكثر بساطة في الوقت الذي ظلوا فيه يحتفظون بمعتقداتهم القديمة والتي كانت العبادة تؤدي للزعيم أو القديس المحلي أو الكاهن أو رئيس القبلية[2].

7- أنواع الأضرحة:

يرجع الباحثين انتشار الأضرحة في المغرب العربي بظهور الحركات الصوفية في هذه المنطقة ولعل ذلك راجع إلى تعرض المنطقة إلى الحروب والفتوحات وقيام الدول الإسلامية على اختلاف مذاهبها وما كان له من أثر على التحولات السياسية والاجتماعية الثقافية.

تقوم عقيد التصوف في المغرب العربي ومنه الجزائر على تقديس الأولياء الصالحين بصفة عامة سواء كانوا مشايخ الزوايا، أو علماء الدين، أو رجال عاديين عرفوا بخوارق غير عادية في حياتهم، تقوم عقيدة لتصوف على تقديسهم إحياء وأموات والتبرك بأضرحتهم وما يحيط بها من تراب وشجر وجدران.

تشهد المناطق الجزائرية كغيرها من المناطق الإسلامية انتشار للأضرحة والقباب أغلبها لمشايخ الطرق الصوفية وعلماء وأئمة تنتشر الأضرحة في المناطق الريفية والمدينة على حد سواء، حيث يمكن تصنيف لأضرحة إلى أضرحة شعبية وأضرحة سلطانية حسب المعالم التاريخية والثقافية والبيئة الاجتماعية للولي الصالح.

7-1- الأضرحة الشعبية:

نقصد بمصطلح الشعبية "كل ممارسة مادية كانت أو معنوية متصلة اتصالا عضويا بالشعب، سواء أكانت من إنتاج وإبداع الشعب أو منتجة وموجهة للشعب والأضرحة الشعبية

[1] راضية وعلي، المرجع السابق ، ص ص 47، 49.
[2] راضية وعلي، المرجع السابق، ص ص 49، 97.

هي الأضرحة التي تظم رفات ولي من الأولياء الذي يعرف عنه شيء، فقط ما يحتفظ له مخزون الذاكرة الشعبة بحكايات وأساطير التي نسجها من الخيال الشعبي وتستند له خوارق لا يعرفه إلا سكان المنطقة التي عاش فيها أو تعلم بها وأمر بها أو جلس فيها فأنشئوا له ضريحا إكراما وإجلال له ما ظهر عليه من كرامات وعمل صالح في حياته والتبرك وطلب رضاه، هذا النوع من الأضرحة يظهر في العديد من المناطق الريفية والمدينة فلا تخلو قرية أو مدينة أو أكثر وتكثر الأضرحة الشعبية في المناطق[1] الريفية أكثر وتتموقع أغلبها خارج المدن والتجمعات البشرية ولعل ذلك يدل على خصوبة الحياة الصوفية في الجزائر التي من شروط التصوف وكسب الولاية الزهد والخلوة حتى يتفرغ الولي بالعبادة ويهب نفسه لربه ويبتعد عن الدنيا وما يشغله بها[2].

7-2- أضرحة سلطانية:

الأضرحة السلطانية أو الأضرحة المعلومة، هي أضرحة معروفة بأسماء أصحابها من اشهر الشخصيات الدينية المعروفة نسبا وعلما وذلك لما يحتفظ لها التاريخ كن موروث ثقافي تناوله الأجيال، حيث سجل بلها التاريخ من الأعمال البطولية كالجهاد والتراث ونشر الدين الإسلامي وإنشاء المؤسسات التعليمية الدينية وإقامة حلقات الذكر، ولها من الآثار العلمية من كتب ومخطوطات كما أشارت إليه الباحثة مهتاري فائزة في دراسة فنية معمارية تاريخية بعنوان "أضرحة الأولياء في الغرب الجزائري"، توجد الأضرحة المعلومة بأسماء أصحابها في المدن مركز الصلاح والحماية والتقوى والمنزلة الرفيعة، قسمت المدينة باسم الولي الذي دفن فيها وشيد له الضريح رمز التقديس ونذكر على سبيل أمثال لا الحصر بعض الأضرحة لشخصيات تاريخية دينية مثل: ضريح عقبة ابن نافع في بسكرة، ضريح عبدالرحمن الثعالبي بالجزائر، ضريح ابن يوسف السنوسي بتلمسان، ضريح أبي مدين شعيب بتلمسان، ضريح إبراهيم المصمودي بتلمسان، ضريح محمد بن عمر الهواري بوهران وغيرها من الأضرحة المشهورة في القطر الجزائري[3].

---

(1) سعيد محمد، من أجل تحديد الإطار المعرفي والاجتماعي للمعتقدات والخرافات الشعبية، مطبوعات مركز الأبحاث في الأنتروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، جوان 1995، ص 5.

(2) سعيد محمد، نفسه، ص 5.

(3) المهتاري فائزة، (أضرحة الأولياء في الغرب الجزائري، دراسة تاريخية ومعمارية من خلال بعض النماذج) ، أطروحة لنيل شهادة دكتوراه ، جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان إشراف دهن وبلحاج، 2006/2005، ص 54.

8- ضريح سيدي الشيخ وعلاقته بالمجال السوسيولوجي:

إن التغيير الثقافي والاجتماعي الذي عرفه المجتمع الجزائري بصفة عامة وتغيير السنة الاجتماعية في ظل التحولات السياسية والثقافية والاجتماعية ورغم الجهود المبذولة لتحسين الدور القدسي للأضرحة والأولياء الصالحين، إلا أن الطابع الدنيوي أصبح هو الغالب على الممارسات والطقوس في الحقل القدسي للأضرحة.

ليس المحيط في هذا الحقل الطقوس فقط مجموعة من الشروط والعوامل الخارجية التي تفسر توافد الزائرين إلى ضريح الولي بل تشمل الفاعلين الاجتماعيين في هذا الحقل الطقوسي مشكلا بذلك قناة تسمح لنا بالمرور إلى دراسة فضاء مركب من موضوع أشمل منه لشكل مجالا لا يتقاطع بداخله الديني مع الاجتماعي والتخيلي والقدسي مع الاقتصادي والتخيلي ليتمظهر الكل في أشكال تعبيريه زمرية، فالضريح في الظاهر فضاء محدد في إطار بشري بطبيعة أنشطة جماعية ذات طابع اجتماعي مغلقة بطابع قدسي[1].

إن ضريح سيدي الشيخ يشكل من جهة قطب رمزي مقدس في المعتقد الشعبي يفرض على المؤمن شعورا مميزا بالاحترام الذي يمنحه خاصته النوعية ومن جهة أخرى قطب الواقع الذي يمثل فضاء دنيوي في التجمعات الشعبية التي تحول صورة المقدس إلى ما لا يصلح لأن يكون مقرا للمقدس إلى حد تعبير روجيه كابو الذي يرى أن "كل اعتداء دنيوي من شأنه أن يفسد كينونة المقدس ويفقده ميزته النوعية ويجرده دفعة واحدة من قدرته العالية والخاطفة[2].

ومن هذه الفكرة سنتطرق إلى الطقوس والممارسات داخل القبة ونظرة المتوافدين لزيارة الضريح.

8-1- الضريح وعلاقته بنوع المتوافدين:

يقع ضريح سيد الشيخ في منطقة سهلية ذات طبيعة معتدلة ويقع في مكان شاسع مما يعطيه ميزة سياحية، ومن هذا شجع على توافد الزوار من مختلف المناطق سواء كان هذه الزيارة

---

(1) نور الدين زاهي، المقدس الإسلامي، دار توبقال، المغرب، ط1، 2005.

(2) روجيه كابو، الإنسان والمقدس، ترجمة: سميرة رشا، المنظمة تا عربية للترجمة ، بيروت ، ط 2010، ص 36.

سياحيا أو الترفيه، أو زيارة الضريح لأغراض المقاربة أو علاجية ، هذا ما جعل المنطقة تشهد توافد عدد كبير من الزوار خاصة عندما يقام ما يسمى الوعد (الركب) الذي يجذب الزوار من المناطق القريبة والبعيدة مثل الأغواط – النعامة ومختلف المناطق المجاورة كالبيض – عين العراك... حيث نلاحظ حضور الزوار بكثافة من مختلف الأعمار والفئات الاجتماعية في شكل جماعات اجتماعية (عائلات، أصدقاء ، جيران ، إلى غير ذلك) فلقد لاحظنا تنقله بكثرة بواسطة الحافلات والسيادات الخاصة كل حسب حاجته وغايته من الزيارة سواء كانت من أجل النزهة أو اللجوء إلى الولي والطلب والدعاء سواء تعلق بالشفاء وغيرها من الطلبات.

تختار هذه الجماعات عند وصولها إلى الضريح ، خاصة العائلات أماكن خاصة لاستقبال الزوار بعيدة عن الازدحام لان الاختلاط والازدحام يكون داخل الضريح وفي محيطه يقوم الزوار وأفراد العائلات بالتجول بين الضريح وبقية الأضرحة المجاورة له فيما تكتفي بعض العائلات بالتجول خارجا دون الدخول إلى القبة وزيارة الضريح معتبرة ذلك شيء محرما وما يقوم به الآخرون خرافات وبدع وتستمتع بالتفرج على الفرق الفلكلورية وسباق الخيل (العلفة) باللغة الدارجة والتجمعات الشعبية والتحول بين المحلات التجارية والوثيقة المفروضة على أرصفة الشوارع وبالتالي ظهور التفاعل الاجتماعي ين فئات المتوافدين.

مما تقدم ذكره يمكننا القول بان ليس كل المتوافدين إلى الضريح هم معتقدون في شخصية وقوة الولي بل هناك من المتوافدين مديري أنها زيارة نزهة وفسحة وفرجة وترويج عن النفس، على هذا الأساس يمكن تصنيف المتوافدين إلى ضريح سيدي الشيخ غلى ثلاثة أصناف من الزوار هم:

*** صنف يعتقد في وجود الولي:**

وهم الزائرون الذين يمارسون الطقوس داخل القبة ويؤمنون بقدرة الولي، هاته الفئة جاءت زيارتها إلى الولي ظرفية من اجل العلاج والحاجات النسبية والاجتماعية.

*** صنف يعتقد لكن بتحفظ:**

يعترفون ويقرون بوجود الولي كرمز كن لا يعطونه صفة القداسة ولا يمارسون الطقوس داخل الفئة ويكتفون بقراءة بعض الآيات والدعاء للولي بالرحمة وهذا يدل على اعتبره إنسان كباقي الناس.

*** صنف لا يعتقد:**

بحيث يعتبرون الزيارة بدعة وشرك يرفضون الظاهرة رفضا تاما ولا يدخلون القبة وجاءوا إلى المنطقة فقط للتنزه والترفيه والتعرف على بعضهم البعض.

8-2- الضريح قضاء بين المقدس والدنيوي:

إن زيارة ضريح سيدي الشيخ كمعلم قدسي التنزه في المنطقة كفضاء سياحي والذي يشكل تجمعا بشريا لا يفصل بين مختلف الفئات الاجتماعية مشكلا بذلك بنيات اجتماعية مختلفة، كان فرصة لاستغلال الجماعات الشعبية التي ظهرت في شكل جماعات شعبية صغيرة منظمة على حد تعبير نموذجا من الفعل الرمزي[1] يرتبط أفرادها بمصالح مشتركة، كما يعتبر راد فيلد Redfield هذه الجماعات أنها مجتمع صغير منعزل ومتجانس يتميز بإحساس قوي بالتضامن الاجتماعي[2]، شكل هذه الجماعات أنشطة احتفالية أسبوعية خاصة بهذا المعلم الطقوس تظهر هذه لجماعات في:

أ- المحلات التجارية:

يمكن وصف هذه المنطقة بالرعوية تغلب عليها زراعة الحبوب (القمع، الشعير) وتربية المواشي والغنم، لأن الضريح شكل متنشقا لسكان المنطقة قصد ممارسة التجارة وتصريف البضائع كان يوم توافد الزوار خاصة ف مناسبة الوعدة أو التجارة وتصريف البضائع كان توافد الزوار خاصة ف مناسبة الوعدة أو كما تعرق عندهم بالركب الذي يقام على مدار ثلاث أيام من كل سنة يعتبر مناسبة اقتصادية هامة نفس سكان المنطقة في استغلالها فقد انتشر نشاط اقتصادي حول الصريح، يشمل التجارة المرتبطة بهذا النوع من السياحة.

نظرا التميز الزيارة من الناحية الكمية والنوعية، بينت دكاكين يستفيد منها السكان المحليين إضافة إلى المرافق العامة مثل دار الشباب وفندق سمي باسم سيدي الشيخ نظرا لكثرة توافد

---

(1) فاروق مصطفى المواليد، دراسة للعادات والتقاليد الشعبية في مصر ، دار بورسعيد، مصر 1980، ص 46.
(2) فاروق مصطفى، نفسه، ص 80.

الزوار خاصة الأجانب لذلك فكرت الدولة في إنشاء مرافق من محلات بيع المواد الغذائية ومستلزمات الزوار الأخرى، أما بالنسبة للسويقة المفروضة على الأرصفة طغت عليها التجارة التقليدية من بيع القماش وطبول والبخور الذي يميز المنطقة فعندما تدخل للضريح تشم رائحة بخور مميزة تدرك للوهلة الأولى أنك في ضريح سيدي الشيخ، كذلك تجد بعض الأواني التقليدية مثل القلة، الطبق الذي هو عبارة عن طبق كبير مصنوع بالحلفاء الطبيعية وهذا ما يزيد المنطقة ميزة خاصة للحفاظ على صورة الضريح في شكله القدس والتقليدي وذلك بربط التجارة بالضريح وإعطائها صيغة البركة (بركة الولي).

ب- الفرق الفلكلورية:

تظهر في شكل تجمعات شعبية ثقافية لأن الظاهرة الفولكلورية تستلزم وجود جماعة أو جماعات شعبية لها ثقافتها الخاصة، يمكن أن تطلق عليها ثقافة شعبية[1].

يصل عددها إلى عدة فرق حيث شاهدنا حضورها بكثرة خاصة في مناسبة الوعدة التي يحضرها المريدين والزوار من كل انحناء المدن والمناطق، وهذه الفرق تنتشر حول لضريح شكل هذه التجمعات الشعبية المنظمة ما يسمى "بالقايطة والعلاوي" حيث تختلف من فرقة إلى أخرى كل حسب طريقتها ونشاطها لكنها تلتقي في نقطة واحدة هي التغني بمدائح وقصائد حول الولي واستغلال هذا الظرف من أجل هدف اقتصادي وكسب المال من خلال دفع الزيارة من طرف لمتفرجين.

تتكون الفرق الفلكلورية من أعضاء يتراوح عددهم من خمسة إلى اثنا عشر عضوا حسب نشاط الفرقة وأهميتها أنواع فيها الوظائف على أعضاء الفرقة على حسب الإمكانيات والوسائل من العازف على القصبة ومت الذين يضربون على الدف (البندير) والمداح أو المغني وقائد الفرقة الذي يلعب الدور الدرامي في الفرقة للتأثير على الزوار من خلال الدعاء للحاضرين الذين لا يتأخرون في دفع الزيارة له ويقوم هذا الأخير بجمع الزيارة والدعاء لمن دفع الزيارة ويذكر أسمائهم والمناطق التي جاؤوا منها حتى يخلق جو التنافس بين الحاضرين في دفع الزيارة تكمن وظيفة القائد هنا في الدور الدرامي الذي يؤثر على الناس المجتمعين حوله وهنا يظهر دوره في التفاعل الاجتماعي.

---

[1] فاروق مصطفى، المرجع السابق، ص 80.

9- دور العثمانيين في انتشار الأضرحة والزوايا في الجزائر:

لقد كان لسياسة العثمانيين الأثر الواضح في زيادة نمو ظاهرة الأضرحة و الزوايا بمدينة الجزائر فقد كان الأشراف و " المرابطون" أو " الأولياء الصالحون " من بين الفئات المؤثرة في المجتمع فالأشراف مثلا كان لهم دور كبير في مدينة الجزائر حيث أن نقيب الأشراف كان من بين الذين يحضرون عند تعيين الباشا الجديد، وفي هذا الصدد نذكر المكانة المرموقة التي حظي بها الأشراف حيث أن الداي محمد بكداش هو الذي قام بتأسيس زاوية خاصة بالأشراف. أما فيما يخص المرابطين أو الأولياء الصالحين, فقد لاحظ العثمانيون مدى تأثيرهم في المجتمع لذل عملوا على كسب ودهم أو على الأقل كسب حيادهم[1].

ولعل أحسن من صور لنا العلاقة بين العثمانيين والمرابطين هو حمدان خوجة عندما قال ".. هكذا نشأت إيالة الجزائر، وشرح الأهالي الى هذا العاهل طبائع الشعب البربري، ويبنوا له نقطة الضعف فيه، أي نصحوه أن يمنح المرابطين ثقة مطلقة لأن ذلك يمنع الجميع من أن يقفوا موقفا معارضا.."، الى أن يقول "... ومن ذلك الحين لم يكتف الأتراك بأن فرضوا على أنفسهم احترام هؤلاء المرابطين وإنما صاروا يقدمون لهم أكبر الامتيازات، وأثمنها وصارت أماكن سكناهم وأضرحتهم يعد الموت مقدسة، كما أن القانون لا يمس كل من لجأ إليها ..."[2].

وقد انعكست هذه العلاقة على نمو الأضرحة خاصة في مدينة الجزائر حيث أن وفاة المرابط أو الولي الصالح ترافقها بناء ضريح لتخليد ذكراه، ويصبح هذا الضريح مزارا، وما يؤكد هذه السياسة هو مساهمة الداي عبدي باشا في صيانة ضريح عبد الرحمان الثعالبي سنة 1730 م مما خلد ذكره في إحدى الكتابات عالي حائط الضريح.

وتبين عملية نقل جثمان محمد بن عبد الرحمن " بوقبرين" من بلاد القبائل الى الحامة طبيعة العلاقة بين العثمانيين والأولياء فبعض المؤرخين يرجعون عملية نقل جثمان هذا الولي إلى

[1] BOYER .P, Contribution à l'étude de la politique religieuse des turcs dans la régence d'Alger (XCVI-XIX siècles). In revue de l'occident musulman et de la méditerranée, 1 Semestre, 1966.

[2] FILALI.K, (Sainteté maraboutique et mysticisme « contribution a l'étude du mouvement maraboutique en Algérie sous la domination ottomane »), Insaniat, N 03, hiver 1997.

خوف العثمانيين من جعل القبائل لضريحه منطلقا لثورة ضدهم[1]، ولتحديد علاقة ودور العثمانيين في نمو ظاهرة الزوايا والأضرحة لابد من ذكر الأوقاف في هذا العهد، حيث أن العثمانيين عرفت تكاثر الأوقاف وانتشارها في مختلف أنحاء البلاد منذ أواخر القرن 16، وحتى مستهل القرن 19 والتي اتصفت أساسا بازدياد نفوذ الطرق والزوايا و تعمق الروح الدينية لدى السكان[2]، أدى هذا إلى ظهور ما أصبح يعرف بالمؤسسات الخيرية في مجتمع مدينة الجزائر[3]، ونفوس حكامها بدافع الورع والتقوى والتقرب إلى الله، أو سعيا للحصول على تأييد السكان المحليين[4] وما يؤكد هذا ما قاله أبو راس الناصري عند حديثه عن عبد الرحمن الثعالبي حيث قال"... ودفن بالجزائر فوق طريق باب الوادي و قبره في غاية التعظيم والتنويه عند ملوك الجزاير...[5]، وقد أسهم الحكام في تأسيس أوقافا لصالح بعض الأضرحة، منها الوقفية التي قام بتأسيسها الداي أحمد لصالح ضريح عبد الرحمن الثعالبي سنة 1222 ه/1807 م، تتمثل هذه الوقفية في مخزن مع حانوت وقد جاء عقد تأسيس هذه الوقفية على هذا النحو:" حبس المعظم أحمد باشا بالجزائر جميع جلسة الحانوت مع جميع جلسة المخيزن الراكبة عليه الكاينة بناحية باب عزون المسامتة لزنقة الصراف قرب الخراطين ومجاورة لحانوت الحفاف, على خمسة عشر شخصا يقرؤون في كل ليلة الجمعة ختمة من كلام الله داخل قبة ضريح الشيخ سيدي عبد الرحمن ويكون الوكيل المتولي أمور القبة كواحد منهم والمتولي تفرقته على يده...[6].

وقد كان من الأمور التي توضح العلاقة بين الأضرحة والزوايا من جهة والعثمانيين من جهة أخرى هو تاريخ بنائها، لكن من المنطقي أن يكون تاريخ بنائها مرافقا لزمن وفاة الولي، ورغم أهمية هذا المعيار إلا أنه لم يكن كافيا باعتبار أن بعض الأولياء نجهل تاريخ وفاتهم، والشيء الأكيد أن جلهم توفي في الفترة العثمانية ومنهم محمد الشريف الزهار المتوفي سنة

---

(1) حليمي عبد القادر، مدينة الجزائر نشأتها وتطورها قبل 1830، دار الفكر الإسلامي الجزائري، 1972 م، ص 239.

(2) مولود قاسم نايت بلقاسم، (الوقف ومكانته في الحياة الاقتصادية والاجتماعية بالجزائر أواخر العهد العثماني وأوائل الاحتلال الفرنسي)، مجلة الأصالة، منشورات وزارة الشؤون الدينية، الجزائر، جانفي- فيفري سنة 1981، ص 89.

(3) AUMERAT,(Le bureau de bienfaisance musulman),in revue africaine, Tome 44.

(4) سعيدوني ناصر الدين، النظام المالي للجزائر في الفترة العثمانية (1830-1800م) الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1979، ص143.

(5) أبو راس الناصري، عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، مخطوط تحت رقم 3323، المكتبة الوطنية الحامة، الجزائر، ورقة 49.

(6) بيت المال والبايلك، علبة 16، سجل 100، ورقة 49.

948 ه/1542م، ووالي داده المتوفي سنة 961ه/1644 م، وغيرهم من الأولياء ولاشك أنه بعد وفاتهم أقيمت لهم أضرحة مما يبين أن العدد الكبير من الأضرحة ظهر في الفترة قيد الدراسة وفيما يخص الزوايا ونقصد هنا المؤسسات التي لا تضم ضريحا فقد تأسس أغلبها في الفترة قيد الدراسة، فمثلا زاوية الجامع الكبير أسست سنة 1039ه/1629 م، أما زاوية الشرفة فقد أسسها الداي محمد بكداش سنة 1121ه/1709 م.

لقد لعب العثمانيون دورا كبيرا في تزايد عدد الأضرحة والزوايا بالجزائر وذلك بطريقة مباشرة بتأسيس بعضها، أو بطريقة غير مباشرة كالمساهمة في صيانتها وتشجيع الوقف لصالحها، والأشراف على تعيين وكلائها.

10- ظاهرة بناء الأضرحة وتقديسها (رؤية اجتماعية):

10-1 فهم ظاهرة تشييد الأضرحة وتقديسها ببعدها الاجتماعي:

يختلف كل علم عن الآخر برؤيته التحليلية التفسيرية للظواهر الكونية والاجتماعية والطبيعية، كما أن مدرسة فكرية، كذلك لها وجهة نظرها، وزاويتها الخاصة التي تنظر منها لتلك الظواهر ومن ثم تفسيرها وتحليلها واسباغ وجهة النظر المقاربة عليها. فعلم كعلم اللاهوت مثلا لا ريب يختلف في وجهة نظره، ومنطلقاته الفكرية والتصورية في تحليل وتفسير الظواهر سواء كانت ظواهر كونية او طبيعية او اجتماعية او نفسية عن باقي العلوم والفلسفات الإنسانية، وهكذا في علم الاجتماع، الذي يتناول نفس تلك الظواهر ولكن بأدوات فكرية وزوايا بحثية، وأشكال اجتماعية علمية لا غير ولا ضرورة بشكل عام (على هذا الأساس) تحتم أن تتناقض و تتضارب كل هذه الرؤى التي تنظر وتدرس ببحث المشهد و خاصة الاجتماعي منه من زوايا مختلفة لتطرح لنا عدة تحليلات وتفسيرات متنوعة لظاهرة واحدة محددة.

فعلم اللاهوت الإسلامي الديني وغير الإسلامي، عندما يتناول ظاهرة اجتماعية كظاهرة بناء القبور وتشييد أضرحة العظماء لاسيما أمثال الرسل، وأئمة الدين، وإسباغ نوع من التقديس لأرواحهم الحاضرة وإدامة تخليد ذكراها، وتجديد بعث الحياة والحركة الاجتماعية فيها ولابد

أنه سيتناول هذه الظاهرة من خلال أدوات هذا العلم وأهدافه الأخلاقية العالية ليوظف من ثم هذه الظاهرة إلى عامل الإيمان داخل نفوس المؤمنين بهذا الدين أو ذلك وادامة صناعة رمز التضحية الدينية للمجتمع لحث هذا المجتمع الى التطلع لبناء المثل الأعلى[1].

أما اذا تناول علم الاجتماع نفس ظاهرة بناء القبور وتشييد الأضرحة وتقديس أرواح موتاها و تجديد بعث الروح، والحركة الاجتماعية الطقسية حولها فإنه ولا ريب يحاول دراسة هذه الظاهرة من خلال أدواته العلمية الاجتماعية ليبحث عن أسبابها الاجتماعية وما تقوم به من وظائف سوسيولوجيا في تماسك المجتمع أو تفكيكه لا غير.

ومن هذا المنطلق اختلفت الأهداف، والوسائل في أدوات العلوم ومادتها البحثية فاختلفت التحليلات والنتائج، ففي علم الاجتماع تدرس ظاهرة بناء القبور وتشييد أضرحة القادة والعظماء من بني الإنسان وإسباغ نوع من الاحترام وترميز ذكراها بطقس قدسي على أساس أنها ظواهر كانت ولم تزل منتجا اجتماعيا وظيفتها الأساس وهدفه الأكبر هو دعم التماسك الاجتماعي من جهة و تجديد روح النشاط لحركة واستمرارية حيوية المجتمع من خلال الاحتفالات الجماهيرية الكبرى وما تجدده من شعارات وأهداف فكرية وسياسية واقتصادية واجتماعية ومن جانب آخر أي وكما هو مدروس اجتماعيا منذ تأسيس علم الاجتماع وحتى اليوم فإن مداميك أي مجتمع إنساني قائمة على بنيتين:

الأولى: البنية الثابتة (استاتيك) التي من خلالها يتماسك المجتمع ويحافظ على وجوده من التفكك ومن ثم الاضمحلال والانقراض.

الثانية: وهي البنية المتحركة(انستاتيك) التي توفر الحركة والتطور والفعل والبناء والتجدد والنشاط...الخ، وعدم الوقوع في الجمود و من ثم الموت المحقق لهذا المجتمع.

ومن هنا، فعلم الاجتماع يدرس جميع ظواهر المجتمع الانساني على أساس هذين القانونين يعالجان بطبيعة الحال اشكاليتين ترتبط فيهما حياة المجتمع أو موته ولذلك تدرس ظاهرة بناء القبور وتشييد أضرحة الموتى وترميزها قداسيا على أساس هاتين الاشكاليتين وما تمثله هذه الظاهرة من معالجة لقانون(الثابت و المتحرك) داخل منظومة وانساق المجتمع الانساني.

2-10 الوظائف الاجتماعية لظواهر تقديس الأضرحة:

[1] حميد الشاكر، مجلة كتابات، http://www.kitabat.com/print/33129.php.3

لا ريب أنه ليست هناك ظاهرة متجذر داخل بنية أي مجتمع إنساني تاريخيا وحتى اليوم، دون أن يكون لهذه الظواهر متطلبات وحاجات اجتماعية تفرض من وجودها والقيام بوظيفتها الاجتماعية. فالجسم الاجتماعي الإنساني لا يختلف كثيرا وخاصة في المدرسة الوظيفية لتالكوت عن جسم الإنسان، قوانين وظائف أعضائه الفسيولوجية التي تناهض بطبيعتها القانونية أي ميكروب أو فيوس غريب أو مؤذي يحاول اختراق، أو اقتحام هذا الجسم الإنساني من الخارج ولسوف يجابه أي مكروب غير متوافق مع حاجات ومتطلبات وصحة هذا الجسم الإنساني بمقاومة من قبل قوانين هذه الأعضاء الفيسيولوجية، للحفاظ على سلامة الجسم حتى إخراج هذا الطارئ من جسم الإنسان تماما[1].

وهكذا الجسم الاجتماعي أيضا فهو لا يقبل سوى الظواهر الاجتماعية السلوكية، أو الفكرية وخاصة على المدة الطويلة تاريخيا التي تساهم بسلامته واستمراره وديمومته وصحته والمتوافقة مع متطلباته وحاجاته المادية والمعنوية والنفسية والتربوية الحقيقية ولو فرض أن دخلت بعض السلوكيات أو الأفكار الشاذة كظاهرة انتشار الجريمة أو فكرة التخلص من نظام الأسرة أو ظاهرة الفوضى... على قوانينه وبنيته الاجتماعية فسرعان ما يقاوم هذا الجسم الاجتماعي هذه المكروبات الاجتماعية للتخلص منها بأقرب وقت ممكن، وهكذا القول في حال تعرض الجسم الاجتماعي الى فقد عنصر من عناصر صحته الاجتماعية فسرعان ما يعوض هذا الجسم الاجتماعي ما يحتاجه من دماء وسوائل ... تعتبر من الضروريات لديمومة حياة المجتمع وقوته وحركته. وعلى هذا الأساس تقرأ الظواهر المجتمعية في توافقها وحاجة المجتمع لها أو في تنافرها ومضرتها لكيان المجتمع لاسيما تلك الظواهر التي أثبتت التجربة الاجتماعية التاريخية أنها ظواهر أصيلة ومتجددة ومتوافقة مع روح المجتمع وجسمه المادي الاقتصادي والسياسي والتربوي ..الخ، كما هو حاصل بالفعل في طقسية تشييد الأضرحة وترميزها قداسيا وصناعة الاحتفاليات السنوية حولها وفي المجتمعات الإسلامية لقادة الدين أو الأولياء الصالحين المباركين أو غير ذلك.

10- 3 الأضرحة والعمل الاجتماعي الميداني:

[1] حميد شاكر، مرجع سابق.

اختلفت في الحقيقة التفسيرات والآراء الفكرية والتحليلات الاجتماعية والدراسات الميدانية ونتائجها العلمية، التي تتناول دراسة وبحث ظاهرة بناء الأضرحة وترميزها قداسيا لقادة الدين من أنبياء وأئمة وأولياء مباركين في المجتمعات العربية، والإسلامية وخاصة منها المجتمعات الزراعية الحضارية المستقرة، أو التي تملك ثقافة الحضارة الزراعية المستقرة كالعراق ومصر وإيران والمغرب العربي ...الخ، وباقي الشعوب التي نمت وتطورت داخلها ظاهرة الأولياء وتشييد أضرحتهم المقدسة، وانجذاب الاجتماع لهم وإقامة الاحتفاليات الجماهيرية الحاشدة بمواليدهم أو وفاتهم السنوية.

طبعا هذا الاختلاف في التفسيرات والتحليلات الاجتماعية لا يخلو من مؤثرات كذلك بيئية واجتماعية بطبيعتها وربما تصل هذه المؤثرات في دراسة وبحث هذه الظاهرة الى مسخ الرؤية العلمية لعلم الاجتماع، والأخذ بالرؤية اللاهوتية لاسيما الرؤية الرعوية الوهابية في العصر الحديث المنغلقة التي تدرس هذه الظواهر مما يجعلها رؤية تنفر بطبيعتها الرعوية التي هي كما أشرنا لها سابقا ثقافة تفتقد للجذر الثقافي المديني والزراعي المستقر، الذي ينتج هذه الظواهر مما يجعلها رؤية تنفر بطبيعتها الرعوية وهكذا الدينية العقائدية من موضوع الروح وما بعد عالم الأحياء المادي والطقوسية التي تترتب على هذه الظاهرة ومن ثم النفور من كل ما هو تاريخي وحضاري اجتماعي بشكل عام. ومن هنا علينا أن نلحظ ونرصد بدقة التفسيرات والتحليلات العلمية الاجتماعية اهذه الظواهر والتحليلات والتفسيرات المتأثرة بعناصر التفكير اللاهوتي الرعوي[1].

الذي حول كل جذره الثقافي الاجتماعي إلى المعتقدي الديني لنظر ويحلل ظواهر المجتمع المدنية لاسيما ظواهر تشييد الأضرحة وترميزها قداسيا ..الخ، على أساس أنها ظواهر ضد الدين ومعتقده التوحيدي، ولا تختلف عن عقائد الوثنية بينما تحليلات وبحوث علم الاجتماع العلمية العكس في أن تكون تحليلات الفكر التجريدي هي الحاكمة في تفسير الظواهر الاجتماعية.

إن أهم الوظائف الاجتماعية تقوم بها ظاهرة الولي والضريح والمقدس والمبارك...الخ تاريخيا وحتى اليوم هي الوظيفة الجغرافية التي تذهب من خلال ثقافة المجتمع الشعبية

[1] حميد شاكر، المرجع السابق.

القداسية الى أن هناك حماية مباركة تحل في المكان الذي يرقد فيه الولي أو المبارك بضريحه المقدس اجتماعيا. لذا ومن هذا المنطلق يحوز ضريح المقدس، وفي أي مكان يحل فيه اجتماعيا عربيا أو إسلاميا أو حتى إنسانيا أما جغرافيا يتسع قطرها الجغرافي أو يصغر حسب ثقل الولي قداسته أو المكان المقدس وأهميته كالقداسية المكانية الجغرافية لمكة أو ضريح الرسول أو الفاتيكان أو القدس ...الخ في العصر الحديث بحيث أن الضريح وقداسته ربما يتسع قطر بركته ليعم مدن اجتماعية وحضرية كبرى كمدينتي النجف وكربلاء في العراق، لتشمل حمايته ورعايته وبركته، كل المكان الجغرافي المحيط به ليصبح المحرم والطاهر والمحمي هو المهيمن اجتماعيا في هذا المكان المقدس، وعادة ما يعبر هذا المكان اجتماعيا إلى كل ما هو طاهر، ونزيه ونقي وهكذا حتى في الطبيعة، وجميع مواردها الاقتصادية الحيوانية والزراعية وتطغى عليها لغة البركة التي يسبغها صاحب الضريح بكل سلطته، ونفوذه المعنوي على اتبعته على هذه الأشياء الطبيعية فالزروع، والأشجار والطيور والدواب.. الخ محمية ببركة هذا المقدس الجغرافي، وكذا الأشياء القذرة والذنوب المدنسة أيضا هي محرمة وممنوعة ومدانة اجتماعيا في قطر هذه الأماكن المقدسة. وبهذا تصبح ظاهرة الضريح، وتشييده وترميزه بالقداسة والطقسية الجماهيرية كأنما هي بئرة يصنعها المجتمع هنا وهناك لتخفف من وطئه وضغط المكان المدنس والمتزاحم والمتوتر. الخ داخل حياة الاجتماعية الإنسانية، التي لا يمكن لها أن تستمر، بدون هذه النوافذ والأماكن النقية بأجوائها المكانية والطاهرة بجغرافيتها، والتي تقوم بوظيفة تنقية هواء المكان الاجتماعي وفضائه وتغيير أنفاسه الملوثة واطمئنان قلبه المتوتر والمشغول والمخنوق تحت وطأة حياة المدينة، وعتمة سقوفها الخانقة، ومعتركها السياسي والاقتصادي الكئيب.

10-4- **الوظيفة النفسية**: مخطئ من يعتقد أن سبب أو أسباب نشأة ظواهر الولي والضريح والزيارة والتبرك، أو حائط للمبكى عند اليهود أو غرفة الاعتراف المصاحبة لكل كنيسة، هي أسباب تعود بكليتها الى الاعتقادات الشعبية، التي تعتمد فقط على طلب الشفاعة الدينية من الله سبحانه أوان هناك اعتقادات ساذجة وغير معقلنة اجتماعيا هي التي صنعت مثل هذه الظواهر القداسية تاريخيا وحتى اليوم داخل المجتمع [1].

[1] حميد شاكر، مرجع سابق.

بل أن التحليل الاجتماعي السليم لهذه الظاهرة يدلل بشكل لا ريب فيه أن الحاجات الفكرية والسياسية والاقتصادية وكذا النفسية والتربوية الاجتماعية ايض، وخاصة في قطاعات المجتمع الفقيرة والمعزولة والمهمشة والمقهورة والتي تشكل غالبية المجتمع الإنساني منذ خلق البشرية حتى اليوم هذه القطاعات وبما فيها أيضا قطاعات وطبقات أرستقراطية ليست بفقيرة وتتنوع حاجاتها النفسية أيضا هي التي صنعت مثل هذه الظواهر القداسية في بث الشكوى للولي وطلب الحاجة لتكون مادة تفريغ نفسية اجتماعية وعاطفية وحاجات يملئها هذا الطبيب النفسي المجاني، الجالس والقابع في زاوية كل مدينة من مدن الاجتماع الإنساني أو زاوية أو كنيسة أو معبد أو حتى في كوخ في مجاهل إفريقيا، لاسيما تلك المدن التي تفتقد فيها تماما حاجات الإنسان الضرورية وتشتد فيها أكثر قسوة المجتمع وتدافعه وفقدان روح التكاتف والتعاون الاجتماعية من داخله.

إن بث الشكوى والتفريغ من هذا الاحتقان النفسي الفردي والجماعي الذي تفرضه حياة الاجتماعية الإنسانية وحاجاتها بالقرب من الولي وضريحه لا تقوم بوظيفتها الفردية لا غير بل هناك وظيفة التوازن أو الضبط الاجتماعي أو وظيفة تفريغ الاحتقانات المتفجرة داخل المجتمع والتي تضبط من انفلات المجتمع الكارثية والتي بطبيعتها لا تقبل بغير سد حاجاتها وملئ رغباتها المتطلعة دوما لأكثر مما تسمح به طبيعة الحياة الإنسانية الاجتماعية وهكذا تبدو هذه الظاهرة في صناعة الولي وضريحه وقداسته وبث الشكوى وتفريغ الاحتقانات النفسية بالقرب منه هي ظاهرة منسجمة تماما مع روح المجتمع الحضري المدني المستقر المليء بالضغوطات النفسية السياسية والاقتصادية والاجتماعية كما أن هذه الظاهرة في جانبها النفسي أيضا ترفد قوى القانون والضبط والتوازن المجتمعي الأخرى في التخفيف من وطأة الضغوطات الاجتماعية. نعم ربما هناك فلسفة اجتماعية تاريخية أخرى في الاتخاذ من الولي أو النبي أو الإمام أو القديس .. طقسا بعد وفاته وليس إبان حياته بين الأحياء وهكذا يقال في ظاهرة غرفة و هكذا يقال في ظاهرة غرفة الاعتراف أو حائط للمبكى وبث الشكوى والتطهير من الذنوب والتخفيف من حمل أعباء الخطايا وباقي جرائم السلوك الإنسانية وربما حسب اجتهادي الشخصي إن أفراد المجتمع الإنساني وحتى في هذه القضية الخصوصية بالذات فهم لا يثقون بإفشاء أسرارهم وشكواهم التي تعتبر نقاط ضعف يمكن أن تدمر حياة

الإنسان قانونيا وأخلاقيا ومجتمعيا حتى للولي إبان حياته ولذلك هم يتخذون منه جثة هامدة لا يمكن أن تفشى أي سر يفضى به إليه قدسيا وموضعا للتنفيس النفسي والروحي ميتا أكثر من اتخاذه لهذه الوظيفة الاجتماعية حيا ونفس الشيء يقال في اتخاذ حائط للتفريغ النفسي أو الاختباء خلف غرفة تحجب شخصية الإنسان وهويته، لتكون معبرا الاعترافات الجنائية والتطهير من تبعاتها النفسية والروحية والأخلاقية[1].

5-10 صناعة الرمز الاجتماعي:

ليس هو جهلا، أو اتكالي أو شركا بالله سبحانه، كما أنه ليس كسلا أو عجزا ..الخ أن يقيم المجتمع هذه الرموز الطقسية في زيارة ولي أو امام أو نبي أو مقدس يعرف عن حياته قبل وفته الإخلاص والتفاني والشجاعة والنجدة للآخرين شم وبعد رحيله من هذه الدنيا يجدد المجتمع ذكراه ليدعم روح فكرة هذا النموذج الذي يحتاج المجتمع وإحياءه لمثل هذه النماذج الشخصية الإنسانية المضحية والمحبة للمجتمع والمتفانية في سبيل خدمته بالمجان، فالتكريم، والاحتفاء بشخصية إنسانية رحلت عن هذه الحياة وتركت فراغا في شغل موقعها الاجتماعي الديني أو السياسي أو الاقتصادي .. وخاصة داخل المجتمعات التي يكون فيها الدين محور للحياة الاجتماعية كالمجتمعات العربية الإسلامية ليس تعبيرا عن كسليه اجتماعية واتكالي بقدر ما هي تعبير عن مادة تعويضية يحتاج المجتمع لتجديد إنتاجها في حياته المعاشة، فالولي والاحتفال بموته أو ولادته وبناء وترميز هذه الاحتفالية بالطقسية الدينية لم تكن هي ظاهرة متوجهة للولي بصورة مباشرة أو الإمام أو للتقرب الله سبحانه وتعالى بقدر ماهي ظاهرة يحاول المجتمع من خلالها، الحث على إعادة إنتاج هذه النماذج المجتمعية من جديد حسب مقاييس النموذج الاجتماعي الذي يعمل لخدمة المجتمع ومرضاة الله بدون أن يكون هناك مقابل مادي لخدمات وتضحيات هذا النموذج أي أن صناعة الرمزية الاجتماعية، التي تتجسد بهؤلاء الأولياء أو القادة هي التي دفعت المجتمع تاريخيا وحتى اليوم لصناعة ظاهرة التكريم، وإعادة الطقسية الاحتفالية السنوية بالولي أو الإمام ليكون هناك ظاهرة تعيد إنتاج نفسها زمنيا بنفس الوقت التي تعيد إنتاج إحياء في المقابل لرفد حياة المجتمع بالرمز النموذج الذي يحمل أعباء العناية للمجتمع حيا والحفاظ على كرامته والدفاع عن مظلميه والمحتاج في

[1] حميد شاكر، مرجع سابق.

داخله. وبهذا يكون المجتمع استطاع أن يحول ظواهره الى مصنع لإعادة إنتاج الحياة الاجتماعية بكل ما تحتاجه من مفردات إنسانية تعيد نشاط فكرة الرمز بشكل تربوي بغطاء ديني وقداسي ناعم يتبقى هناك أكثر من ذلك في قراءة ظاهرة بناء وتشييد الأضرحة وتقديسها في الرؤية الاجتماعية عزفنا عن ذكرها بعد الإطالة[1].

10-6- علاقة الضريح بالنسق الميثولوجي :

الأسطورة تدور حول محاور تفسر الكثير من الظواهر الطبيعية والاجتماعية، وتضع الناموس والقانون والقيم الاجتماعية التي شكلت الجانب الفكري في الحياة القديمة التي استمر منها الشيء الكثير كموروث شعبي فالأسطورة تعتبر من أهم أشكال الأدب الشعبي بل أهم أشكال التعبير القولي في الدب الشعبي فهي ليست قصة عادية تروى حكاية يتناولها الشعب في أمسياته لتمضية وقت الفراغ بل إن الأسطورة بقوامها المتكامل المستوعب للكلمة والحركة والإشارة وتشكيل المادة هي اجتماع التفكير والتعبير عن الإنسان في مراحله البدائية والقديمة، يعرف معجم فونك الأسطورة على أنها قصته تبدو وكأنها حدثت فعلا في زمن سابق وتفسر العقائد الميتافيزيقية، وما وراء الظواهر الكونية الطبيعية والآلهة والأبطال والسمات الثقافية والمعتقدات الدينية[2].

فضريح سيدي الشيخ يتضمن واقعا تاريخيا يشكل مزيجا من التاريخ والأعمال الخارقة التي تنسب إلى الرجل الذي يجمع ما بين الصفات الإنسانية والقدرات الآلاتية والذي بما له من صفات إلاهية يحاول أن يصل إلى مصاف الآلهة ولكن صفاته الإنسانية تشده دائما الى العالم الأرضي وبمختلف الحكاية بمكان وبشخص والتي تتسلسل، لذلك يعتبر فيكتور تيرن بأن المقصود بالأساطير هو تحديد القصص المقدس المتعلقة بالمخلوقات المقدسة أو بالأبطال المقدسين أشباه الآلهة، هذا بالإضافة إلى القصص الأخرى الخاصة بنشأة وأصل الأشياء من خلال عمل هذه المخلوقات المقدسة اشباه الآلهة هذا بالإضافة إلى القصص الأخرى الخاصة بنشأة واصل الأشياء من خلال عمل هذه المخلوقات المقدسة وهذا يظهر جليا في كرامة الولي الصالح التي بانت منذ ولادته وكما رأينا سابقا في مونوغرافيا الولي الصالح

---

(1) حميد شاكر، المرجع السابق.

(2) كمال الدين حسين، التراث الشعبي في المسرح المصري الحديث، ط1، دار المصرية اللبنانية، القاهرة ،1993، ص 27.

والأساطير سواء كانت قصصا تاريخية أو للخوارق حدثت في زمن غير معروف أو كانت قصص حقيقية او غي حقيقية فإنها تحكي على أنها حقيقة.... الآن رغم هذا الاختلاف نجد أن معظم الأساطير ترتبط إلى حد كبير بالطقوس أو الشعائر وتعتمد على الرمز والطقس الذين يعتبران دعامتين أساسيتين في التكوين الأسطوري. والطقس هو الأصل في نشأتها والأسطورة وصف للطقوس وللحكاية التي ترتبط بها[1].

فثمة ارتباط وثيق وقوي بين الأساطير والشعائر كما يرى مالينوفسكي، يصل إلى درجة اتزان الأسطورة بالشعائر التي تمثلها وفتلك الشعائر والطقوس ذات محل إيمان بدون نقاش واعتناق من دون تردد لدى جميع الإفراد والتي تحمل في طياتها خبرة الفرد الحياتية وما يتعلق بها من أفكار وتصورات تحمل على حفظ توازنه داخل الجماعة وتشكل المضمون الخفي للأفكار الجمعية والتي تشكل كما يقول يونج " اللاشعور الجماعي لديه" والذي يعني في تحليله النفسي ذلك الخزان الذي ينطوي على الآثار الخفية من الموروث الإنساني عبر التاريخ البشري وهو خبرة إنسانية عامة كما انه مركز الصور الأسطورية التي تشكل المضمون الحي للأفكار الجماعية وتستفيد الأسطورة صفتها الجمعية من جماعية خلقها وإبداعها فنحن لا نصادف في الفكر الأسطوري اعترافات شخصية إذ تعني الأسطورة تجربة الإنسان الاجتماعي وليس تجربته الشخصية وأيضا باعتبارها جزء من الحقيقة الاجتماعية التي بتعايشها الناس ويتفاعلون معها ويعبرون عن أنفسهم من خلالها طبقا للتكوينات الرمزية التي تتضمنها الأسطورة وطقوسها التي تساعد على اتصال الجماعة بعضها البعض بما تحمله من دلالات ومعان تتفق عليها الجماعة وتلتزم بها[2].

[1] كمال الدين حسين، المرجع السابق، ص 26.
[2] كمال الدين حسين، المرجع السابق، ص26.

تمهيد:

يقول محمد قسطاني: "تعتبر الزاوية مؤسسة تواصل بين الأفراد والجماعات... فهي المتنفس الثقافي والأمني والديني للأفراد والجماعات صعودا وهي تعريف السياسة المخزنة نزولا وتلعب الزاوية هذا الدور نظرا لطبيعتها المزدوجة، ثقافة عالمة فقهية سنية مزرية وثقافة شعبية رمزية طقسية صوفية عجائمية تؤثر في العقل المستعد الانقياد وفي الوجدان[1].

1- ظهور الزوايا وتطورها:

نشأ نظام الزوايا بالمغرب الكبير بعد القرن الخامس الهجري إذ سميت في بادئ الأمر "بدار الكرامة" كالتي بناها الخليفة يعقوب المنصور الموحدي في أواخر القرن6 ه/12م بمراكش ثم أطلق المرينيون على الزوايا التي بنوها في عهدهم في القرن 7-8ه/13-14م اسم "دار الضيف" ومن ذلك الزاوية العظيمة التي أسسها السلطان أبو عنان المريني خارج مدينة سلا في منتصف القرن 8ه/14م. وزاوية "سلا" في نفس التاريخ قرب مدينة الرباط التي دفن فيها السلطان أبو عنان والده ابا الحسن وزارها لسان الدين بن الخطيب، وخطابه فيها بخطبته الشهيرة في تاريخ الأدب العربي[2] على أن مصطلح "الزاوية" ظهر في المغرب حوالي القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي)مرادفا للرباط، أي الصومعة التي يعتزل فيها الولي ويعيش وسط تلاميذه ومردييه مع ذلك فإن الزاوية ليست في جميع الأحوال مكان الرباط الذي يخدم غرضا آخر كان له في بادئ الأمر طابع حربي ارتبط بالنشاط العسكري في المغرب الأقصى[3].

وجدير بنا في هذه المناسبة أن نشير الى رواية "اين مرزوق التلمساني" المتوفي عام 781ه/1379م الذي خص الفصل الثاني والأربعين من رسالته عن "أبي الحسن علي المريني المسماة المسند الصحيح الحسن"، خصه للكلام عن الزوايا التي شيدها هذا السلطان وقد ذكر التلمساني أن الزاوية هي ما يعرف في الشرق باسم الرباط أو الخانقاه و "خنقاه كانت تطلق بصفة خاصة على المنشآت الصوفية التي يرد أصلها بصفة عامة الى التصوف

---

(1) بن محمد قسطاني، "فكر ونقد ، ملف اللغة العربية"، العدد 24 سنة 1999، ص 46.
(2) محمد نسيب، زوايا العلم والقران الجزائر، دار الفكر الجزائر، 1989، ص30.
(3) ليفي بروفنسال، "الزوايا دائرة المعارف الإسلامية، ترجمة أحمد الشنتاوي وآخرين"، المجلد10، القاهرة 1933، ص332.

الإسلامي، وبهذا يتضح الفرق بين الرباط ذي النشاط العسكري، والرباط الذي اعتبر الزاوية ذات النشاط الديني التربوي والتعليمي في آن واحد ولاشك في أن الرباطات الأولى قد نمت سريعا لتصبح أماكن يفزع إليها الناس لتحقيق أمنهم الدنيوي إلى جانب كونها أصبحت أيضا مراكز تستهوي قلوب الناس ومدارس دينية في آن واحد، كما أصبحت إلى حد ما دور ضيافة مجانية، يقصدها الرحالة الذين يبحثون عن الكمال الروحي وهذا يفسر لنا قول" ابن مرزوق في كلامه عن الزوايا في زمنه: "من الواضح أن الزوايا عندنا في المغرب تأوي المتجولين وتطعم المسافرين"[1].

ولقد ذكر marçais wet G أن السلاطين المرينيين وسلاطين بني عبد الواد الذين حكموا في القرن الرابع عشر الميلادي، إنما قصدوا من إنشاء المدارس المغربية أن تكون اعترافا رسميا منهم بالمدارس الملحقة بالزوايا[2].

ولعل الأرجح أن هؤلاء السلاطين قد حاولوا بمنشآتهم التي أقاموها بجانب المراكز الكبرى للتعليم الديني، وخاصة جامع القرويين بفاس، أن يخففوا الى حد ما من حدة المنافسة التي سببتها مدارس الزوايا في المدن وخارجها[3].

وتطور هذا المفهوم بعد ذلك بالمغرب العربي بأن صارت تعني مؤسسة لرؤساء الطرق الصوفية، يجتمع فيها مريدون لذكر الأوراد إضافة الى كونها مأوى لطلبة القرآن والعلم وبقية الزوار الذين يقصدونهم كما تقدم.

وهكذا تكون في الجزائر خلال القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) مجموعة من الزوايا منها، الزاوية الثعلبية في مدينة الجزائر، والزاوية الملارية في قسنطينة، والزاوية السنوسية بتلمسان وغيرها كثير[4]، وكثر هذا النوع من الزوايا ابتداء من القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) بعد تغير الأوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية في البلاد، بجيئ الاتراك العثمانيين وبسط سلطانهم على البلاد وثم استمرت الزوايا وامتد نشاطها الى سنوات الاستقلال عام 1962.

---

(1) ليفي بروفنسال، المرجع السابق، ص333.
(2) و. ج مارسي، "المباني العربية بتلمسان"، دائرة المعارف الإسلامية، ص 333 .
(3) ليفي بروفنسال، المرجع السابق، ص333.
(4) أبوقاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر، 1981، ص40.

يرجع الفضل في نشأة الزوايا بالخصوص إلى حكمة شيوخها الذين أخذوا في حسابهم البعد المكاني وهذا لتغطية المناطق المفتقرة إلى العلم والإرشاد، ففي السابق لم تعرف الزاوية كما هي عليه.

ففي البادئ ظهرت في المشرق العربي على شكل بيوت كانت ملحقة بالمساجد يتردد عليها العباد والزهاد للانزواء والخلوة فيها ثم تطورت وظهرت على شكل أبنية على أطراف المدن كمصليات صغيرة بدون محراب لإقامة الصلوات.

أما في المغرب العربي فقد عرفت الزاوية تطورا بداية من القرن 13 ميلادي حيث أنشئت الزوايا بهدف تنشد الحركة العلمية داخل المدن وخارجها وعملت على تمسك شعوب المنطقة بدينها مما سعد على صدها للغزاة على مر العصور فبدء بالبرتغاليين ثم الإسبان ومن بعدهم الفرنسيين والايطاليين وكان جل نشاطها في فترات الحرب هو تعبئة أتباعها ومردييها ضد الغزاة الأجنبية، أما في زمن الحرب فكانت تلك الزوايا الهدف منها القيام بأداء رسالتها الدينية الحضارية التعليمية والتربوية، كانت مؤسسة من طرق مشايخ كاملين ورجال متصوفين وعلماء بالله عارفين قصصهم وجهة الله عزوجل لا يريدون من احد جزاء ولا شكور[1].

لقد انتشرت الزوايا بالمغرب العربي بعد القرن 13 ميلادي انتشارا واسعا فهي في المدن والقرى والأرياف على قمم الجبال في أعماق الصحراء وعلى السواحل في الرباطات والمناورات حيت التجأ إليها وقام به أناس ندوا أنفسهم لعبادة الله كانوا فيها حريصين على أمور المسلمين واتبعوا الحديث الشريف للرسول (ص) عينان لا تمسهما النار: عين بكت من خشية الله وعين كانت تحرس في سبيل الله" أما في الجزائر فلقد عرفت عددا هاما من الزوايا أدت دوره على أكمل وجه وأحسن صورة وانتشرت انتشارا واضحا، سواء في الأرياف أو في المدن، وعمت كل جهات[2] الوطن تقريبا خاصة الجهة الغربية والوسط، كما انتشرت في منطقة القبائل انتشارا كبيرا خصوصا بعد الاحتلال الاسباني لمدينة بجاية.

---

[1] عبد القادر الشطي، السلفية الصوفية، مذهب أهل الحق الصوفية، دار هومة، الجزائر ،2002.

[2] أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ص 109 إلى ق 14هـ، ج1، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر (1830-1954).

لقد سجلت الزوايا القرآنية صفحة تاريخي مهمة في الجزائر، وتاريخها السياسي والثقافي والديني بث هذا الدور العظيم الذي قدمته الزوايا في نشر الوعي الديني والثقافي في المجتمع الجزائري منذ نشأتها، فالجزائر لم تعرف الزوايا إلا بعد القرن الخامس هجري، ومع مرور الزمن تطور أمر الزاوية وزادت أهميتها وخاصة خلال القرن العاشر الهجري بعد سقوط الأندلس وامتداد الأطماع الأوروبية إلى السواحل الجزائرية.

أن أقدم زاوية تأسست في الجزائر هي زاوية الشيخ سعادة بالغرب من طولقة في القرن (6هـ-13م) ثم انتشرت الزوايا عبر أنحاء البلاد خاصة خلال لقرنيين (08هـ-15م) والقرن (9هـ-16م) وكان لسقوط الأندلس ولاحتلال الاسباني والفراغ الإداري واسعا السكان لتقبل أي حركة روحية إسلامية لكل ذلك اثر بالغ في انتشار الزوايا[1].

وفي القرن الثامن الهجري (08هـ-14م) انتشرت الزوايا في المغرب وأنشأت بها كتاتيب لتحفيظ القران وتعليم الدين ومبادئ العلوم الأمر الذي أدى بملوك بني مرين إلى أن يطووا الكتاتيب إلى مدارس وكليات لساهموا في الحركة العلمية بجانب القيروان بفاس وغيرها من مدارس الزاوي داخلها وخارجها.

لقد عرفت الزاوية في المغرب لعربي بأنها مؤسسة لرؤساء الطرق الصوفية يجتمع فيها مريد وهم لذكر الأوراد كما كانت تتخذ مأوى لطلبة القران والعلم وبقية الزوار الذين يقصدونها للاستغناء والإصلاح بين لمتخاصمين ، فلقد كانت مسجدا ومدرسة ومعهد للتعليم القرآني والديني ومأوى للطلبة يشيعون في تلك الزاوية بدون مقابل وهي الطهر والتقوى والإصلاح وهي زوايا الحماية الخلقية الإيمانية هي زوايا النصر والقوة والخير المستمر[2].

لقد كانت الزاوية تسمى بدار الضيوف وقيل أيضا أنها عرفت بعد القرن (05هـ) وسميت في بادئ الأمر بدار الكرامة كالتي بناها الملك يعقوب المنصور الموحدي في مراكش[3].

بالإضافة إلى هذا فالزوايا كانت عبارة عن مكان يجد فيه المسلمين (المريدون) الفكرة الدينية التي من خصائصها الجهاد الدائم ضد الكفار (الفرنسيين)، نذكر من بينهم السنوسية في ليبيا ضد الايطاليين المهدية في السودان ضد انجلترا والتيجانية ضد الفرنسيين، والانجليز في

(1) أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء الأول، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر، ص 272.
(2) مجلة الدراسات الإسلامية الصادرة عن مجلس الإسلامي الأعلى، الجزائر، ع2، ديسمبر 2002، ص3.
(3) محمد نسيب، زوايا العلم والقران الجزائر، دار الفكر الجزائر، 1989، ص30.

أفريقيا السوداء وفي الجزائر، حيث كانت القادرية تحد قيادة الأمير عبدالقادر والرحمانية تحت قيادة الشيخ الحداد وأولاد سيدي الشيخ في الجنوب الوهراني وغيرها[1].

إن الزوايا في الأرياف يعود تأسيسها إلى إتباع المرابطين ، ولقد أدت الزاوية في الريف دورا أكثر ايجابية منها في المدينة فكانت رباطان ونقاط أساسية ضد الأعداء ، فكان المرابطون يقودون أتباعهم في الحروب الجهادية وينصرون المجاهدين ويطعمونهم في زواياهم ويتحالفون مع المكافحين من أجل الدين وحماية البلاد.

2- أنواع الزوايا في المجتمع الجزائري:

أ- أنواع الزوايا من حيث الانتساب:

من حيث الانتساب فالزوايا تنقسم إلى:

- **زوايا المرابطين:** فهي للطلبة ونشر العلم واستقبال العزباء والبؤساء والمحرومين الذين يبحثون عن ملجأ أو هي مكان للزوايا الذين يأتون لتقديم التبرعات والصدقات ، كما أن زوايا هذا النوع ليس لها طريقة صوفية تتبعها ومريدين تابعين ، فالمرابطون فيها يعملون دون مقابل على الرغم من فقرهم واحتياجهم[2].
- **زوايا الطرق الصوفية:** وهي قد تكون زاوية الطريقة الأم أو فرع تابع لها وهي ملكية خاصة ونظامها يشبه النظام الملكي الوراثي، حيث يكون الشيخ هو المشرف والمسئول المباشر في كل شيء والطريقة لها طريق الوصاية التي يتركها الشيخ أو تختاره عائلة الشيخ وفق شروط خاصة.
- **الزوايا المنسوبة:** وهي زوايا منسوبة إلى شخص ميت تقدسه العامة وتحب الذاكرة ذاكرة وهو مدفون بالزاوية وتنتسب إليه وفي هذه الحالة تأتي العامة إلى هذه الزاوية زائرة وطالبة للبركة لا للعلم والإحسان أي زيارة الأضرحة[3].

ب- أنواع الزوايا من حيث الموقع:

هناك من العلماء من يفرق بين نوعين من الزوايا وهي زوايا الأرياف وزاويا المدن.

---

(1) صلاح مؤيد العقبي، الصوفية في الجزائر تاريخها ونشاطها، بيروت، 2002، ص 312.
(2) محمد نسيب، زوايا العالم والقرآن في الجزائر، المرجع السابق، ص 106.
(3) أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص 268.

- **زوايا الأرياف:** تكون مبنية حول قبر المرابط غير معروف كثيرا، وبجد القبر في مكان نقطة إحدى القبائل وفي هذا المكان أحفاظ المرابط، وهذا المجتمع يطلق عليه زاوية وتكون لهذه[1] الزاوية أوقاف كبيرة من أراضي ويتناسب تطعم منها الفقراء والضيوف وحق الزاوية هو العشر (العشور) ومن العادة أن القائم على الزاوية هو حفيد المرابط ومن احتمى بها فهو أمن ومن مهامها التعليم ولا يقوم المرابطون ولا أحفادهم بالأعمال البدوية لأنهم مختصون في التعليم وتربية الأطفال.
- **زوايا المدن:** فالزاوية عبارة عن بناية كبيرة لإيواء المشردين والطلبة والعلماء الغرباء وتتوفر فيها الإضاءة والماء وقد تصبح الزاوية مدرسة عليا إذ تخصص لها ويلحق بها مدرس شهير لتدريس العلوم العالية وتحمل الزاوية اسم مؤسسها أو الحي الموجود فيه، وأحيانا اسم مرابط التابعة له[2].

ج- أنواع الزوايا من حيث الدور الذي تقدمه:

- **زوايا العلم:** وهي من الزوايا التي أسست لممارسة النشاط التعليمي مثل الاعتناء بتحفيظ القرآن وتعليم الطلبة ما يلزمهم من العلوم اللغوية والشرعية والتاريخية والفلسفية ونشر القيم والفضائل الإسلامية، ومن هنا فالتعليم بهذه الزوايا وإن كان بسيطا مقصورا على الدين والأخلاق واللغة العربية فإذ له أهمية كبيرة في تكوين شخصية الفرد المسلم، فالتربية هي أرضية التعليم والسلوك القويم لأهل طرق التربية والتعليم لذلك حرص شيوخ هذا النوع من الزوايا كل الحرص على التعليم بسلوكهم أكثر من التعليم بأقوالهم كما عملت أيضا على إزالة الفوارق الاجتماعية بين الفئات الاجتماعية المختلفة.

وكانت أيضا بمثابة مخازن ودواوين للكتب والمخطوطات في مختلف العلوم والفنون وذلك بفضل اهتمام شيوخها وأتباعها بالنسخ والنقل والتأليف والجمع ونشر الدين الإسلامي في الأماكن التي يصلون إليها خاصة الأقاليم الصحراوية النائية [3].

---

[1] أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر (1830-1954)، ص 109.
[2] أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، مرجع سابق، ص 268.
[3] يحي بوعزيز، مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1999، ص ص 134-135.

- **زوايا السحر:** وتتمثل في بعض الزوايا التي أدت الدور السلبي الذي يبدو جليا في تلك الأعمال التي تجرى في معظمها من الرقص وما يتبعه من التصفيق وضرب الذقون واللعب بالنار والبدع التي أحدثتها ومازالت تحدثها في الدين وهذا الجانب هو الجانب المعيب فيها، هذا النوع من الزوايا هو الذي جلب إلى الزاوية الصالحة الأذى والتجني عليها فأصبح في ذهن الكثير من عموم الشعب أن لفظة زاوية تعني مزيجا من الرهبانية ومن فلكلور مكن الأجهزة والشخصيات ومن سحر وشعوذة لا طائل من ورائها سوى شد الإنسان إلى الوراء[1]، ومن الأمور السلبية أيضا احترام الخلافات والخصومات بين بعض شيوخ هذه الزوايا و في الزاوية نفسها حول بعض القضايا الهامشية وفي بعض الحيان في أعراض شخصية حول النفوذ والمكانة الاجتماعية وامتداد هذا الخلاف إلى التباع والمريدين بالإضافة إلى استلام وتواطؤ بعض شيوخ الزوايا.

د- أنواع الزوايا في الجزائر:

إن تعدد الزوايا بالجزائر سمح بوجود أنظمة مختلفة أدت إلى وجود ثلاثة أنواع من الزوايا وهي:

- **زوايا المشايخ:** وهذا النوع من الزوايا يعتبر ملكية خاصة لسيخ ويتصرف فيها كمال يشاء وبعضهم يعيش هو وعائلته من موارد الزاوية ونظامها يشبه النظام الملكي الوراثي.

وصاحب هذه الزاوية يكون عادة صاحب طريقة، ويعرف عندنا بشيخ الطريقة الذي يعطي الأوراد أي الميثاق ، وهذا الشيخ له أتباع ومريدون ويسمون الإخوان ، والزاوية تقوم على أكتاف هؤلاء المريدون والمحسنين الذين هم يمولون الزاوية ويجمعون لها الزكاة والصدقات والتبرعات من الشعب ويقدمونها للشيخ والشيخ هو المشرف والمسئول المباشر على زاويته وهو صاحب الحل والعقد، فلا حق لأي إنسان أن يتدخل في شؤون الزاوية من قريب أو من بعيد، فالأموال التي تدخل إلى الزاوية تذهب إلى الشيخ مباشرة يتصرف فيها بمعرفته فلا أحد يحاسبه عليها أو

[1] رابح تركي، التعليم القومي والشخصية الجزائرية، ط2، الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص 244.

يراقبه، وهو الذي ينفق على الزاوية ويوفر للطلبة كل حاجاتهم اللازمة، كما يدفع أجر الشيخ (أي المعلم) وهو صاحب الزاوية هو الذي يعين المعلم أو يعزله حين يشاء وكذلك يعين المواد التي تدرس للطلبة[1].

إما عن طريق الوصاية أو تختاره العائلة وترشحه لمنصب الطريقة ويخلف الشيخ الراحل وذلك حسب تقاليد الأسرة وعلى سبيل المثال نجد من زوايا المشايخ في الجزائر زاوية علي بن عمر بطولقة زاوية الهامل القاسمية ببوسعادة وزاوية الحملاوي بقسنطينة وزاوية الشيخ بالكبير بأدرار.

- **زوايا المرابطين:** فهي ملكية جماعية، فمواردها محبسه عن طلبات العلم فالمرابطون أحفاد المؤسس الأول للزاوية لا حف لهم أن يأخذوا واشيا من الأموال من زاوية جدهم والزكاة والصدقات والتبرعات والنذر والهبات سواء كانت نقود أو حيوانات هي للزاوية وحق لطلبة العلم والفقراء الذين يقصدون الزاوية، كما أن زوايا المرابطين ليسلها طريقة صوفية ولا مريدون كزاويا المشايخ.
- **زوايا الطلبة:** وهذا النموذج الوحيد من الزوايا نجده في زاوية سيدي عبدالرحمان اليلولي التي تقع في عرش أيلولة دائرة عزازقة ولاية تيزى وزو، وأسست عام 1635، إن هذه الزاوية تختلف عما سبقتها فطلبتها يتمتعون بالاستقلال التام في تسيير شؤون مؤسستهم فلا يتدخل أحد فيها.

والطلبة وحدهم هم المسئولون عن الزاوية وتدبير شؤونها داخليا وخارجيا علميا واقتصاديا والزاوية بهذا الشكل تكون بعيدة عن أي نوع من الضغوطات أو التدخلات، فهي تسير من طرف طلبتها ولا تخضع لشيخ أو مرابط بل وحتى للشيخ الذي يعلم فيها، فالشيء الوحيد الذي يخضع له الجميع ويمتثلون له ولا يخالفونه أنما هو القانون أي قانون الزاوية، أو ما يمكن أن يطلق عليه باسم اللائحة الداخلية للزاوية[2].

كما تنقسم الزوايا حسب التسمية إلى ثلاثة أنواع:

---

[1] محمد نسيب، زوايا العلم والقرآن بالجزائر، دار الفكر، مطبعة النخلة، الجزائر، 1989، ص 103.
[2] محمد نسيب، المرجع السابق، ص 119.

- زاوية تنسب إلي شخص ميت تقدره الناحية عادة ما يكون شيخ طريقة.
- زاوية تنسب إلى الطريقة الصوفية.
- زاوية تنسب إلى مكان وجودها وهي ما تعرف بالزوايا المطلقة.

3- دور الزوايا في الجزائر:

3-1- دور الزوايا أثناء الاستعمار الفرنسي للجزائر:

كانت الزوايا إحدى أهم النقاط التي انشغل بها الاستعمار الفرنسي نتيجة الدور الوطني الذي كانت هذه المؤسسات تلعبه قبل وخلال الثورة التحريرية، فعلاوة على كونها تلقت تعاليم الدين الإسلامي فإن أئمتها آنذاك كانوا حلقة مهمة في ثورتهم ضد المستعمر وذلك بإعداد الطلبة لخدمة القضية الوطنية، حيث التحق العديد من طلبة الزوايا بصفوف الثورة وأمام هذا الدور الكبير للزوايا لم يتردد الاستعمار في تدمير أغلبيتها وغلق عدد آخر منها وتحويل عدد آخر إلى ثكنات عسكرية تابعة للجيش الفرنسي، كما ذاق لمشايخ الزوايا أقسى أنواع التعذيب ووصل الأمر إلى إعدام بعضهم ورغم ذلك لم يستطع الحد من نشاطها مما جعل البواب مغلقة في وجهه والطرق مسدودة أمامه، ولم يجد منفذ يتسرب منه إلى داخل الأمة المعتصمة بالقرآن والمتمسكة بالإسلام وفكر مرة أخرى كعادته في ضرب زاوية القرآن والثقافة الإسلامية وعمل على طمسها وتشويه سمعتها، ثم القضاء عليها بطرق الحيل والدس والمكر والخداع فاستولى أولا على أموال الأوقاف والأحباش وقطع عنها كل موارد الرزق وجميع المساعدات ظنا منه أنه بهذه الطريقة سيقضي عليها، ومن جهة أخرى استعمل أساليب الترغيب لكسب ودها والتحكم فيها فأصدر مرسوم 12 يونيو 19036م، يقضي بصرف منحة تشجيعية شهرية قدرها 300 فرنك قديم لكل شيخ زاوية أو كتاب يأمر طلابه بتخصيص ساعتين لتعليم اللغة الفرنسية ورغم الظروف الصحية لم يتقدم أي شخص للاستفادة وبالتالي ولد المرسوم حيث بلا شك ولأنه أدرك مدى خطورة هذه المؤسسات ومدى أهميتها في حالة استغلالها أمرت السلطات الفرنسية بجمع كل المعلومات عن المدارس القرآنية التي تثبت مذاهب دينية ومواقف سياسية وعن المشايخ الذين يتولون التدريس فيها ومعرفة أصولهم ومواردهم ومدى نفوذهم وعلاقتهم بمشايخهم وانتشارهم الجغرافي، ورغم ذلك فإن معظم الثورات والانتفاضات الشعبية كانت تنطلق من عدة الزوايا

في ذلك الوقت، فعمد بطريقة أخرى إلى تشويه وتزييف الحقائق وأراد أن يشجع ذوي النفوس الخبيثة والضمائر الميتة والعقول المريضة على إنشاء أوكار الفساد في القرى والمدن يسمونها زوايا البندير والزرادي، زوايا الماكر والضلالة لتسهر على بث الصراعات والانشقاقات[1].

لقد كان أهم ما قامت به الزوايا هو المحافظة على القرآن الكريم، وتحفيظه وحفظه في صدور أبناء المسلمين كتابة ورسما وتلاوة وتجويدا، حتى لا تمتد إليه يد التحريف والتغيير ويتلى في الصباح والمساء في المساجد فردا وجماعة.

الزوايا أثناء الاستعمار الفرنسي لعبت دورا بارزا فقد كانت المصدر الرئيسي الذي مون الثورة بالمجاهدين فبعض الزوايا التحق جل أعضائها بالجهاد بحيث كانت مركزا استراتيجيا ، فالزوايا على اختلاف طرقها من الرحمانية إلى التيجانية إلى القادرية كلها تصب في وعاء واحد وهو الحفاظ على مقومات الأمة الجزائرية عكس ما كان يعتبره بعض المؤرخين وعللا رأسهم لويس رين الذي كان يرى أن حركة الإخوان بأنها حرب دينية مبنية على التعصب الديني والعرفي وكان يقصد بذلك حركة الإخوان الرحمانيين آنذاك ونشاطهم بكثرة وامتداد ثورتهم إلى كل المناطق تقريبا والقبائل الشمالية من الجزائر العاصمة إلى القل وجيجل وبلاتنة وحصار مراكز الفرنسيين وقلاعهم في بجاية ودلس وتيزي وزو في 1865م الأمر الذي أصبح يمثل خطرا كبيرا في فرنسا [2]، حيث أدركت أن ما يقوم به الإخوان الرحمانيين الذين استطاعوا خلال مدة زمنية قصيرة تكوين جيش يمثل أكثر من 120 ألف مجاهد ينتمون إلى 250 قبيلة تتألف من 600 ألف نسمة، ليس الشعوذة أو التعصب الديني أو العرفي وإعلان شيوخ الزوايا وأتباعهم للجهاد وإقدامهم المعركة لا يمثل حدثا دينيا فقط وإنما يتجاوز ذلك إلى غرض سياسي يستهدف خدمة مصالح الشعب المادية والمعنوية.

لقد كان وراء هذه الثورات شبكة تابعة للزوايا التي ينتشر وخلاياها في أصقاع البلاد مما أملي على السلطات الفرنسية آنذاك ضرورة دراسة هذه الخلايا من الزوايا ولفهم هذا الواقع قام العديد من الباحثين بدراسة واقع الشعب الجزائري لمعرفة أسباب ودوافع هاته المقاومات

[1] محمد نسيب، المرجع السابق، ص ص 21-22.
[2] مجلة الأصالة، "الحقيقة عن دور زاوية صدوق والإخوان الرحمانيين في ثور 1871"، عدد خاص 1973، ص 166.

وهذا التحدي وأول دراسة قام بها في الميدان هو دون وفو حيث ألف كتابه بعنوان (الإخوان الطرق الدينية عند المسلمين الجزائر 1845)، وقد أظهرت عدة نتائج توضح خطر هاته المراكز الدينية والطرق الصوفية.

لقد لقيت الزوايا دراسة مستيقظة من المستعمر قصد محاربتها ومحو آثارها في كل الجوانب الفكرية والسياسية والجهادية ومحاولة القضاء على دورها الاجتماعي والتربوي واحتوائها إلا أن هذه السياسة لم تنجح بشكل عام وعرف المجتمع الجزائري أن مصيره مرتبط بمصير هاته الزوايا فهي ذات قداسة روحية بالنسبة له، ولما فهم شيوخ الزوايا المستعمر ومكائده قاموا بمواجهتها بعدة أشكال ومن أهمها لم شملهم وارتباطهم يبعضهم البعض عن طريق إنشاء هيئات وجمعيات لرص صفوفهم ونبذ الفرقة بينهم زمنها جمعية علماء السنة والتي يتم إلا إذا أولى هذه المؤسسات مكانتها اللائقة ومكنها من أداء دورها بأكمل وجه لأنها الصخرة التي تنكسر عليها دسائس ومناكر المستعمر[1].

تأسست في 13 سبتمبر 1932م بحضور ألف شخص من مختلف الطرق الرحمانية والقادرية والتيجانية والعلاوية والشاذلية وقد أعطيت الرئاسة إلى الشيخ المولود الحافظ الأزهري وحاول هذا الأخير احتواء الخلاف القائم آنذاك بين شيوخ الزوايا وجمعية العلماء المسلمين حول وجهة النظر في طريقة عمل الدعوى، بالإضافة إلى ذلك تم تأسيس جامعة الزوايا لشمال إفريقيا والذي انعقد في 15 مارس 1948م بالعاصمة الجزائرية وقد حضره أكثر من 120 رئيس زاوية[2]، من الجزائر وبعض دول الجوار المغرب وتونس وكذلك الجمعية الصوفية التي تأسست سنة 1945م بغليزان وكان العقيد عميروش عضو فيها وهناك الكثير والكثير من الجمعيات وكان الهدف الرئيسي كما ذكرنا سابقا لم الشمل ومحاولة القضاء على انشقاقات داخل المجتمع الجزائري وإعادة الاعتبار لزوايا كمؤسسات اجتماعية تربوية داخل المجتمع الجزائري وهذا ما لم يتقبله المستعمر الذي جند كل الوسائل المملوكة لديه، وخصوصا بعض الباحثين الذين أرادوا أن يحاربوا هذه المؤسسات بالقلم إضافة للوسائل السابقة الذكر ومنهم الباحثان أو كتاب ودينون الذين صرحا في كتابهم "الزوايا

(1) صلاح مؤيد العقبي، الصوفية في الجزائر تاريخها ونشاطها، بيروت، 2002، ص 597.
(2) صلاح مؤيد العقبي، المرجع السابق، ص597.

الدينية الإسلامية في الجزائر" أن المشكل الذي يشكل لنا خطورة وأيضا هو لمصلحة الشعب والتي يجب أن نسيطر عليها ونجعلها تحت تصرفنا، وتقضي عليها الزوايا الدينية ... والطرق الممكنة للقضاء عليها هي محاربة الزوايا الدينية مباشرة أو اضطهاد رئيسا أو يجب إتباع طرق سلمية لكسب ثقتهم وبالتالي جلبهم إلى صفنا.

ولقد وضع الكاتب الطرق التي رآها جيدة للسيطرة على الزوايا نلخصها فيما يلي: علينا أن نعطيهم أحيانا السلطة لكن يجب معاملتهم بحذر دائما وباهتمام قصد كسبهم كأصدقاء ولتحقيق هذا نطبق عليهم الوصية التالية: الموافقة على اختيار المقدمين لشيوخهم في الزوايا التي تخضع للانتخاب وللبركة المتوارثة، تأثير الشهادات الممنوحة من طرف الشيوخ لمقدميهم وبهذا يكون لنا ممثلين لحكومتنا ويجب أن نسرع في الواقع بتحقيق رغبة الجماهير في الصلاة وكل الممارسات الدينية[1].

بالإضافة إلى ما سبق فقد صادرت الإدارة الفرنسية كل أملاك الأوقاف والحبوس التي تمون الزوايا كالأراضي الزراعية والمتاجر وغيرها ومنعت تدريس أبوب الجهاد في الفقه الإسلامي وتاريخ الجزائر الوطني وجغرافيتها[2].

فعلى الرغم بما فعله الاحتلال الفرنسي لزوايا والانحرافات التي عرفتها بعض الزوايا في ميدان العقيدة كانتشار الشعوذة والخرافات والبدع إلا أنها استطاعت أن تواصل نشاطها الثقافي والديني كسد منيعا أمام الاحتلال الفرنسي[3] وباعتراف من الفرنسيين أنفسهم فلقد اكتشفوا أن وجود الزاوية كمركز أساسي يأوي المقاومة ولاسيما المقاومة الثقافية لأن المقاومة المسلحة ذات طبيعة سياسية ثم إنها مؤقتة ، أما المقاومة النفسية فدائمة بل هي حرب نفسية حقيقة ابتكرها الزاوية وهكذا رفضت الزوايا كل ما هو أجنبي وحافظت على العادات والتقاليد الجزائرية بحيث يقول محمد نسيب في هذا الشأن: " أن طالب الزاوية كان يتمسك بدينه، ويتعلق بشخصيته ويعتز بثقافته العربية الإسلامية في الوقت الذي كان الناس فيها يتهافتون فيه على اللغة الفرنسية لغة الخبر المغموس في دماء الضحايا المذبوحين".

---

[1] Louis rime, Marabout et Khouama doolphe Jaurdan libraire editeur Paris, 1829, P290.

[2] يحي بوعزيز، أوضاع المؤسسات الدينية في الجزائر خلال القرنيين 20 و 19، ص 109.

[3] أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص 174.

إن ما قامت به الزوايا من أدوار اجتماعية وتربوية في أيام الاستعمار القاسية ولياليه الحالكة وما قامت به من أعمال البر والإحسان والتربية والتعليم مما أغلق الأبواب في وجه المبشرين الذين يترصدون الغرض للوصل إلى أغراضهم باسم التعليم والتطبيب والإحسان، ولكن الزوايا انقدت الفقراء والمحتاجين والأميين من أبناء المسلمين من اللجوء إلى مراكز المبشرين وأطعمت الجائعين وأوت العجزة وعلمت الأميين وجعلت التعليم مجانا لكل الناس للصغار والكبار للفقراء والأغنياء لا فرق بين ذا وذاك ونمت روح المحبة والتعاون بين أبناء الأمة[1] وقد لعب الشعب الجزائري دورا كبيرا في تمويل الزوايا وإكرام رجالها والإنفاق على مشاريعها الدينية والثقافية والاجتماعية كأسلوب من أساليب المقاومة الاستعمار الفرنسي للجزائر.

لقد حارب الاستعمار الفرنسي في الجزائر الثقافة الوطنية، ولما كانت اللغة العربية هي وعاء هذه الثقافة، فقد ركز الاحتلال حربه عليها، لأنه متى تم القضاء عليها يمكن القضاء على الشخصية الجزائرية، وتنفيذا لهذه السياسة، قام الاحتلال بمطاردة اللغة العربية في كل مجالات الحياة بالجزائر، فأبعدها عن الإدارة وعن المدارس النظامية، حيث أصبحت اللغة الفرنسية هي لغة العمل الرسمي، والتعليم النظامي، ولغة وسائل الإعلام ومختلف النشاطات الثقافية، وتماشيا مع سياسة الفرنسة والادماج حاول الاحتلال أيضا القضاء عليها معظم مراكز الاشعاع الثقفية العربية الاسلامية التي تتمثل في المدارس والجوامع والزوايا، التي كانت قائمة في البلاد آنذاك فحول بعضها إلى معاهد للثقافة الفرنسية، وسلم بعضها الآخر الى الهيئات التبشيرية المسيحية التي اتخذته مراكز لنشاطها المستهدف هذه عقيدة الجزائريين المسلمين كما قام بهذه البعض الاخر تماما. فقد ذكر د. رابح تركي على سبيل المثال أنه "كان في مدينة قسنطينة قبل احتلالها عام 1837 ثمانون مدرسة وسبعة معاهد وثلاثمائة مدرسة وزاوية في منطقتها، لم يبق منها بعد الاحتلال سوى ثلاثين مدرسة فقط[2].

وقد نهب الاحتلال التراث الثقافي العربي الاسلامي الذي عثر عليه في المكتبات الجزائرية، مثل المخطوطات والوثائق والكتب ،هذا فضلا عن المكتبات والكتب الأخرى التي أحرقها أو

---

[1] نسيب محمد، المرجع السابق، ص 20.

[2] رابح تركي، المرجع السابق، ص 93.

بعثرها ،كما فعل بمكتبة الأمير عبد القادر، قائد المقاومة الجزائرية واستولى الاستعمار على الأوقاف الاسلامية للزوايا التي كانت تقوم بالإنفاق على التعليم والثقافة والشؤون الاجتماعية للمسلمين. وحارب الاحتلال حركة التعليم العربي الحر حربا لا هوادة فيها، فوضع شروطا قاسية لإعطاء رخص التعليم للمعلمين الذين أوذوا و سجنوا، واضطهدوا كما قام هذا الاحتلال بمحاربة النوادي الإسلامية والصحافة الوطنية باعتبارها من وسائل الثقافة العربية الإسلامية. ورغم كل ذلك كله فقد استطاعت بعض الزوايا البسيطة الباقية أن تنجح في التصدي لسياسة الاحتلال الثقافي وأن تحافظ على الثقافة العربية الاسلامية كما سيأتي في الدور التعليمي للزوايا[1]، إن محاولة فرض الفرنسية على الجزائريين من طرف الاستعمار، هي التي تفسر تلك الحرب الضارية التي شنتها على اللغة العربية وثقافتها، والواقع أن سياسة الفرنسية الشالة التي سار عليها الاحتلال في التعليم بالنسبة للجزائريين، لم تقتصر على ميدان التعليم في مختلف مراحله. من مناهج ونظم، كتب، ولغة تدريس، وإدارة تعليمية، وتوجيه عام فحسب، ولكنها شملت كل مجالات الحياة الاجتماعية، والثقافية والإدارية في البلاد[2]، وكان الهدف منها هو محاولة صبغ البلاد، بصبغة فرنسية خالصة في كل صغيرة وكبيرة، حتى تنقطع جميع الروابط، التي تربط الجزائر، ماضيا وحاضرا ومستقبلا بثقافتها ولغتها العربية، تاريخها الإسلامي، وانتمائها الحضاري الى الأمة العربية، وحتى تنشأ الأجيال الجزائرية الصاعدة في ظل هذه السياسة المرسومة نشأة ممسوخة في كل شيء ومقطوعة من جذورها الاصلية لأنه لا يوجد شيء في الحياة العامة بالجزائرية[3]، يذكرها بماضي الاسلاف والوطن، وبذلك تصبح اسهل انقيادا للسياسة الفرنسة، وأكثر تقبلا لنتائجها وعواقبها الوخيمة على الشخصية الوطنية الجزائرية، وبصفة عامة يمكن إجمال الخطوات العامة لسياسة فرنسا في التعليم والثقافة في الأمور التالية:

- محاولة اللغة العربية، والثقافة العربية محاربة عنيفة.
- فرنسة التعليم في جميع المراحل.
- محاولة تشويه تاريخ الجزائر في ظل العروبة والإسلام.

---

(1) نسيب محمد، المرجع السابق، ص ص 45-46.
(2) رابح تركي، المرجع السابق، ص105.
(3) عمر فروخ ومصطفي الخالدي، التبشير والاستعمار في البلاد العربية، بيروت، 1953، ص23.

- عدم تدريس جغرافية الجزائر للجزائريين والاستعاضة عنها بجغرافية فرنسا.

وباعتبار أن اللغة العربية هي لسان الإسلام، وانتماء ثقافي وحضاري ومقوم للشخصية الوطنية الرافضة للاستعمار ولما كان هدف التعليم بالزوايا عن قصد أو غير قصد يتمثل في المحافظة على مقومات الشخصية الوطنية ورفض سياسة الفرنسة التي سار عليها الاحتلال في الجزائر، لذلك اتجه التعليم اتجاها لغويا ودينيا بصورة رئيسية، لأن القضية الأساسية التي أصبحت الشغل الشاغل للمجتمع الجزائري يومئذ هي ضرورة الوقوف في وجه سياسية الاحتلال الرامية الى القضاء على مقومات الشخصية الوطنية بكل الوسائل الممكنة.

ومن هنا يمكن القول، أن تعليم الزوايا قد نجح نجاحا كبيرا في تحقيق هذا المقوم الأساسي من مقومات الشخصية الجزائرية وهو المحافظة على اللغة العربية وتعليم مختلف فنونها من نحو وصرف وبلاغة وأدب، ونشرها بين أبناء الجزائر، لاسيما في المناطق الريفية. تلك هي المواد الأساسية لبرامج التعليم في الزوايا الى جانب تحفيظ القرآن والأحاديث[1].

4- لقد مرت السياسة الاستعمارية اتجاه الزوايا:

أ- مرحلة الاستهداف العام للزوايا: بدأت هذه المرحلة مع بداية الاحتلال واستمرت حوالي عشر سنوات، كان فيها الغزاة منهمكين بالاستيلاء والتوطين ومحاربة المقاومة بجميع الوسائل القمعية والتدميرية الممكنة، حتى تمكنوا من فرض سيطرتهم على جميع المدن الساحلية والداخلية وما أحاط بها من قرى ومداشر، بضربات خاصة المدن الساحلية والداخلية في هذه المرحلة لم تستهدف الزوايا بضربات خاصة تقصدها بمفردها وبل كان استهدافها عام وغير مخصوص، لكونها عنصر ضمن مجموع وجزء من كل ولكونها جزء من الأملاك والمؤسسات والأوقاف الدينية الإسلامية وصربت باعتبارها جزء من كل، فضربت لكونها جزء من الأملاك والمؤسسات والأوقاف الدينية الإسلامية وضربت باعتبارها جزء من المراكز التعليمية واستهدفت لأنها جزء من الثروات والأملاك والعقارات التي لابد من وضع اليد عليها واستغلالها في الأغراض والمصالح الاستعمارية، وضربت أكثر من مرة لأنها فقط جزء من الكيان الجزائري الرافض للاحتلال وقد تميزت السياسة

(1) عبد العزيز شهبي، الزوايا والصوفية والعزابة والاحتلال الفرنسي في الجزائر، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، 2007 ص ص 40-41.

الاستعمارية في هذه الفترة بقوانين تعسفية وأساليب قمعية منها: قرارات الجنرال "دوبرمون" في سبتمبر 1830م وتعتبر أعنف ضربة أصابت الزوايا في مقتل، لأنها قضت (بمصادرة الأوقاف الإسلامية والاستيلاء عليها مع حق التصرف في الأملاك الدينية، مساجد وزوايا وباقي المؤسسات الدينية الإسلامية في كل منطقة يحتلونها، ففي مدينة الجزائر تؤكد المصادر التاريخية على أنه قد كان بها ما يبلغ 167 مؤسسة اسلامية منها 109 مسجد، 32 ضريح و 13 مسجدا جامعا و 13 زاوية[1]، من بينها ست زوايا مجاورة للمساجد لإيواء المتعلمون الغرباء... اختفت جميعها الزوايا ولم يبق منها بعد سنة 1846 سوى واحدة كانت تقع في سوق الجمعة وحسب تصريح لرئيس " جمعية الجزائر العتيقة" " ه كلان "، فإن الاملاك المحبسة على زاوية ضريح الشيخ سيدي عبد الرحمن الثعالبي وحدها قد بلغت 69 عقارا وكان فيما احتله الفرنسيون إبان نزولهم بالجزائر 55 عقارا اتخذوها كلها مأوى للجيش.

وفي مدينة قسنطينة: جاء في تقرير قائد مقاطعة قسنطينة عن حالة الأوقاف الاسلامية بها سنة 1866 م ما مفاده أنه من مجموع 95 مسجدا وزاوية كانت كلها تابعة للمسلمين يستفيدون منها ومن أوقافها لصالح نشر الدين والعلم، لم يبق للمسلمين منها في هذه السنة سوى 32 مسجدا أو زاوية والباقي وهو 63 مؤسسة دينية فهي إما حولت إلى حولت إلى خدمة المصالح العسكرية الاستعمارية: ثكنات، سجون، مستشفيات، مخازن.. أو خدمة المصالح التنصيرية: أديرة وكنائس ومعابد وملاجئ ودور أيتام ورياض الأطفال أو أهديت أو ملكت، أو هدمت بسبب إنشاء طرقات وحتى بدون سبب. هذه الوضعية تصدق على جميع الزوايا وباقي الممتلكات الدينية في كل منطقة يستوطنها الغزاة ولهذا استطاعت السياسة الاستعمارية بفضل قرارات "دوبرمون" أن تقضي نهائيا على عدد هائل من الزوايا منذ بدايات الاحتلال بالمصادرة والاستيلاء والقليل الباقي من الزوايا التي لم تصادر، لم تستطع الصمود بسبب حرمانها من أوقافها التي تعتبر السند المالي والمصدر الوحيد الذي كان يساهم في حياتها الثقافية والدينية، وبفقدانه فقدت فعاليتها وحيويتها واضطرت إلى التراجع والتقهق.

---

[1] لوصيف فوزية، (الزوايا في الجزائر بين ارث التاريخ الاستعماري وضرورة الإصلاح والتجديد)، قسم العقيدة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، ص ص 5-6.

ب- سياسة النهب والتخريب للمكتبات:

إن جميع المكتبات الجزائرية العامة والخاصة، التابعة للزوايا ولغيرها، قد طالتها يد الاجرام الاستعماري، فهي إما أحرقت أو نهبت ونقلت غلى مختلف المكتبات الفرنسية في فرنسا أو باقي الدول الأوروبية[1]، والأمثلة على هذه الجرائم لا تعد ولا تحصى نكتفي للتدليل عليها بذكر مصير مخطوطات مدينة قسنطينة وفقد جمع الغزاة فيها بعد سقوطها أكثر من 5000 مخطوط ومؤلف ثمين لم يسلم منها إلى مكتبة الجزائر سوى 700 مخطوط والباقي ألف ونهب باعتراف الفرنسيين أنفسهم وقصة الامير عبد القادر الذي اصابته نوبة من الحزن العميق وهو يسير في الصحراء يجمع الشتات الباقي من أوراق أعز وأنفس الكتب والمخطوطات في مكتبته الخاصة التي خربها الجنود الفرنسيين تغني عن اي تعليق.

واليوم نجد المكتبات الفرنسية تزخر بنفائس الكتب والمخطوطات العربية الإسلامية حيث تذكر بعض الإحصائيات أن مكتبة باريس الوطنية وحدها تحوي 7 آلاف مخطوط عربي، بينها نفائس علمية وأدبية وتاريخية ونوادر قلما توجد في غيرها كما تحتوي على عدد هائل من الكتب العربية والحال نفسها بباقي المكتبات الفرنسية العريقة سواء العامة منها أو الخاصة مثل مكتبات المستشرقين أو أهالي المحتلين وكذا الأمر في معظم الدول الأوروبية حيث كان الكثير من الفرنسيين والأوروبيين حريصون كل الحرص على اقتناء نفائس الكتب والمخطوطات الجزائرية من هؤلاء اللصوص عن طريق تجار الكتب الأوروبيين ويقدر معهد المخطوطات العربية عدد المخطوطات الموزعة بين المكتبات الغربية هو من مكتباتنا الجزائرية التي تهبت وأفرغت من كنوز العلم والفكر والمعرفة. وقد عانت الزوايا كثيرا من فراغ رفوف مكتباتها من الكتب والمخطوطات النفيسة والتي كانت معتمد أصحابها في نشر العلم والقيام به ومما أثر سلبا على المناهج التعليمية بالزوايا، مما طبعها بالجمود والتقليد وجعلها تدور في فلك بعض المؤلفات القليلة التي سلمت من بطش اليد الاستعمارية لذلك وجدنا أن بعض الأسماء وبعض المؤلفات قد اكتسبت طابع القداسة وصار لا يعتبر علم من

[1] لوصيف فوزية، المرجع السابق، ص 7.

العلوم ومعرفة من المعارف[1]، إن لم يؤخذ عنها أو منها بالذات بل قد يكتفي الكثير من المعلمين والمدرسيين بتلك المقررات على اعتبار أنها كافية ووافية ومغنية عن غيرها.

5- عمليات التدمير الشامل والتقتيل الجماعي في المدن وفي القرى المجاورة لها:

فحسب شهادات بعض القادة والضباط الذين شاركوا في الغزو، فإن عدد القرى التي دمرت تدميرا شاملا كان كبيرا جدا عد بالعشرات والمئات حيث لم يسلم فيها لا بيت ولا مسجد ولا زاوية ولا ضريح ولا حتى إسطبل أما سكانها فسعداء الحظ منهم من استطاعوا النجاة بحياتهم والهروب نحو المناطق البعيدة عن الغزاة داخل الجزائر وحتى خارجها والبقية الباقية منهم فقد قتلوا بكل بشاعة وشراسة برجالهم ونسائهم وبشيوخهم وأطفالهم وبعلمائهم وطلابهم وبحيواناتهم أحيانا وكأنهم لمحوا وكأنهم لمحوا في نباحها وموائها نبرات الرفض والمقاومة.

أ- مرحلة الاهتمام و بداية المراقبة: بعد مرور عشر سنوات من الاحتلال والانهماك في التوسع والقمع، داخل المدن والقرى المجاورة لها، وعند بداية التغلغل في الأرياف الجزائرية، أدركت السياسة الاستعمارية أن كل ما قامت به طوال تلك المدة لم يحقق لها الأهداف التي سطرتها فلم تبسط نفوذها إلا على جزء صغير من البلاد الجزائرية ولم تستطع أن تقضي على المقاومات الشعبية التي لا تكاد تنقطع وقد تكبدت خسائر لم تكن تتوقعها. لذلك فكرت في ضرورة التغيير والتطوير في طرقها وأساليبها وهذا لا يمكن أن يتحقق إلا بزيادة المعرفة بخصوصيات البلاد المستعمرة ومميزات أهلها من جميع النواحي لتوضع المخططات وفق مقاسها ولأجل ذلك:

- تم تجنيد (بعض الضباط ليتعلموا اللغة العربية، مع التأكيد على الاحتكاك بالسكان الأصليين ومحاولة التقرب إليهم بالتأكيد ليس حبا فيهم [2]، ومع مراقبة مناطق التمرد والشخصيات البارزة والمهمة وتحرير تقارير عنها وعن أسباب التمرد والمقاومة في كل

[1] لوصيف فوزية، المرجع السابق، ص 7.
[2] لوصيف فوزية، المرجع السابق، ص 8.

منطقة. ثم تطورت التقارير وتحولت إلى أبحاث ومؤلفات من طرف الضباط الذين تعلموا العربية، وأهمها على الاطلاق كتاب النقيب "ادوارد دو نوفو Edward de neveu المسمى الاخوان الذي صدر في سنة 1845م وهو عبارة عن مجموعة من التقارير الناتجة عن المراقبة المستمرة، مقدمة بطريقة منهجية، وبه تحليلات وجهت الأنظار نحو دور العامل الديني في المقاومة وحيث مما جاء فيه:(يجب سبر الجانب السياسي لهذه الجمعيات التي غالبا ما أنتجت بين الأشخاص علاقة ذاتية تمنح امكانية اتصال سريعة تكاد تكون خارقة للعادة ونعتقد أن جمعيات الإخوان هذه أصبحت تلعب دورا ذا أهمية كبيرة في المسائل السياسية بالوسط والغرب ونعتقد أن ندائنا لجلب انتباه السلطة حول هذه النقطة يعتبر مبادرة جادة علينا معرفة كل ما يتصل بدين المسلمين، هذه الدراسة توجهنا لمعرفة الرجال الذين يمسكون بأيديهم الخيوط التي تسمح عند الضرورة بتحريك السكان وعليه فاهتمامنا بهؤلاء الرياس ومنحهم الرعاية والمعاملة الخاصة يمكننا من الحصول على متعاونين أقوياء يساعدوننا على إطفاء الحماس الذي ينشط روح القبائل العربية الخاضعة لنا.

ب- مرحلة الاستهداف المخصوص بالتضييق والقمع ومحاولات التدجين:

بعد أن أحست سلطات الاحتلال بخطورة الزوايا والطرق الصوفية، سارعوا إلى استدراك الأمر وشنت موجة عظيمة من التحقيقات بدأت بتركيز الملاحظة والمراقبة على الزوايا والطرق، بعد مضاعفة عدد الضباط المجندين للمراقبة والتجسس، فتضاعفت التقارير والأبحاث وكانت تتعلق بجميع المعلومات صغيرة أو كبيرة عن أماكن الزوايا القائمين بها، المترددين عليها ،أعمالهم ونشاطاتهم ..الخ[1].

وهذه بعض المقتطفات عن تللك التقارير:التقرير الأول:(...لقد كان بفرع المدية مذهبان، الدرقاوية الذين كانوا معادين لنا كل العداء لأن غايتهم كانت سياسية بوجه خاص، أرادوا أن يشيدوا من جديد صرح امبراطورية الامية ويطردوننا، إن هذا المذهب منتشر جدا في

[1] لوصيف فوزية، مرجع سابق، ص 10.

الجنوب ومن الصعب جدا مراقبتهم ولقد كانت ندوات الاخوان سرية ولقد كانت أغلبية رؤسائهم مع ذلك معروفة ...). التقرير الثاني:(... تسعى الزوايا التي يدير معظمها مقدمون من مختلف المذاهب إلى إفساد عقول الأجيال المقبلة، ببث عدم التسامح الديني في قلوب الشباب وحملهم على كراهية الكافر، إن مشايخ الزوايا يختارون في تدريسهم للقراءة نصوصا من القرآن معادية لنا مما يحطم فيهم وبسرعة الشعور الذي سعينا لتطويره فيهم من طرف مؤسساتنا وتعتبر التأثيرات الدينية من ألد أعدائنا والتي يجب أن نخشاها وتخطط لها سياستنا) ثم تطورت التقارير والمؤلفات إلى تحقيقات ودراسات متخصصة تجمع بين دراسات إحصائية وتاريخية وسيسيولوجية عن المنطقة وعن الزاوية وعن أصحابها ومن أشهرها كتاب 'بلاد القبائل' لمؤلفيه 'هانوتو' و 'لوتورنو' ثم ظهر عام 1884 م كتاب 'لويس رين' Louis Renn المسمى "مرابطون و اخوان " وقد وضع تحته عنوانا فرعيا :"دراسة عن الاسلام في الجزائر" ويمثل (هذا الكتاب ذروة اهتمام السياسية الاستعمارية بالطرق والزوايا في الجزائر).

5- دور الزوايا والحفاظ على الشخصية الوطنية:

تعتبر الزوايا أثناء فترة الاستعمار الفرنسي هي المؤسسات الواحدة أو الغالبة التي كانت تتولى التعليم فلقد استطاعت بأسلوبها البسيط والسهل من خلال الدور الذي قامت به أن تقوم بتنمية الشعور بالوحدة لدى الجزائريين وتوحيد وسيلة الاتصال بينهم ولأن التعليم كان باللغة العربية ومنهجه القوي في روحه الغنى في محتواه السليم في جوهره أن ينجح لأنه لم يفقد فاعليته، ولم تبرد حرارته، وإذا كان تعليم الزوايا والمساجد والكتاتيب القرآنية والمدارس الحرة العليا تعليما بسيطا متواصفا لم يتماشى مع روح العصر في أسلوبه ومناهجه فإنه حافظ على روح الأمة وصان شخصيتها ومن عقيدتها ورفع معنوياتها بذلك جعلها تعتصم بدينها وتعتز بقيمها وعاداتها وتقاليدها وتتعلق بلغتها وإن كانت محاربة ومحرومة من جميع الوسائل ومعزولة عن كل ميدان من ميادين الحياة.

رغم ذلك لا تقبل البديل مهما كان البديل لأنها ترى نفسها سعيدة بدينها فخورة بانتمائها الثقافي والقومي والوطني وتجد كل ما هو إسلامي ونمقت كل ما هو أجنبي دخيل[1].

[1] نسيب محمد، المرجع السابق، ص 46.

ولكن كانت تلك المؤسسات بمثابة حصون وقلاع للدراسة والدفاع ودفعت عن القيم والأخلاق الإسلامية وحافظت لاسيما في وطننا الغالي الحبيب الوطن الجزائر على مقومات الهوية الوطنية وصانت عناصر الشخصية العربية الإسلامية[1] فبالرغم ما قام به لقد حاول الاستعمار الفرنسي أن يقضي على الشخصية الوطنية بكل أساليبه القدرة.

لقد قام شيوخ الزوايا بلم صفوفهم لمواجهة هذا الاستعمار الممحي، وذلك بإنشاء جمعيات وهذا التوحيد وسيلة الاتصال بينهم، فقد أنشأ جمعية جامعة مشايخ الطرق الصوفية سنة 1938م والتي كان هدفها نشر العلم ومعرفة وترسيخ القيم والأخلاق الإسلامية واللغة العربية.

لقد أحرق الجنرال دوف دومال وجنوده مكتبة الأمير عبدالقادر الذي كان يتتبع أثر الطابور الفرنسي مسترشدا بالأوراق المبعثرة في الصحراء التي انتزعها الجنود من المكتب التي عانى الأمير الكثير في جمعها.

كما نعلم أن الأمير عبدالقادر ابن زاوية ولم تكتف السلطات الاستعمارية عند هذا الحدود ومحو الشخصية الوطنية فقد بقيت معتمدة على التقتيل والتعذيب والتجهيل ومصادرة أموال الزوايا وإفقار الأهالي وحرق الأرض، سن القوانين الجائرة في حق الجزائريين[2].

فلقد اقتصرت الفترة الأولى من 1830م إلى 1880م على العمليات الحربية التي نظمها الجيش الفرنسي ضد الشعب الجزائري ومقاومته تحت قيادة الأمير عبدالقادر في العشرية الأولى والثانية ولم تفكر السلطة الفرنسية إلا في تأسيس سياسة عنونتها تارة "سياسة الاندماج" و "الكاتب العربية" والتجسس وتارة سياسة "المملكة العربية" ثم سياسة اندماجية أخرى ثم قانون خاص بأهل البلاد أي "قانون الانبحينا" التعسفي 1881م.

وفي هذا النطاق قررت لتغالط الناس أنها لا ترى مانعا في تدريس اللغة العربية في المدارس الابتدائية المسماة "العربية الفرنسية" وفي المدارس الحكومية الثلاث على مستوى التعليم الثانوي فلم يعمل كما كان متوقعا، بهذا القرار الذي اتخذته السلطة الفرنسية وقت "المملكة العربية" في عهد نابليون الثالث (1808م – 1873م) وبقي فعلا عبارة عن حبر على ورق

---

(1) عبد القادر الشطي، السلفية الوفية، مذهب أهل الحق الصوفية، دار هومة، الجزائر، 2002، ص 310.
(2) مجلة العصور، العدد الثاني ، ص 104.

ثم أتي عهد "الجمهورية الفرنسية الثالثة " التي كانت هي منهجها تعلن اندماج أبنائها في النظم التعليمية والتربوية والسياسية المخصصة لأبنائها الفرنسيين باسم الإدماج السياسي والاستعمار المسلط على الشعب الجزائري[1] قصد محو كل مقاومته الشخصية وطمس معالم المجتمع الجزائري العربي المسلم، فلهذا نرى أن نظرة من يتهمون المؤسسات الدينية بالجمود والانغلاق كانت سطحية وتفكيرهم كان قاصرا فلو تعمقوا وحللوا لعرفوا الحقيقة فنحن لا نسميه رفضا ورد الفعل، فلولا هذا الانغلاق لها احتفظت الجزائر بإسلامها وعروبتها قرنا و 32 سنة من الاحتلال الفرنسي البغيض، إذ لا نسمى من انغلاقا بل نسميه رفضا وتحديا واحتضانا للعقيدة الإسلامية وما تحمل هذه العقيدة من قيم وأخلاق وإرادة وأمل وتحد.

إن هؤلاء الرافضين من علماء الأمة وعقلائها وهو أحد لأطماع الغزاة، فتجارب التاريخ تقر بأصالة الدين في جميع حركات التاريخ الكبرى أنه لم يكن قط لعامل من عوامل الحركات الإنسانية أثر قوي وأعظم من عوامل الدين وكل ما عداه من العوامل المؤثرة في حركات الأمم إنما تتفاوت فيه القوة بمقدار ما بينه وبين العقيدة الدينية[2] بعد الاستقلال فقد انحصر دور الزوايا في تعليم القرآن الكريم لطلبة المدارس الرسمية في أوقات خاصة والقيام بدور التثقيف الشعبي إلى أن أوكل أمرها إلى وزارة الشؤون الدينية والأوقاف الجزائرية فاستعادت بريقها وغدت موردا مهما لتزويد المعاهد الدينية التي تعتمد عليها الوزارة في إعداد الأئمة والمعلمين لتدريس وتحفيظ القرآن[3].

يعتبر التنصير محاولة لإخراج الجزائريين من دينهم الإسلامي، وإدخالهم في دين النصرانية كي يصبحوا مسيحيين يحملون عقيدة المحتل لبلادهم. وهذا يعني إحلال الديانة المسيحية محل الديانة الاسلامية في الجزائر، حتى ينهار مقوم آخر من مقومات الشخصية الوطنية، وهو "الإسلام" وقد تجلت سياسة تنصير الجزائريين، في أن فرنسا صرحت غداة احتلالها لعاصمة البلاد عام 1830 بأن من جملة أهدافها، من وراء عملية غزو الجزائر العمل على

---

[1] الطاهر زرهوني، التعليم في الجزائر قبيل وبعد الاستقلال، المؤسسة الوطنية للفنون الطبيعية، وحدة الرعاية، الجزائر، 1994، ص 13.

[2] نسيب محمد، المرجع السابق ، ص 47.

[3] عمر فروخ ومصطفى الخالدي، التبشير والاستعمار في البلاد العربية، بيروت، 1953، ص100.

نشر المسيحية فيها، والقضاء على الاسلام[1]، وهو ما أكده كاتب الحاكم الفرنسي العام للجزائر عام 1832م فقال "إن أخر أيام الاسلام قد دنت وفي خلال عشرين عاما لن يكون للجزائر إله غير المسيح ..."، وقد أعاد المحتلون تأكيد هذه السياسة في مناسبات عديدة منها أثناء احتفالهم سنة 1930 بمرور مائة عام على احتلال الجزائر، حيث قالوا: "إن المغزى الحقيقي من وراء إقامة هذه الاحتفالات إنما هو تشييع جنازة الاسلام في الجزائر[2]، ورغم أن فرنسا دولة (لائكيه) أي علمانية، كما ينص دستورها، إلا أنها في الجزائر احتضنت سياسة تبشيرية واسعة النطاق لتنصير الجزائريين، وتعاونت تعاونا كبيرا مع الهيئات التبشيرية المسيحية من مختلف أنحاء العالم، من أجل القضاء على الاسلام، الذي وقف حجر عثرة في طريق محاولاتها لتحطيم مقومات الشخصية الجزائرية العربية الاسلامية. وقد دعمت الحكومات الفرنسية المتعاقبة رجال الدين النصارى بالمال، ويوضح ذلك أن شؤون الدين الاسلامي، ظلت منذ بداية الاحتلال عام 1830 حتى خروج الاستعمار الفرنسي من الجزائر عام 1962 خاضعة للسيطرة الاستعمارية كما أن فرنسا بادرت، منذ الأيام الأولى للاحتلال، الى الاستلاء على أوقاف الدين الاسلامي وإلى تحويل عدد كبير من مساجد وجوامع الجزائر إلى كنائس لغرض التنصير رغم معارضة الجزائريين لذلك ومقاومتهم الشديدة لهذا الاعتداء على حرمات الاسلام ومقدساته. وحيث أن الزوايا كانت تعتبر حصونا للعقيدة والايمان، ومراكز لتحفيظ القرآن، وتعليم الدين فقد ركزت أيضا على تعليم اللغة العربية بهدف تعليم الدين ونشره، وفهم القرآن وما يتصل به من علوم التشريع والأخلاق والعقائد والتفسير والحديث والى غير ذلك من علوم الدين واللغة، وبذلك عملت الزوايا على الابقاء على مبادئ الشخصية العربية الاسلامية، ومقاومة سياسة وعقيدته.

6- دور الزوايا ومناهجها في التعليم:

لقد حاول الاستعمار الفرنسي أن يمنع اللغة العربية لأنها وعاء الدين ووسيلة لفهم الإسلام، وحاول أن يعوضها بلغة المستعمر لتحويل أبناء الشعب الجزائري إلى فرنسيين وتمسهم

[1] نفسه، ص 100.
[2] رابح تركي، المرجع السابق، ص 108.

وتعريفهم تمهيدا لإدماجهم، لكن التعليم الديني وعلى رأسه الزوايا كغيرها من المؤسسات الشعبية كالمساجد والكتاتيب القرآنية وقفت له بالمرصاد.

لقد كانت الزوايا في الجزائر في معظمها يمثل مركز إشعاع ديني يقوم على أساس تعليم القرآن وتحفيظه هذا الدور التعليمي الايجابي الذي كانت تقوم به الزاوية كان يشمل في الوقت نفسه خطرا بالنسبة للجهات[1] الفرنسية التي كانت تنظر إلي شيوخ الزوايا ومدرسيها بأنهم متزمتين ومتعصبين، حيث كانوا يغرسون في أذهان الطلبة والتلاميذ فكرة مقاومة العدو ومحاربته في الوقت الذب كانت فيه السلطات الفرنسية تحاول إخضاع الزوايا لها.

إن تعليم الزوايا على العموم حورب وحوصر بالمدرسة الفرنسية منذ الاحتلال حلول الفرنسيون جو الجزائريين إلى إدخال أبنائهم في مدارس فرنسية في المدن أولا، وفي المرحلة الثانية أنشئوا ثلاث مدارس إقليمية لتمتص التلاميذ الذين كانوا من قبل يتوجهون إلى الزوايا الريفية وإلى المرابطين للتعلم أو يقصدون المعاهد الإسلامية خارج الجزائر، أما خلال المرحلة الثالثة فإن الفرنسيين قد أنشئوا المدرسة الابتدائية الفرنسية بجوار الزوايا وضيفوا على هذه الزوايا مجال النشاط، وفتحوا مع قادتها باب التبجين والتوظيف وهكذا حوربت الزوايا على عدة جهات[2]، لذلك يظهر أنه من الصعب أن يجمد المجهود الذي قامت به هذه الزوايا في سبيل تحفيظ القرآن الكريم ونشر الثقافة العربية الإسلامية في ظروف كان يهيمن عليها الاستبداد إضافة إلى معارضة المعمرين الذين صرحوا بها في عدة مناسبات "فلولا هذه المراكز لأصبح الأطفال الجزائريين كلهم معرضين للجهل والأمية" هذا ما أعلنت عنه اللجنة المكلفة سنة 1891 من طرف المجلس الوطني الفرنسي بتحقيق حول التعلم في بلادنا، فقالت بأن هذا التعليم كان في زوايا مسيرة من طرف أهل البلاد يعلم فيها تحفيظ القرآن وقواعد اللغة العربية ولم تجد مؤسسات أخرى لتعليم أبنائهم[3].

---

[1] Y.Vonne Tirim- affrontements culturels dans l'Algérie coloniale recale médecine religion 1830/1870, Année 1978, P78.

[2] أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق ، ص 173

[3] الطاهر زرهوني، المرجع السابق، ص 14.

إن أهم أعمال الزوايا في أوقات السلم هو التربية والتعليم إلى جانب القيام ببعض الأعمال الخيرية كإطعام المساكين وإيواء ابن السبيل والذي يهمنا حاليا هي البرامج والطرق المطبقة في التعليم والتدريس المتبعة في هاته الزوايا.

ليس للزوايا في مرحلة الدراسة مناهج منظمة من ناحية الكتب والامتحانات وتوزيع الطلاب على سنوات الدراسة حسب أعمارهم ومستواهم العلمي، والتفتيش والنظم التعليمية وإنما كان التعليم يسير فيها بطريقة تقليدية بحيث كان الطلبة يتابعون الدراسة لعدد من السنين قد تقصر أو تطول، يدرسون كتاب أو كتاتيب في الفقه المالكي، وغالبا ما يكون شرح الدردري وسيدب خليل (بأجزائه الأربعة) يكرونها عدة مرات في عدد من السنوات، إضافة إلى كتاب أو كتاتيب في البلاغة بعد حفظ القرآن الكريم كله حفظا جيدا[1].

وبما أن منهج الإسلام في الأخلاق هو كتاب الله الذي يحفظ ويتلى وتبذل الجهود، وإن كانت محدودة لفهم آياته وخاصة ما ينطق منها بالعقيدة والدين والأخلاق، فإن الزوايا أخذت بهذا المنهج كأرضية يقوم عليها التعليم ، وإذا كان هذا التعليم يقتصر على الدين واللغة العربية والتربية الروحية والخلقية فإنه القاعدة التي ترسى عليها حياة الفرد والمجتمع في هذه الزوايا[2].

إن حالة الزوايا في التعليم هي حالة معاهد التعليم العربي، فإننا نجد أن التعليم فيها لم يزل على الأسلوب القديم من الابتداء بحفظ القرآن الكريم وشتى المتون والانتقال بعد ذلك إلى دراسة الفقه والنحو والصرف إلى آخره لذلك فإن مناهج هذا النوع من التعليم بقيت على حالتها منذ قرون دون أن يدخل عليها تغيير يذكر ويستثني من ذلك التعليم الذي كان يقوم بع بعض الزوايا وهي قليلة مثل زاوية الشيخ علي بن عمر بطولقة وزاوية سيدي عبدالرحمن اليلولي بمنطقة جرجرة وزاوية الهامل بالقرب من مدينة بوسعادة، فقد كانت هاته الزوايا على الشكل من التنظيم في برامجها الدراسية، أما طرق التدريس: إن أهم الطرق التعليمية أو التدريس السائدة في الزوايا تعتمد على طريقة الحفظ والتلقين أو طريقة المادة التي تعتمد على الإلقاء والإملاء من جانب المعلمين والاستماع والحفظ من جانب المتعلمين وهي

[1] تركي رابح، المرجع السابق، ص 267.
[2] محمد نسيب، المرجع السابق، ص 15.

الطريقة التي يكون فيها موقف المتعلمين سلبيا في معظم الأحيان[1]، فالعلم هو الذي يعد الدرس وهو الذي يشرح وهو الذي يحلل كما يحتاج إليه من التحليل والمتعلمون عليهم أن يتقبلوا ما يقوله المعلم بالقبول والتسليم في معظم الأحيان[2].

7- سياسة الإدماج والتصدي لها بالمحافظة على الروابط العربية الاسلامية:

تعني سياسة الإدماج إذابة الجزائريين في الكيان الفرنسي العام وبذلك لن تقوم للجزائر كجزء لا يتجزأ من العالم العربي الاسلامي قائمة في يوم من الايام بعد أن ينسلخ الجزائريون من دينهم ولغتهم وجنسيتهم، وبالتالي من حضارتهم العربية الاسلامية ويجتثوا اجتثاثا كما وقع للعرب المسامين في الأندلس منذ قرون.

فقد كانت سياسة الاحتلال منذ البداية تخطط لدمج الجزائر في فرنسا عن طريق ربطها سياسيا وإداريا بفرنسا، وهضمها ثقافيا وروحيا و لغويا في الشخصية الفرنسية وبذلك يتم القضاء على الشخصية الجزائرية تدريجيا، حتى تذوب نهائيا في الشخصية الفرنسية.

ورغم أن سياسة فرنسا التعليمية في الجزائر قد قامت على ثلاث ركائز: هي الفرنسة والتنصير والإدماج إلى أنها في التطبيق العملي لم تفتح أبواب التعليم الفرنسي في وجه الجزائريين الا في نطاق محدود جدا على خلاف ما يقتضيه منطق الإدماج، كذلك المحافظة على الثقافة العربية الاسلامية فقد حققت الزوايا من هذه الناحية نجاحا كبيرا, في الابقاء على الروابط الثقافية و الحضارية، بين الجزائر والعالم العربي الاسلامي. وبذلك ساهمت الزوايا في القضاء على سياسة الاستعمار، التي تهدف الى ربط الجزائر بثقافة فرنسا وحضارتها، وأفشلت مرة أخرى سياسة الادماج الفرنسي[3]. كما يتأكد أن الزوايا لم تكن دائما مراكز لنشر التخلف كما يروج لها أحيانا ولم يكن التعليم بها جامدا دائما، بل استطاعت أن تقاوم المسخ الاستعماري وبذلك حافظت على المقومات الأساسية للشخصية الوطنية الجزائرية، وعملت على الإبقاء على اللغة العربية والثقافة الاسلامية خلال فترة الاحتلال، وساهمت كذلك في الإبقاء على الروابط الثقافية والحضارية بين الجزائر والعلم العربي الإسلامي، كما ساهمت في القضاء على الاتجاهات المنحرفة، تلك الاتجاهات التي كانت تحاول، تلك

---

[1] محمد نسيب، المرجع السابق، ص 32.
[2] رابح تركي، المرجع السابق، ص ص 112، 294.
[3] رابح تركي، المرجع السابق، ص 112.

الاتجاهات التي كانت تحاول ربط الجزائر بفرنسا وثقافتها وحضارتها، ودمج الجزائر في الكيان الفرنسي العام، وسيذكر التاريخ هذا الفضل للزوايا وعلمائها إلى آخر الدهر[1].

تعتبر الزوايا كما أسلفنا مراكز العلم والثقافة العربية الإسلامية بالجزائر، ومأوى الطرق الصوفية والنشاط الديني خاصة، كما كانت أيضا مدارس وملاجئ وبيوتا للعمل الخيري ولكنها اختصت أكثر بتحفيظ القرآن، وتعليم ما يستلزمه من العلوم اللغوية والشرعية والتاريخية. وفي هذا المجال، يقول أحمد توفيق المدني:" لبعض الطرق الصوفية بقطرنا هذا (الجزائر) مزية تاريخية لا يستطيع أن ينكرها حتى الكابر، تلك هي أنها استطاعت أن تحفظ الاسلام بهذه البلاد في عصور الجهل والظلمات، وعمل رجالها العاملون الأولون على تأسيس الزوايا، يرجعون فيها الضالين الى سواء السبيل ويقومون بتعليم الناشئين، وبث العلم في صدور الرجال، ولولا تلك الجهود العظيمة التي بذلوها، والتي نقف أمامها موقف المعترف المعجب لما كنا نجد الساعة في بلادنا أثرا للعربية ولا لعلوم الدين[2]، وشأن الزوايا في جنوب الجزائر، لقد لعب دورا بالغ الأهمية في نشر الإسلام واللغة العربية، حتى في الأقطار المجاورة للجزائر، جنوب الصحراء الكبرى وتخرج منها العلماء والفقهاء وحفظة القرآن الكريم[3].

كما قال: 'د. عبد الله ركيبي بقي نوع اخر من التعليم وهو الخاص بالزوايا، والذي يرجع إليه الفضل في الحفاظ على اللغة العربية وعلومها، وهو تعليم كان يسير على المناهج القديمة التي تعطي الأولوية لعلوم اللسان والدين..'، والزوايا من هذه النحية تعتبر مدارس ابتدائية، وثانوية معاهد علمية عالية في آن واحد، فكانت الى عهد قريب من المراكز الهامة التي حفظت اللغة العربية، والثقافة الإسلامية من الاندثار في الجزائر خاصة خلال فترة الاحتلال الطويلة 1830-1962[4].

وقد ذكر "د.أبوالقاسم سعد الله" أن الزاوية الناصرية بجامعها الكبير ومدرستها بخنقة سيدي ناجي قد أشعت على الناحية بالعلم والمعرفة طيلة قرنين أو يزيد، وكانت موئل علماء الزاب

---

(1) احمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، دار الكتاب، دار المعارف 1963، ص ص 350-351.
(2) احمد توفيق المدني، نفسه، ص ص 350-351.
(3) محمد علي دبوز، نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، ج1، مطبعة التعاون، دمشق، 1965، ص ص 49-50.
(4) عبد الله ركيبي، الشعر الديني الجزائري الحديث، الجزائر، (ش.و.ن.ت)1981، ص30.

والصحراء والأوراس وقسنطينة وزواوة، بل وتونس وطرابلس أيضا، وكانت المدرسة بها حين زارها الدكتور سعد الله وهي ما تزال قائمة، تحتوي على خمسة عشرة غرفة، وتظم كل غرفة خمسة الى عشرة طلاب وذكر د. سعد الله أنه في احدى هذه الغرف درس الشيخ المرحوم أحمد السرحاني وفي منطقة زواوة، ذكر"أمقران يسلي" في رسالته الجامعية عن الزوايا في بلاد القبائل، أن الطلبة كانوا يطلبون القرآن في الزاوية الأم" زاوية الشيخ عبد الرحمن اليلولي "أما الفقه، فكانوا يدرسونه في الزوايا الأخرى، كزاوية " تيفريت نايت الحاج" وهذا يدل على وجود تخصص في علم بعينه عند بعض الزوايا، يتولى تدريسه علماء متخصصون أيضا، ومن هؤلاء الشيخ الشريف الافليسي، الفقيه المالكي الذي قضى في هذه الزاوية ثلاثة عشر سنة مدرسا وواعظا، والشيخ السعيد اليجوري، النحوي الذي لقبه الأستاذ بن باديس بشباب الشيوخ، ثم الشيخ محمد الطاهر بن الشيخ الجنادي الذي انتقل من هذه الزاوية سنة 1282 ه/1882م الى تونس، وهناك عينه بعض الأعيان شيخا ومربيا لأولاده، وقام بالمهمة أحسن قيام الى أن توفي هناك، ثم الشيخ أفطر الفقيه القرآني وكان خطاطا بارعا ..، والشيخ الحاج عمرو أو فضة أحد تلامذة الشيخ عبد الرحمن والشيخ علي أو الخيار، ثم الشيخ محمد الطيب الأقروبيسيو والشيخ الرزقي الشرفاوي الأزهري، الذي انتصب للتدريس في هذه الزاوية خلال الثلاثينات من هذا القرن، فهذه وفرة من العلماء كانوا جميعهم مدرسين بالزاويتين المذكورتين، وفي عهد الشيخ محمد الطاهر بن الشيخ الشريف الجنادي عرفت زاوية سيدي " اليلولي" تطورا ملحوظا تمثل في تهذيب أساليب التدريس بها[1]، فكانت بذلك قبلة للطلاب والعلماء، ولذلاك فإن ما يقال عن التعليم الباديسي بالجامع الأخضر في مدينة قسنطينة ويمكن أن يقال أيضا عن هذه الزاوية وبحيث كان التعليم فيها متطورا ومنظما ومسايرا لنظام التعليم في بعض الجامعات الاسلامية. وذكر " فرج محمود فرج " في أطروحته " اقليم توات أن بعض فقهاء توات وكانوا يبنون الزوايا ويتخذونها أماكن للخلوة والتعبد والى جانب تخصيص أجزاء منها للتدريس ... فهذه إذن نظرة سريعة على ما كانت تختص به الزوايا من التعليم العالي الذي لا يقتصر على حفظ القرآن الكريم واستظهاره، بل

[1] فرج محمود فرج، المرجع السابق، ص ص 87-89.

يتعداه إلى مدارسة علومه وآدابه وأسباب نزوله وإلى العلوم الشرعية الكثيرة بقصد التفقه في الدين[1].

ومن هنا يتبين أن سياسة فرنسا الاحتفالية، قد بنيت منذ البداية على أساس القضاء على اللغة العربية والثقافة الإسلامية والعمل محاولة تحويل المجتمع الجزائري، في المدى البعيد من مجتمع مناهض للاستعمار، إلى مجتمع راض على الوضع الاستعماري لبلاده، ولديه القابلية للفرنسة والإدماج في مجتمع دولة الاحتلال وبذلك تتمكن دولة الاحتلال من السيطرة المطلقة والدائمة على الجزائر والجزائريين.

8- دور الزوايا بعد الاستقلال:

استمرت في متابعة طريقها في التعليم القرآني وتحفيظ وتعليم المواد الشرعية للطلاب الذين لا يذهبون إلى المدارس الرسمية في أوقات خاصة، ثم اهتمت وزارة الشؤون الدينية بأمرها فأصبحت تزود المعاهد بالأئمة والوعاظ والإشراف على المساجد ،وقد استعادت الزوايا حاليا نشاطها فبالإضافة إلى دورها التربوي يبقى دورها الاجتماعي قائما إلى اليوم، حيث تعتبر أماكن لتحل قضايا وتريات مستعصية بين المواطنين والعائلات بعضها استعصى حتى على المحاكم ليجد خلاله في الزاوية التي تبقى تحتفظ بقدسيتها بالإضافة إلى ذلك قامت هذه الزوايا بتأسيس جمعيات خاصة بها تسعى للحفاظ على المورث الثقافي والطابع الخيري[2].

مع كل تلك المخططات الاستعمارية الجبارة التي قصدت بها الزوايا، فهي لم تمت أو تتلاشى، ولم تتوقف عن أداء رسالتها التربوية والتعليمية وبخاصة في زوايا الصحراء والمناطق المعزولة، أما بعد الاستقلال فلم تبق الزوايا على ما كانت عليه أيام الاستعمار، وعندما أوكل امرها فيما بعد إلى وزارة الشؤون الدينية استعادت بعض ما كانت عليه أيام الاستعمار وعندما أوكل أمرها فيما بعد الى وزارة الشؤون الدينية استعادت بعض ما كان لها، وأصبحت موردا هاما لتزويد المعاهد التي تعتمد عليها الوزارة في إعداد أئمة ووعاظ ومعلمين، لتدريس القرآن بالمساجد والأشراف عليها ومعظم طلاب الزوايا اليوم ممن أكمل المرحلة الابتدائية في المدارس الرسمية ولم يوفق للمواصلة فيها وحيث تعتبر الزوايا بمثابة

(1) فرج محمود فرج، المرجع السابق، ص ص 87-89.
(2) ميشو بلير، مجلة أبحاث، عدد 9 -10، 1986.

مرحلة متوسطة ويلتحق الطالب بعد إكمالها بالمعاهد التابعة لوزارة الشؤون الدينية. أما دور الزوايا في التثقيف الشعبي فقد أصبح محدودا ومقتصرا على دروس في القرآن والفقه المالكي مع شيء من علم التوحيد وعلوم اللغة، وكلها على طريقة المناهج والمقررات القديمة، أما القليل من الزوايا التابعة للطرق الصوفية المهرجة فقد استعاضت عن التعليم بالتهريج والشعوذة والدجل وصارت تستغفل عقول العامة وتخدرها لتنهب أموالها وممتلكاتها باسم الشيوخ والصالحين والكرامات.

9- إصلاح الزوايا أهميته وسبل تحقيقه:

إن الزوايا من المؤسسات القديمة في الجزائر، تمتلك رصيدا تاريخيا وثقافيا ضخما، قدمت من خلاله خدمات جليلة لهذا الوطن ولأهله، وإن كانت ولظروف تاريخية متراكمة قد انحرفت عن هذا الرصيد وتراجعت فهذا لا يعني عدم جدواها اليوم فقد كانت وستبقى من المؤسسات العريقة ذات الامتداد الشعبي والتأثير المباشر، إن حسن استغلالها وتوظيفها وهذا بالتأكيد يتطلب عمليات إصلاحية كثيرة، يجبر بها الخلل ويصوب بها الطريق، حتى تشرق صفحة الزوايا، وتعود لعطائها ونضالها كما كانت في سابق عهدها وهو الأمر الذي تنبه له علماء الإصلاح ورجاله في بدايات القرن العشرين ونخص منهم بالذات أعلام جمعية العلماء المسامين الجزائريين وحيث وجدنا لهم آراء ومواقف حول الزوايا الجزائرية[1]. وهذه الآراء في مجملها لا تخرج عن ثلاث اتجاهات: أما الأول منها فهو الاتجاه المسالم الشاكر لفضل ذوي الفضل من أعلام بعض الزوايا على قلتهم ويمثله كل العلماء المصلحين الذين اعترفوا بفضل بعض أهل الزوايا وعلمائها في بعض المناطق من البلاد. والثاني منها فهو الناقد والمرشد المتميز بالشدة والصراحة والصرامة يسميه بعض أهل زويا فضح وتشنيع وتشهير، ويمثل هذا الاتجاه الشيخ مبارك الميلي(رحمه الله) الذي كثيرا ما تطرق في كتاباته لنقد الزوايا في أساليبها ومناهجها التعليمية كما انتقد بشدة على القائمين عليها كل أمر مبتدع أو

(1) مبارك الميلي، التعليم الديني بالجزائر وحظ الزوايا منه، آثار الشيخ مبارك الميلي، جمع وترتيب: أبو عبد الرحمن محمد، ط1، ج1، دار الرشيد، الجزائر، 1433 ه/ 2012م، ص 106.

مخالف لثوابت الدين وأساسياته[1]. أما الثالث فهو الاتجاه الملح، الذي يرمي إلى إدخال تعديلات وإصلاحات على الزوايا وطرائقها ويمثل هذا الاتجاه الشيخ: أبي يعلى الزواوي(رحمه الله) حيث يعرض مقالاته لمشروعه الإصلاحي الخاص بالزوايا بقوله: لابد للزوايا من اصلاح وجوبا دينيا عليما واختصر في بيان الإصلاح الأول فأقول: من الضروري بلا أدنى تأمل لزوم:

- تعيين الهيئة الحاكمة المتصرفة في الزاوية أعضاء مسئولين ويكون دفتر حصر للدخل والخرج وينبني على ذلك عدد الطلبة المستطاع الإنفاق عليهم التصريح القانوني بمن يقبل من الطلبة للدخول في الزاوية من بيان السن والقدر اللازم من مبادئ القراءة والكتابة.

- تعيين المدة اللازمة لتحصيل الفنون والمعارف التي تقرأ في الزاوية ثم يعطي الطالب الاجازة عن أهليته في تللك العلوم التي أخذها والذي لم يحصل على الاجازة يخرج من الزاوية مكتفيا بشهادة حسن السيرة الإسلامية العربية والذي لم يحصل على شيء من ذلك كله يطرد ويخرج ليعمل فيما له فيه أهليته من الأشغال الضرورية لحياته.

- تعيين المدة اللازمة لتحصيل الفنون والمعارف التي تقرأ في الزاوية ثم يعطي الطالب الاجازة عن أهليته في تلك العلوم التي أخذها والذي لم يحصل على الاجازة يخرج من الزاوية مكتفيا بشهادة حسن السيرة الاسلامية العربية، والذي لم يحصل على سيء من ذلك كله يطرد ويخرج ليعمل فيما له فيه أهلية من الاشغال الضرورية لحياته[2].

- تعيين المدير القدير والمدير هو الذي يعين المدرسين: اثنين أو ثلاثة أو أكثر على قدر الطلبة وعلى قدر العلوم التي يقرر تدريسها في الزاوية.

- تعيين المفتش المعبل عنه في اللسان الفرنساوي (انسبيكتور) للاطلاع على سير الطلبة، وعلى أهلية ومقدرة كل طالب، والحال أن لكل طالب دفتر باسمه، يرسم له شيوخه مقدرته ومبلغه من العلم ويطلع على ذلك المفتش ليرى تقدمه، تأخره عند حضوره للزاوية مرتين أو ثلاثا في السنة، ثم بعد تمام المدة المعينة تعطى الاجازة للمتخرج ليحصل على الإجازة للمتخرج ليحصل على وظيفة الامامة في الزوايا والقرى والمدن وكذلك التدريس في العلوم

---

[1] مبارك الميلي، مرجع سابق، ص ص 106-107.

[2] أحمد الرفاعي شرفي، مقالات وآراء علماء جمعية العلماء المسلمين، دار الهدى، عين مليلة، 2011 م، ص ص 3-4.

التي أجيز عليها، والملاحظ أن الشيخ الزواوي يتكلم بلغة عصره ولذلك دعا إلى الأساليب التي كانت موجودة في زمانه فأكثرها كان مطبق في المدارس التعليمية الحكومية آنذاك وهو بآرائه النيرة هذه كأنه يريد أن يجعل من الزوايا معاهد أو شبه جامعات لتخريج الأئمة والمدرسين الموثوق فيهم وفي علمهم وكفاءتهم المهنية والأخلاقية، وبعد مضي ثلثي قرن تقريبا على هذه الاقتراحات نجدها مازالت صالحة للاستفادة منها حتى في أيامنا هذه، مع إضافة ما يتعلق بعصرنا علنا نحقق الإصلاح والتجديد المنشود قديما وحديثا ولا يتم ذلك إلا من خلال التالية:

أ- **العناصر الايجابية للزوايا وآليات المحافظة عليها:** من خلال إعادة أحياء مهامها وأدوارها التي كانت تقوم بها في عهودها المشرقة، إذا كان التصوف نزعة تميز بها الجزائريون في عهود الاضطهاد وأوجدت منهم شعبا مجاهدا قل مثيله في العصور الحديثة، فإن الزوايا تعتبر المؤسسات الشعبية التي مورست من خلالها حياة التصوف وتحققت بين أركانها تلك الروح الجهادية التي عملت على غرس الوعي الديني والتعبئة العقائدية التي اخرجت كتائب الجهاد للدفاع عن الدين والوطن ولهذا كان لابد من احياء هذه النزعة الصوفية الروحانية لمواصلة طريق الجهاد لحفظ الدين وبناء الوطن والنهوض به ولحماية أبنائه ونجدتهم في زمن سادت فيه المادية وخيم الفراغ الروحي حتى عند المتدينين منهم وبخاصة الشباب منهم الذين فقدوا الثقة في أنفسهم وفيمن حولهم وغمرهم اليأس ولعبت بعقولهم ابواق الأغراء والتخريب والفساد فصاروا غلى إحدى الهجرتين إما هجرة إلى الآخرة و بدايتها موت ظاهرة الانتحار وإما هجرة إلى وطن الأحلام الجديد و أكثرها ينتهي بالموت الحراقة[1].

إن أهم المهام الواجب إحيائها هي ما كان يتعلق بالتربية والتعليم والتحصين الثقافي والحفاظ على اللغة العربية والتقاليد الإسلامية والهوية الحضارية وبخاصة في هذا الزمن زمن العولمة وتأثيراتها السلبية على الهوية والموروث الثقافي للأمم والشعوب، ومخاطرها الفائقة التي تمس قضاياها التراثية الجوهرية، بما يهدد الهوية الوطنية بالتشويه والاضمحلال. والعولمة بمفهومها المعاصر تعني إحلال الاختراق الثقافي محل الصراع الإيديولوجي وهو

[1] محمد ناصر، المقالة الصحفية الجزائرية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1978، ص 76.

اختراق يستهدف العقل والنفس والتراث إنه مفهوم يترتب عليه تراثنا وهويتنا وبخاصة منها العربية الإسلامية.

فكان لابد أن تتكاثف الجهود والمؤسسات والجهات الفاعلة على تنوعها لإنقاذ ما يمكن إنقاذه، وخاصة إذا تعلق الأمر بشريحة الشباب التي تتقاذفها هيئات وجهات لا تحصى تبعدها عنوة عن كل ثابت وأصيل من هويتها، فمن الضرورة بما كان أن تتنوع الوسائل والمؤسسات الفاعلة لمواجهة كل ذلك، ومؤسسة الزوايا إحدى أهم الوسائل المتاحة.

لقد صاحب دخول الاحتلال موجة شرسة من الإرساليات التبشيرية، بدأ مع الكاردينال لافيجري واستمرت مع باقي الجمعيات التبشيرية من بعده، من "كاثوليك" و "بروتستانت" لتتم ما بدأه، فقد بدل المبشرون في سبيل تنصير أبناء المسلمين الجزائريين ووسائل جمة و أموال طائلة وبطرق عدة، ولكنها باءت كلها بالفشل الذريع، ووجدت من المسلمين مقاومة صلبة وحذرا متيقظا وقد كانت الزوايا والطرق الصوفية هي إحدى أهم البواعث لهذا النوع من المقاومة وهي المقاومة التي نرمي لإحيائها وبعثها من جديد لمكافحة هذه الهجمات التبشيرية التي تتعرض لها مناطق كثيرة من الوطن ولما لا خارجه كذلك، يجب استثمار هذه الاعمال النوعية باستخلاص مناهجها وأساليبها وتطورها بما يناسب العصر ومتطلباته وحتى نتمكن من مواجهة الهجمات التبشيرية كيفما كانت وحيثما حلت. إن العلماء الذين تخرجوا من هذه الزوايا هم الذين حافظوا على الإسلام والعربية في الجزائر، وجعلوا من الإيمان والعقيدة قوة فاعلة استطاعت أن تصد محاولات المستعمرين لاختراق الشخصية الإسلامية وتشويهها، وكم نحن بحاجة غلى ربط الجزائريين بدينهم ولغتهم ولأن المؤسسات التعليمة الحكومية لن تستطيع بمفردها أن تحقق ذلك[1].

- استرجاع الدور الاجتماعي والأخلاقي للزوايا، وبخاصة فيما يتعلق في المحافظة على الأخلاق والسلوكيات العامة والإصلاح بين الناس في المجتمع.

- استغلال المؤسسات الوقفية وحسن استثمارها لفائدة العلم والتعليم والعمال الاجتماعية الخيرية المتنوعة وذلك عن طريق تكليف مختصين يتميزون بالكفاءة والخبرة الكافية في إدارة الأوقاف وتشغيلها وفق الشروط الشرعية والقانونية والاقتصادية والعلمية.

[1] محمد ناصر، المقالة الصحفية الجزائرية، مرجع سابق، ص 138.

ب- **العناصر السلبية وكيفية تفاديها:** بتجنب عثراتها ومواطن الضعف فيها وأسباب انحرافها: إن أكثر ما يحسب على العديد من الطرق والزوايا هو ابتعادها عن التصوف السني، وخوضها غمار التصوف المبني على البدع والخرافات، حتى آل أمر بعض الزوايا والطرق إلى إحداث وثنية في الإسلام بنشر الشرك ومظاهره باستغلال جهل العوام وسذاجة عقولهم، فلابد من تنقية عباداتها من كل ذلك ليعود لها التأثير المأمول في إصلاح هذا الوطن.
من الأمور التي تحسب عليها كذلك، إتباع المناهج والمقررات العتيقة والجمود عليها، فيجب الخروج عن هذه الدائرة المفرغة، والانفتاح على المناهج والمقررات الحديثة التي تتماشى وروح العصر ومميزاته، ومما يحسب عليها كذلك انغلاقها على نفسها وعدم التعاون والتشارك مع غيره من المؤسسات المختلفة العلمية منها أو الثقافية، كذا انعزالها عن ساحة التأثير الاجتماعي، يؤخذ على الكثير من الزوايا تكريسهم للمذهبية والقبلية والطائفية، مما يزيد من أسباب الخلاف والاختلاف بين الزوايا أنفسهم أو مع غيرهم.
- استغلال كنوز الكتب والمخطوطات المحبوسة على الزوايا ولا يسمح بتداولها بين طلبة العلم والباحثين، وهذا من خلال مشروع وطني مشترك بين الزوايا ووزارة التعليم العالي يعمل على فهرسة هذه الكنوز وتوفير وسائل الحماية لها، مع تمكين الباحثين منها وفق الشروط القانونية والعلمية المعمول بها في جميع دول العالم يؤخذ عليها كذلك عدم استغلالها للأملاك الوقفية بطرق حديثة ومفيدة.

ج- **ضرورة الاستفادة من معطيات العصر:** على تنوعها ويدخل فيها مختلف وسائل الادارة والتسيير والتعليم والاتصال المتداولة حاليا من أبسطها الى أعقدها ويدخل فيها كذلك استعمال لغة هذا العصر واصطلاحاته وطرائقه لاستقطاب فئة الشباب خاصة كما يجب الاستعانة والاستفادة من خبراء ومختصين في ميادين عصرية لا يمكن ايجادها بين أهل الزوايا.

10- الوظائف المؤسسة للزاوية:

مثلت الوظائف المؤسسة للزاوية الصورة المثلى لهذه المؤسسة فالزاوية كانت في الأصل مدرسة ومقر استرشاد ومستودعا مؤمنا ومحلا لإطعام الطعام وملجأ أمان، بيد أن هذه الوظائف وبقدر ما كانت تعبر عن أدوار محددة بقدر ما كانت تخفي في طياتها أسرار تطور الزاوية وتفاعلها مع المجتمع والسلطة على حد سواء، كما أن تلك الوظائف لم تكتسب قيمتها

الفعلية إلا حين تمكنت الزاوية من تقوية رساميل رمزية وسلطات معنوية، وسعت من نفوذها وأدوارها داخل المجتمع وهو ما وفر لها مسؤوليات دنيوية ودينية.

انتهت الزاوية عبر تطور وظائفها المختلفة إلى أن تصبح مكونا ضروريا في توازن المجتمع المغربي**ن** فقد جمعت بين ما كان ينشده الناس من أمان وحاجيات العيش، وما تنشده السلطة من استقرار سياسي واجتماعي. وتكبر أدوار الزاوية لتنازع السلطة وتجد لتفي بالأقل في حدود الجماعة، تنطلق كمركز للإرشاد العلمي والصوفي لتنتهي إلى دائرة السياسة بكل ملابساتها المختلفة. قد تفقد الزاوية كل وظائفها (تعليم / تربية صوفية) لكن أدوارها السياسية تظل مطلوبة، لتبدوا وكأنها مجرد اداة سياسية تعززها مبررات التقديس المؤدية إلى تزكية رمزية للأدوار الجديدة (السياسية) فيبدوا الباعث الصوفي في نهاية الأمر مجرد ذكرى في معمعان السياسة بسبب ذلك، تطور الجهاز الصوفي لدرجة اعتبره البعض "مشروع دولة مثالية دائم الوجود"[1]. أعطى لدور الصوفي تشكيلا متجددا وجعل من مؤسسته مكونا من مكونات الدولة, تتطور بتطورها وتتميز بتراجعها، وهو ما أفضى في النهاية غلى حاجة الدولة لهذا الجهاز وحاجة هذا الأخير للدولة, وهي العلاقة التي تأصلت وتقوت حسب منظور كل طرف للآخر، فيما يبدو أنه تنافس مبطن حول المشروعية الرمزية لتمثل الزعامة داخل الجماعة، لكن في المقابل يمكن النظر إلى ذلك من زاوية تبادل الأدوار فالجهاز الصوفي يكمل الأداء السياسي فيما يضمن هذا الأخير للثاني الاستمرارية وآليات الامتداد.

10-1- سلطة الكرامة في تثبيت الفعل الصوفي:

مثلت الكرامة سلطة الولي على غيره وحجة مبينة لتزكية ولايته وصلاحه، وبفعل الأثر الايجابي على الجماعة التي حملت على تصديقها، تسلب الكرامة من واقعيتها المكتسبة من أدوار الصوفي المحققة وبسبب حاجة الناس لتجاوز ازماتهم الذاتية أو تلك المتصلة بأوضاعهم المجتمعية، لذلك ظلت الكرامة الصورة المعبرة عن مظاهر الأزمة وتطلعا "افتراضيا" لتجاوزها. وبالرغم من تعدد أوجه الكرامة وفعل أصحابها تظل انعكاسا حقيقيا

[1] الشاذلي عبد اللطيف، التصوف والمجتمع، نماذج من القرن العاشر الهجري، 1989، ص 125.

لأوضاع مجتمعية محققة، وإن عبر تعلق بها في صور مستحيلة الوقوع ويتواتر اعتقادي جعلها جزءا من ثقافة المجتمع، بالرغم من ان الكرامة فصلت عن جسمها الواقعي لتكون لازمة في المعتقد الصوفي بما عبرت عنه من سمو ورفعة صاحبها عن كل ما يشارك به العوام من صفات ملحوظة، فإنها مع ذلك ظلت أداة لتثبيت الفعل الصوفي فمن خلالها يفلح الصوفي في تحكيمه واسترشاده وتعليمه وتأمينه للمظلوم ونجاحه في الأدوار يكسبه رهبة ويزيده هبة وتعظيما[1]. وبالتالي يتحول هذا التفوق الواقعي الى تمثل رمزي يتجاوز تأثيره حدود الإدراك الحسي، تبدو إذن الشروط الواقعية الرمزية التي انطلقت منها الزوايا المعيار المحدد لمصداقية اعتقاد الناس في الكرامة كما أن هذا الاعتقاد سيترسخ باستمرارية بأداء الزاوية لأدوارها وبما تحمله لها الظروف من نجاح وفلاح في المقاصد الرمزية والدنيوية على السواء. تسأل الكثير عن ثنائية الصلة بين الكرامة والزاوية ومن منهما يؤسس للآخر؟ تبدو الاجابة دون جدوى إن هي أخرجت الكرامة من الفعل الصوفي المحقق وجعلتها كما ارتضى لها الكثير من علماء التصوف أن تكون خراجة عن العادة وفي مرتبة تلى معجزة الأنبياء[2]. إن الدعائم الأساسية لقيام الزاوية لم تخرج عن ضروريات الحياة الفعلية فالزاوية ظلت منذ ظهورها مركزا لإطعام الطعام وحاجة في أقات المجاعة والقحط او حتى عند الخصاصة العادية، لذا أضحي الإطعام ملازما لها وميزة عامة لحياة روادها وسلوكا صوفيا يحتذي به المريد بعد شيخه، حتى بلغ الأمر درجة اعتبر فيها الاطعام رمزا لكرامة صاحبها[3] تمنحه سلطة رمزية بسبب كثرة المستفيدين منه وقلة المتوفر من الطعام خصوصا في مجتمعات عانت من النقص في الانتاج وتوالي الازمات حولت هذه الوضعية الزاوية الى مؤسسة اجتماعية لرعاية المحتاج وعابر السبيل فكان من ضروريات هذه الوظيفة أن تكون لها أملاك خاصة بها أو محبسة عليها تستثمرها للوفاء بهذه الالتزامات ولتغطية الخدمات المجانية لتتوسع في الحصول على الصدقات والهبات والزيارات[4].

---

(1) التوفيق احمد، مساهمة في دراسة المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر(اينولتان 1850-1912)،ج2، البيضاء منشورات كلية الآداب، بالرباط، 1978، ص 94.

(2) ابن الزيات يوسف الشاذلي، التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي، الرباط، منشورات كلية الآداب بالرباط الباب التاسع في اثبات كرامات الاولياء 1984، ص ص 54-55 .

(3) ترجمة الافراني محمد السوسي، صفوة من انتشر من اخبار صلحاء القرن الحادي عشر، ص 199.

(4) التوفيق احمد، المرجع السابق، ص 93.

وبحكم وظيفة الاطعام رأى البعض في مؤسسة الزاوية نوعا من "مؤسسات جيش الخلاص" الحالية[1]، استطاعت بوظيفتها هذه أن تحول استقطاب المحتاجين الى جاذبية الشيخ ومقره، وبالطبع حصل كل هذا في سياق حركة منظمة محكومة بهاجس التبرك و"الزيارة " وما يفرضانه من طقوس وعطاءات مادية، فتحول الباعث المادي الى مسلك لإكساب الزاوية شروط السلطة الرمزية ومقومات الثراء المادي بحكم تسامح القبائل مع الزوايا في توسيع ممتلكاتها لأنها تلجأ إلى إطعامها عند الحاجة[2]، فمنهم من رأى في شيخ الزاوية مجرد فقيه أو طالب علم أخذ ببعض مبادئ الشريعة وحفظ القرآن، ليتمثل في وسطه صورة العالم المتمكن في مجال أمي وبالتالي تكون أفضليته نسبية بحسب أمية المجال[3]. وبحسب نفس الرأي فإن هذه الثنائية تتم عبر قناتين فالزاوية غالبا ما تلجأ إلى إضفاء شرعية النسب على شيوخها لتثبيت ارتباط مجالها القبلي بالشرع، وهو تأكيد صريح على أن أداءها العلمي والصوفي وفق تلك الشرعية،يدمجها في النسق السني الذي يحرص الشيخ على جعله علامة مميزة لعلمه وبالتالي ربط ذلك العلم بالإسلام الشرعي.

وهي حجة تحمي الزاوية من كل محاولات إخراجها عن نطاق المشروعية الدينية والسياسية كذلك، وبالتالي توفر لأدائها العلمي الحماية والبقاء ضمن الجماعة، بالطبع قد تكون هذه الآراء معبرة عن نظرة عامة للزاوية في عموم ادائها و بصرف النظر عن التجارب المحددة , لكن هذا الأداء لم ينظر إليه من طرف المخزن أو العلماء والفقهاء بنفس الصورة، وكثيرا من الأحيان ما تم تقييمه خارج نطاق الشرع نفسه[4].

فكثير من شيوخ الزوايا تم ابتداعهم وعانى بعصهم من التعذيب والامتحان وتمت مناظرة البعض الآخر من طرف العلماء، إنها المراقبة المسترسلة للأداء العلمي للزوايا، ونظر المخزن والعلماء إليها لا يمثل نهجا في إقصاء أدائها بل هو محاولة لضبط آليات التحكم في وظيفة التعليم وبالطبع في الاداء العام لسلطة الزاوية.

10-2- حرم الزاوية أو المجال المقدس لرمزية الزاوية:

(1) ابن الزيات يوسف الشاذلي، مرجع سابق، ص 125.
(2) التوفيق احمد، مرجع سابق، ص 94.
(3) ظريف، "مؤسسة الزاوية بالمغرب الإسلامي"، المجلة المغربية لعلم الاجتماع السياسي، ص 55.
(4) التوفيق احمد، مرجع سابق، ص 92.

من الوظائف التي شكلت ركيزة اساسية في تمثل الزاوية للسلطة الرمزية، وظيفة الحرم أو المأمن المقدس، فقد مارست الزوايا على الدوام هذه الوظيفة الحساسة حتى صارت في الاعتقاد الشعبي سلطة لا تنازعها في ممارستها أي سلطة أخرى مهما كان وزنها أو تأثيرها. وأثبتت الممارسة أن مجال الزاوية، وبالخصوص ضريح وليها وكيفما كان حجمها وظل مجالا حرما وملاذا لكل معتصم مهما كانت دواعي التجائه أو اعتصامه حتى وإن كان جانبا أو مجنيا عليه[1]، كما آوت الزاوية بحرمها أمن الناس "اتجاه كل ظروف الخطر أو الخوف أو الجور، مهما كانت مصادرها اتجاه الطبيعة والجارح من الحيوان أو البشر. لكن أكثر أنواع الحماية وأشدها أثرا في الناس هي تلك التي تضع بين الفرد وبين السلطة حجابا[2]، والحرم في عرف الزوايا لا يقتصر على ضريح الولي، بل شمل كل حدود الزاوية وأحيانا مجالات نفوذها من عزبان وممتلكات محبسة وخاصة، إذا كان نظر شيوخ الزوايا لمسألة الحرم يعتبر من مكوناتها المقدسة والتي لا يجب خرقها، فإن للمخزن على الدوام مبرراته لفحص هذه النظرة وأحيانا لتصحيح مدلولاتها الشرعية والسياسية كذلك [3].

رغم ذلك ظلت الزاوية تحتفظ لنفسها بهذا الحق المكتسب حتى بين الأمراء المتنازعين، حيث آوت الكثير من أدعياء العرش أو الثائرين من الأمراء واستثمرت على طول الوقت حمايتها لتقوية نفوذها بالتشديد في الحرص على جعل الحرم من مهامها الأساسية وبفعل هذا الحرص رأى بعض المؤرخين أن مسألة حرم الزاوية شكلت واحدة من أهم وظائف الجهاز الصوفي وأكثرها خطرا بل تبقى في نظرهم رمزا لممارسة الزاوية لسلطة تنظيمية واضحة، خصوصا وأن هذه الممارسة استوجبت بحسب دور الحماية تنظيما محكما، عبرت عنه التشريعات الرسمية نفسها، التي ألزمت بتمكين الزاوية من تلك الوظيفة على الأقل لكونها كانت تخدم دور السلطة في الكثير من المنازعات عبر توفير ظهائر التوفير والاحترام، وما كان يترتب على اكتسابها من نفوذ وتمثل لسلطة فعلية في نطاق الزاوية[4].

10-3- وظيفة التحكيم أو "الاستقلال المفترض":

(1) التوفيق احمد، المرجع السابق، ص 92.
(2) نفسه، ص 94.
(3) ابن الزيات يوسف الشاذلي، المرجع السابق، ص 188.
(4) ابن الزيات يوسف الشاذلي، المرجع السابق، ص 188.

من الوظائف الأساسية التي اضطلعت بها الزاوية وظيفة التحكيم، والتي لم تكن أقل أهمية من باقي الوظائف السالفة، بل لعل أكثرها حساسية وأفيدها لسلطة الزاوية، فقد مكنت سمات المرابط ووضعه الاعتباري من جعله وسيطا مقبولا وحكما ترتضي لوساطته كل الأطراف، بل كان عامل وفاق وفصل في كل ما كان ينشأ من نزاعات أو خلافات قبلية أو سياسية، وتقوم وظيفة التحكيم على مبدأ المسلمة، الذي ميز نشاط الولي وقناعة المتنازعين في الاعتراف له بهذه الصفة التي منحته قدرا كبيرا من الجرأة التي رأى فيها الكثير نوعا من المكاشفة في أمور الدنيا، وهو ما يزكي في الغالب رأيه ويجعل كل الأطراف تقبل وترضى بأحكامه[1]، هي في منظور أصحابها كرامات ظاهرة تسهل حل ما استعصى حله بطرق سلمية وبحكمة ربانية، وهو ما يمثل عنوان بركة الولي الخفية ومفتاح توفيقه. لم ينحصر دور المرابط التحكيمي على الدوام في أمور السياسة وقضاياها أو في النزاعات الضيقة، بل شمل كذلك أمور العلم والفقه وأحيانا العلوم الشرعية، على قلة علم الكثير من المرابطين، ولم يكن هذا الأمر سبيلا للطعن في دورهم فمثلا صادفنا تحكيم مرابطين محدودي الأثر في الفصل في أمور العقيدة ومع ذلك ظل تعلق الناس بهم في هذا الجانب أمرا ثابتا، إلا أن الذي استأثر بدور المرابطين التحكيمي ظل الفصل في قضايا ذات صبغة دنيوية، إذ تحولت الزوايا إلى ما يشبه " محكمة للفصل والصلح وترتيب المواثيق وضبط الاتفاقيات وبسبب هذا الدور غالبا ما أجبر السكان على الإذعان لسلطة المرابط القضائية إما رغبة أو رهبة[2]، وبالرجوع إلى دراسات الانتروبولوجيين نلاحظ أن وظيفة التحكيم كانت إحدى القضايا التي استوقفت نظرهم في وظائف الزاوية، مما جعلهم يعملون على تشخيصها وضبط آلياتها إلى حد اعتبارها الوظيفة الأكثر فاعلية في أدوار الزاوية، باعتبار أثرها السياسي والمكاسب المترتبة عليه لفائدة الزاوية. فظاهريا يبدو تحكيم المرابط شيئا مألوفا في المجتمع المغربي القائم على قاعدة التمايز القبلي بسبب مكانة المرابط ضمن الهرم الاجتماعي العام وعدم ارتباطها الفعلي نظريا بأية مجموعة قبلية بعينها، كما أن دوره كان مرغوبا فيه من طرف كل مكونات هذا المجتمع، لكن واقع الحال لم يكن ليقصي المرابط ومؤسسته الدينية من

(1) التوفيق احمد، المرجع السابق، ص 93.
(2) التوفيق احمد، المرجع السابق، ص 93.

المغامرة السياسية أو الانحياز، وهذا ما يضع مسألة حياد المرابط التي دافع عنها الانتروبولوجيون موضع الشك والتساؤل. فقد اثبتت التجارب تورط العديد من شيوخ الزوايا في مغامرات سياسية أو عسكرية مكشوفة كانت ورائها ضروريات سياسية أو اقتصادية، وبالتالي تبدو وظيفة التحكيم المبني على قاعدة الحياد أمرا نسبيا، بل هناك من جردها حتى من طابعها الرمزي المعترف به من المجتمع وجعلها مجرد استعانة، إما من جهة المخزن أو من جهة القبائل بمن كان مقبولا ومؤثرا وليس مالكا لحق التفرد بها[1]، بالرجوع دائما للنظرية الانقسامية نستشف البعد النمطي في النظر للدور التحكيمي للأولياء، ذلك أن توازن العنف وما تفرضه وظيفة التحكيم التي يقوم بها الصلحاء من الاعتدال، هما العملان الضامنان للنظام داخل المجتمع الانقسامي ولقدر من الأمن والاستقرار مما يجعل من هذه الوظيفة مكونا ضروريا في مجتمع تنعدم فيه التراتبية وتقسيم العمل كما أن نظام هذا المجتمع الرئاسي ظل ضعيفا وبالتالي تعمل هذه البنية الانقسامية ونفوذ الصلحاء على الحد من سلطة رئيس القبيلة. ووجود الولي في منأى عن النزاعات الانقسامية يجعله ضامنا لاستمرارية مجتمع مهدد بالانفجار من جراء تلك النزاعات، كما يمثل صلة وصل بين القبائل والجماعة الإسلامية، ووفق نفس النظرة، فإن الأولياء هم الذين يضمنون الاستقرار داخل بنية غير مستقرة ويمتصون مخزون اللامساواة الكامن لدى فئات العوام[2]، يبدو من خلال النظرية الانقسامية غياب للسلطة أو صور لتمثلها من جهة وإقصاء الأولياء عن نطاق السياق الاجتماعي[3].

واعتبارهم مجرد كيان موازي للبنية الاجتماعية لوجودهم داخل نظام تراتبي وهرمية معترف بها، ولدحض التأويلات الانقسامية المتعلقة بسكونيه الحياد المفترض للصلحاء وجنوحهم الدائم للسلم، انبرى أكثر من مهتم بتجارب الزوايا الى من خلال نماذج حية، كشفت عن انخراط العديد من شيوخ الزوايا (زاوية احنصال والدلاء مثلا) في نزاعات من

---

(1) عبد الله العروي، خواطر الصباح ، يوميات (1967-1973)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت،2001 ص141.

(2) كلنير ارنست، السلطة السياسية والوظيفة الدينية في البوادي المغربية "ضمن الأنثروبولوجيا والتاريخ" ،2001، ص ص 43-59 .

(3) الحمودي عبد الله، الانقسامية والتراتب الاجتماعي والسلطة السياسية والقداسة ملاحظات حول أطروحات كلنير، ص ص 60-86.

أجل تثبيت سلطة زواياهم الدنيوية و سعيهم لتحويل رأسمالها الرمزي الى فعل سياسي مؤسس، من الباحثين الذين ردوا بقوة على منظري الانقسامية في هذا الجانب، عبد الله الحمودي الذي يقترح تناول انخراط بعض شيوخ الزوايا في معمعان المواجهة الدموية في سياق صيرورتها التاريخية وذلك بتمييز هذا الانخراط ضمن مستويين اثنين: أ.محلي، ويتمثل في نشاط الولي لتكوين شبكة من الموالين والأتباع، يلتزمون بالحياد إزاء الصراعات المحلية لكسب الأنصار وفيه يكون التحكيم من أهم الوظائف التي يباشرونها وتشكل المسالمة أبرز سمات الصلاح، أما المستوى الثاني فيأخذ بعدا جهويا أو وطنيا يخوض فيه الولي مغامرة على نطاق واسع، حيث يتم التخلي عن وظيفة التحكيم التي تصبح ثانوية[1] ويعزو هذا التحول إلى الالتباس الموجود بين القداسة والسياسة والذي يستغله المرابط استغلالا ذكيا، يجعله يباشر الدعوة ويجهز الجيوش ليخوض بعد ذلك مغامرة الحكم، تحيلنا المغامرات السياسية لبعض شيوخ الزوايا الى منظور مؤسس سنه الحكام السعديون الأوائل، وخصوصا محمد الشيخ المهدي حين باشروا سياسة قمعية ضد أرباب الزوايا المتصدرين للمشيخة بدعوى الخوف من تحول دورهم الصوفي إلى بدرة للدعوة وركوب السياسية، وقد أحسن بعض المؤرخين القريبين من الأحداث، محمد الافراني على وجه التحديد في تقدير نوايا الأمراء السعديين حين برروا تخوفهم من أن الامارة السعدية نفسها انطلقت الى السياسية مت تربة الزاوية بل لم يقدر لها النجاح إلا بدعم قوي وتعبئة منظمة من شيوخ الزوايا الجزوليين[2]، وبالطبع قد تمثل هذه التجربة احالة صريحة للالتباس المتحدث عنه سلفا بين القداسة والسياسة، ارتبطت وظيفة التحكيم في بعض صورها بقاعدة حرم الزاوية حيث كانت الزوايا في الكثير من مناطق المغرب تمثل مراكز آمنة لتشييد المخازن الجماعية وعقد الأسواق الأسبوعية ومرور المسالك التجارية وهي الوضعية التي أهلتها لتبوؤ مركز وسط بين القبائل وامتلاك سلطة معنوية لفض النزاعات المحلية أو ذات الطبيعة التجارية[3]، كما كانت تسهر على ضمان حركة التنقل بين مجالات الرحل والمستقرين وكثيرا ما اتخذت

(1) الحمودي عبد الله، نفس المرجع، ص 75.
(2) الافراني محمد السوسي، نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1998، ص ص90-91.
(3) الشاذلي، المرجع السابق، ص 123.

بعض مواقعها نقاط تماس جغرافي بين الكتل القبلية وقد جلبت هذه الأدوار للزاوية سمعة واحتراما وباعتبارها من الأدوار التي كانت تدخل في اطار التوازن العام للمجتمع فقد تمت مكافأتها على ذلك لكونها لم تكن تمارس مهمة التحكيم والوساطة بالمجان. فقد تحصل شيوخ الزوايا لقاء ذلك على "امتيازات مالية وغير مالية فهم معفون من الضرائب ويتلقون الزكاة والأعشار في مجموعتهم ويتمتعون بإقطاعيات وعناية سياسية"[1]، وحملتهم هذه الوضعية إلى مستوى جديد قد نتلمس فيه تمثلا مبطنا للسلطة باعتبار أن شيخ الزاوية أصبح موظفا تابعا للسلطة السياسية وفي أبسط الأحوال جانبا للضرائب متقاضي لأجرته وفي مستوى أدنى ضمن بنياتها السياسية[2] إذا كان الأمر يبدو كذلك فإن هذا التمثل للسلطة لم ينظر إليه بنفس النظرة من كلا الطرفين المخزن والزاوية فقد أظهرت التجربة أن الزاوية كانت تحرص على الظهور بمظهر المستقل عن إرادة المخزن وأن ما كانت تتحصل عليه من امتيازات مخزنية ما هو إلا نصيبها من خدماتها المجتمعية المنسجمة مع النسق العام للبيئة المحلية وللتقاليد الدينية وبالتالي لا يعني خضوعها لسلطة المخزن الارتباط العضوي به بل أن ذلك الارتباط كان نابعا من القواعد الشرعية للحكم في الإسلام المؤسسة على شروط الإمامة وهي على كل حال نفس القواعد التي تمنح حق الاعتراض على ما قد يكون خروجا عن الشرع لمن شاء من رعية الأمة المتمكنين. وهنا تظهر في الغالب مواقف الصلحاء في معارضة السلطة السياسية وهي المواقف التي تمثل في الواقع ردود أفعال منسجمة مع البيئة الفكرية المعاشة والتي تمنحهم سلطة الرقابة وحق المعارضة ضد جور العمال وتطاول على حقوق الناس عبر سلطتهم الروحية وبأسلوبهم الخاص والمتمثل في الكرامات والمناقب وهي اساليب تبعدهم عن المجابهة السافرة التي قد تجرهم نحو متاهات غير مضمونة بينما تكسبهم اساليبهم المسالمة مزيدا من الاعتبار وولاء الأتباع وحيطة المعارضين، وبهذا الأسلوب المسالم تمكنت الزوايا من تثبيت سلطتها الرمزية و تقوية قدسية مواقف شيوخها، ولعل من النتائج المباشرة لذلك توسيع فرص الامتداد واكتناز المزيد من الرساميل الرمزية ضمن مجالات نفوذ الزوايا وبدل أن يظهر شيخ الزاوية مجرد حكم يأوي إليه المتنازعون، أصبح

---

[1] الشاذلي، المرجع السابق، ص 123.

[2] مفتاح محمد، (التيار الصوفي والمجتمع في الأندلس والمغرب أثناء القرن الثامن الهجري)، أطروحة دولة مرقونة، كلية الآداب، بالرباط، 1981، ج1، ص 80.

مدافعا عن حقوق جماعته ضد السلطة أو ضد من يمثلها، وبالتالي تعزز مكانته وتقوي لديه القناعة في المزيد من الاستقلالية عن المؤسسة السياسية

4-10- الاحتواء المخزني لأداء الزاوية:

هناك نقطة مشتركة جمعت بين سلطة المخزن وسلطة الصوفية، وهي نفسها التي فرقت بين رؤاهما فالسلطان وباعتباره شريف النسب، ظل مرجع الاحتكام وفوق كل اعتبار سلالي، فهو نظريا فوق الجميع في حين ظلت قمة سند الصوفية بدورها متصلة ومتواترة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم من حيث انتساب الكثير من الصوفية إلى آل البيت وتطويع طرقهم لأن تكون استمرار للنهج النبوي، وهنا بالضبط سوف تتقاطع النوايا حول النقطة الجوهرية في هذا التماثل، وهي المشروعية المتنازع عليها بين بعض السلاطين وبعض المرابطين حول السلطة، وهو نزاع غالبا ما حسم إما بإرادة السلطان العسكرية أو بتسليم المرابطين بالرضى والقبول المبني على حق الخليفة على رعاياه، جاء في رسالة من السلطان المولى إسماعيل إلى ولده مولاي أحمد الذهبي "عامله على تادلا بعد وفاة المرابط سيدي سعيد أحنصال يخبره بأن أولاد هذا الصالح قدموا إلى حضرة السلطان...، وقد عرفناهم بحق الخلافة وما يجب عليهم من محبتها، فإنها هي ربحهم ولا ربح من المرابطين إلا من كان يحب الخلافة التي هي ظل الله بأرضه، إن هذا الترغيب الواضح في حب الخلافة ما هو إلا مظهر لرقابة المخزن على الزاوية وجنوح نحو نزع أي صفة رمزية قد تتمثلها خارج دائرة سلطته، وهو ما كان يعني وضع " خطوط حمراء" في ممارسات الصوفية. والأكيد أن هذا التنافس بين الطرفين ظل حاصلا وإن في نطاق خفي، لأن إعلانه لم يكن إلا المبرر الشرعي لضرب الطرف الأضعف في المواجهة، والذي طل بالطبع هو الزاوية على الدوام. يقودنا هذا الاستنتاج إلى المنظور المخزني العام الذي تحكم في علاقة الزاوية بالجهاز السياسي والقائم على التنازل لها عن الحق في تسيير شؤونها وفي الوقت نفسه التحكم في الأدوار المفترضة في أدائها وحدود حركتها، ولتبيان هذا المنظور المؤسس نستدل الإيضاح بواقعتين لهما أكثر من دلالة، تتعلق الأولى بطلب شيخ الزاوية الوزانية(عبد السلام الوزاني سنة 1884) للحماية الفرنسية والثانية بطلب مماثل من شيخ الزاوية المصلوحية (محمد بن سعيد المصلوحي سنة 1893) للحصول على الحماية الإنجليزية. إذا كانت

الواقعتان المذكورتان تنطويان على موقفين مختلفين، فإن ما يهمنا هنا بالذات هو الموقف المخزني منها، فقد قدم كل شيخ زاوية ما يثبت " شرعية " طلبه للحصول على الحماية الأجنبية من وثائق خاصة وظهائر توقير واحترام وظهائر الإقطاع ولإنعام ورسوم التمليك وكان الشاهد على حجية هذه الوثائق هو قنصل الدولة الحامية. كما لوحظ أن التبرير المقدم من طرف كل شيخ كان واحدا وواضحا "لقد أراد المخزن أن يسلبنا حقوقنا وحقوق زاويتنا المكتسبة بالشرع"[1]. شكل هذا التبرير محاولة ذكية لانتزاع حق الحماية ضدا على إرادة المخزن، الذي عارض موقف الشيخية بالحجة الدامغة وبأسباب كثيرة، أولها وأهمها أن شيخ الزاوية ما هو إلا "أحد أعيان الجند ولا فرق بينه وبين من هو منخرط في سلك المخزنية وبالتالي لم ينظر لأدائه، سواء بالتكليف أو التفويض أو التحكيم إلا بإرادة صريحة من المخزن "فكان شيخ الزاوية المصلوحية من جملة من كلفناهم من المرابطين والأعيان لندبهم لسلوك مسلك الصلاح. بل بين المخزن بكل وضوح دواعي رفض الحماية لشيخ الزاوية أما دعوى الحماية، فقد أجاب عنها سيدنا أيده الله بأنه لا يخفي أن الشروط حاكمة بأن جميع من كان متلبسا بالخدمة المخزنية بأنواعها كائنا من كان لا يسوغ حمايته سواء كان عاملا أو أمينا أو شيئا أو مقدم زاوية، وهذا المصلوحي كان مقدما على الزاوية بالأمر الشريف حسبما هو مقرر معلوم وفهو أحد الولاة يعمه ما يعم سائرهم وقد تعلقت به حقوق للرعية وللمخزن فبل يسوغ تسليم حمايته[2] بنزعه لكل صفة شرعية عن دور شيخ الزاوية يكون المخزن قد حدد منظوره الخاص الوظيفة شيخ الزاوية، والذي لا يعدو أن يكون مجرد خادم من خدام الحضرة السلطانية ومنخرط في سلك مخزنها والزاوية بهذه الصفة لن تعدو أن تكون مجرد أداة مخزنية غير مستثناة من أداء سائر دواليب الدولة، مع ما ينطوي عليه هذا المنظور من ضرب صريح لاستقلاليتها المفترضة أو لجنوحها المحتمل نحو تمثل سلوك سياسي منفرد. ولعل ما يدعم هذا المنظور الاحتوائي للمخزن هو ما استجمعته الزاوية من ثروات كانت في أغلبيها مستخلصة من أدوارها السياسية والدينية، وهي في الغالب الأعم من تنازلات المخزن تحديدا، فلم يكن بمقدور زاوية وزان او زاوية تامصلوحت مراكمة ما وصلت إليه ثروتهما

[1] التوفيق احمد، مرجع سابق، (رسالة للمولى اسماعيل إلى ولده أحمد الذهبي)، ص 80.
[2] أحمد بن موسى إلى محمد اللبادى، (5 شوال 9/1314 مارس 1897، ضمن دراسة بن الصغير خالد المغرب وبريطانيا العظمى ما بين 1886 و 1904)، أطروحة دولة مرقونة كلية الآداب، بالرباط، 2001، ص 485.

العقارية إلا بفضل عطاءات المخزن العديدة والمختلفة المصادر. من الواضح أن المخزن كان على وعي تام بهذه المقايضة المربحة للطرفين، كما أنه كان حريصا على جعلها مسترسلة ودائمة من خلال إكساب الزاوية المزيد من الامتيازات والحقوق المكتسبة بموازاة مع استمرار ولاء الزاوية وأدائها الناجح للأدوار المحددة، سواء كانت مؤقتة (انتداب للصلح) أو مهام ذات صفة مخزنيه كتعيين شيخ الزاوية في مهام رسمية، كما حصل مع شيخ الزاوية الوزانية علي بن الطيب، حين ولاه المولى سليمان نائبا عنه بمنطقة الشمال وحدد له مهامه بوضوح[1] ،لعل من اهم الوسائل التي ظلت تحفظ وتقيد التوازن بين سلطة المخزن والزاوية الظهائر المخزنية الممنوحة لشيوخها، فبمجرد قراءة مضامينها نتبين أنها كانت عبارة عن مواثيق حقيقية بين المخزن والزاوية، فالظهير وإن كان يبدو وكأنه حماية معنوية للزاوية ولشيخها، فهو اعتراف سياسي له مدلولاته التي تخفي صورا مختلفة الوجوه، منها على وجه التحديد الصفة الالزامية لتجديده كلما اعتلى سادة الحكم سلطان جديد، وهو مطلب الزاوية على الدوام لحفظ مصالحها وامتيازاتها وربما سعيها لاكتساب المزيد منها، وبالمقابل يكون الظهير المجدد ردا ايجابيا من المخزن لاعتراف الزاوية بشرعية السلطان الجديد، وبالتالي يتحول الظهير الى ما يشبه الميثاق السياسي الذي يحفظ للمخزن ولاء الزاوية في مقابل تعزيز مكانتها داخل مناطق نفوذها الروحية والقبلية. وبما أننا أصبحنا نتحدث عن ميثاق ضمني، فإن الأدوار المفترضة للزاوية لا تتم إلا عبر ما أسماه البعض بـ "التوكيل المخزني" وإن لم يكن هذا التوكيل صريحا على الدوام، وهو ما يحد من استقلالية الزاوية ويظهرها وكأنها لا تتحرك بمحض إرادتها أو وفق مكانتها النافذة داخل مجالها الروحي والقبلي، بل "إن اعتراف المخزن بتلك الوكالة " هو في الوقع تزكية لسمعة الزاوية داخل مجال نفوذها. لقد بينت دراسة العديد من الوثائق من المراسلات المتبادلة بين المخزن وبعض الزوايا الكبرى، أن هذه الأخيرة ومهما كبر حجمها وتوسيع نطاق نفوذها، تبقى رهينة الخيارات المخزنية ومقيدة بحاجتها الدائمة لدعم السلطة[2]، للحفاظ على مكاسبها المادية والروحية، وأحيانا لحمايتها من تهديدات القبائل أو تحرشات أعوان السلطة، وهو

[1] العروي، المرجع السابق، ص146.
[2] الظريف، المرجع السابق، ص 91.

الوضع الذي يضعف الرأي القائل باستقلالية الزاوية، رغم ما قد يتوفر لبعضها من امكانيات مادية ودعم المؤيدين من أتباعها والمنتسبين إليها. من الخيارات المخزنية لاحتواء الزوايا تلك المتعلقة بمحاولات الزج بها في مختلف المعارك السياسية، إما بغاية إضعاف مرتكزاتها المادية أو بهدف توريطها في معمعان السياسة المكشوف والمنطوي على الكثير من المغامرات المحفوفة بالمخاطر، كالعمل على انتدابها للتوسط في منازعات المخزن من القبائل المتمردة، وبفشل مهمة الانتداب تحمل الزاوية مسؤولية ذلك، بالادعاء بأنها متآمرة ضد المخزن مع الطرف الثائر في الواقع، إن مثل هذا الادعاء ما هو إلا مؤشر على نية المخزن تلبيس الزاوية كامل المسؤولية فيما حدث وخطوة ذكية للتضييق بها في افق إعلان خروجها عن صف السلطة ودخول ربقة الفساد والبغي، إضافة إلى اتهامها بالخروج عن الجماعة قد أفلح المخزن بهذا الأسلوب وفي الكثير من المناسبات، من الإيقاع بالعديد من شيوخ الزوايا بفضل امتلاكه لآلية السياسية الدينية وتحكمه في دواليب الأجهزة المتحكمة فيها من علماء وفقهاء[1]،و هذا الأسلوب تقليدي في الممارسة المخزنية برز بوضوح، منذ العهد السعدي الأول، وتبلور بصورة جلية في العهد الاسماعيلي. فقد أدرك المولى إسماعيل قوة مؤسسة الزاوية، فانتهج أسلوبا متطورا لإدماجها ضمن استراتيجية الاحتواء والتدجين، وهو الأسلوب الذي مكنه من "التحكم في القاعدة المادية للزاوية، دون أن يمس بشرعية تواجدها الفعلي لأن بقاء الزاوية ممتلكة لكافة مقوماتها البشرية والاقتصادية كان يخدم المخزن، باعتبارها إحدى الضرورات السياسية لتوازنه العام، وقد أثمرت هذه الاستراتيجية في جر زوايا كبرى و قوية الى صف الدولة وتهميش أخرى، ضمن نفس النسق العام القائم على الحرص المخزني في تثبيت سلطته سواء كانت تلك الزوايا حليفة أو "متمردة" أو حتى وإن كانت فاشلة فيما أو كل غليها من أدوار. كشفت السياسة الدينية للمولى اسماعيل عن حضور فعلي للمخزن وعن امتلاكه للمبادرة في التحكم في آلياتها، ولكلما كان حضوره قويا كلما كان ضبطه لحال الزوايا موفقا، خصوصا في التعامل مع الزوايا الكبرى التي كانت تمتلك القوة و النفوذ و تسيطر على المواقع الحساسة. وهو ما مكنه من استثمار كل هذه الخصائص في أدوار سياسية بالغة الخطورة، بل مكنه استثماره الموفق لهذه السياسة من

[1] العروي، مرجع سابق، ص 145.

تحويل الكثير من الشيوخ الى مستشارين مقربين ووسطاء لنقل السلطة، أو لنقل موظفين مخزنيين من الطراز العالي.

بالرغم من هذه الوضعية المثالية، فإن المخزن لم يكن لينظر الى استشاراتهم أو انتدابهم أو تحكيمهم، إلا من منظور التبعية له وليس من باب مد يد المساعدة من طرف زعماء مستقلين، مما يضرب في الصميم وفق المنظور المخزني مسألة السيادة المفترضة للزوايا، حتى وإن ظهرت على بعض الزوايا معالم سيدة مفترضة، فإن ذلك لا يتم إلا عبر إيحاء مخزني مباشر أو إيعاز مبطن منه[1]، لذلك حرص السلاطين وعلى الدوام على تزكية زعامة الزوايا مهما كبر حجمها أو صغر، عبر ظهير التعيين والتولية والحسم فيما ينشأ من خلافات بين ابناء الزاوية، وبالفصل لصالح من يكون أكثر خطورة ومصلحة للمخزن , بل دأب المخزن على التدخل في خلافات الميراث و قسيم أصول الزوايا. إن كل هذه المعطيات تدعو فعلا إلى إعادة توطين مؤسسة الزاوية داخل النسيج المجتمعي المغربي وكلام مثل القول بأنها "دولة في دولة" أو "تمثل حقيقي للنظام القبلي" أو "كيانات سياسية تمارس العرف في غياب سلطة الشرع"، أو القول بأنها "صورة لنظام السيبة" هي مجرد تأويلات تحتاج الى مزيد فحص وتدقيق في مجمل ما يرتبط بهذه المؤسسة من تاريخ خاص بها ووثائق رسمية وعرفية. وبطبيعة الحال كل ذلك ضمن تحليل بعيد عن النظرة النمطية والتحليل الأحادي الجانب، لقد أخطأ الداعون ألى النظرية الانقسامية حين بلوروا نظرية جزئية عن القداسة في الجنوب الشرقي المغربي وجعلوها مقياسا لتحليل هذه الظاهرة في شموليتها وعلى صعيد المغرب بأكمله دون تحديد زمني دقيق أو عبر تراكم تجارب مختلفة، وهو في تقديرنا الفيصل بين التحليل الانتروبولوجي ونظيره التاريخي، لهذا فالنظر إلى مؤسسة الزاوية بعيدا عن السياقات التاريخية المحيطة بها، يجعلنا نقيم دراسة تاريخها تقييما سطحيا وبدون أرضية واقعية، ودراسة التاريخ الخاص بكل زاوية هو الكفيل بتمكيننا من معرفة الجوانب الحقيقية بها. فبالرغم من أن مؤسسة الزاوية تبدو في الظاهر مجرد فضاء روحي يغلب على أدائه الطابع الديني، إلا أنها وفي خضم تطور تاريخي تفاعلي، تحولت إلى آلية مستحكمة وضابطة للتوازن الاجتماعي والسياسي سواء بمحض إرادتها وتطلعها أو بتركيب مخزني محكم

[1] الشاذلي، المرجع السابق، ص 125.

ومنظم لوظائفها الأصلية. لقد كشفت المحصلة التاريخية أن جل الزوايا الكبرى أضحت مزيجا عجيبا يكتنز تراثا صوفيا وأداء سياسيا واجتماعيا بل أحيانا اقتصاديا، كما جاء تمثلها وتمثيلها للسلطة في صورة عملة من وجهين مختلفين، ولعل هذا بالتأكيد ما كان يرمي إليه المخزن في نهاية المطاف. هذه النتيجة أملتها كما أشرنا سلفا الشروط الذاتية للزاوية وأدوارها والمهام التي أوكلت إليها، وهي التي أفرزت ضروريات مادية واضحة جعلت الزاوية في حاجة دائمة إليها، كما أن الرغبة في الحفاظ عليها وتنميتها أجبرها على البحث عن سبل أوصلتها إلى امتحان السلطة السياسية والتداخل معها، باعتبارها السلطة كانت الضامن الفعلي لتمتعها بمختلف الامتيازات والمصالح التي توفرها لها، لقد أثبتت التجربة أن توازي المصالح بين المؤسسة المخزنية والزاوية لم يكن ليقود على الدوام إل نفس الغايات فغاية المخزن مؤسسة على قواعد السياسة وضوابطها المحكمة، بينما ظلت غاية الزاوية قائمة على مصالحها المادية ونفوذها الروحي، ومتى اختلت هذه المعادلة أصبحت الزاوية خارج الدائرة التي رسمها لها المخزن، مما يعرض الزاوية لفقدان مصالحها المكتسبة أصلا من نتاج أدوارها المختلفة[1]، وهنا تبدو بوضوح أهمية الرعاية السياسية كضرورة حيوية بالنسبة للزاوية، لذلك وجدنا أن بعض الزوايا الكبرى بادرت بعد فشلها في أدائها المفترض، إلى البحث عن تعويض لسلطة المخزن وذلك بالارتماء في أحضان الأجانب، مع ما انطوت عليه خطوتها هذه من تمرير محكم لمخططات المستعمر. فانقلبت أدوارها من فاعل في الدولة إلى معول لتقويض سلطتها، مع العلم أن هذه السلطة هي نفسها التي كانت صاحبة الفضل فيما وصلت إليه تلك الزوايا من جاه ونفوذ ومناعة، وهي نفس الشروط والمعايير التي استند إليها الأجانب في تحديد واختيار القوى الأساسية الداخلية المزمع توظيفها في مخططاتهم[2].

10-5- إعادة إحياء الزوايا وأنشطتها:

[1] العروي، المرجع السابق، ص133.

[2] Edmond DOUTTE ,Situation politique du houz au 1 er Janvier 1907 Hérodote .No 11 3éme Trim. 1978

يعتبر مشايخ الزوايا الجزائرية أن أهم التحديات الراهنة التي يجب مواجهتها اليوم تتمثل في محاربة ظاهرة التكفير والغلو في الدين مع ضرورة إدخال إصلاحات على هياكلها (الزوايا) لضمان استقطاب المزيد من مناصريها الجدد، ففي هذا المجال نلاحظ تنظيم الكثير من التظاهرات وعلى الخصوص الملتقيات ففي ملتقى وطني عقد بأفلو خلال شهر جويلية 2008 رسم شيوخ الزوايا خطة للنهوض بالعمل الإسلامي شملت هذه الخطة رسالة الزوايا ومساهمتها في العمل الإسلامي كأرضية لتفعيل دورها للنهوض برسالتها، وهي خطة شاملة ومتكاملة لتنسيق الأعمال ومواجهة العصر وتداعيات العولمة باعتبارها خطر تزول معه الخصوصيات والحدود الجغرافية والثقافية، دور الزوايا في تحقيق الصحة النفسية للفرد وللمجتمع وهو كذلك مهمة من المهام المسطرة في هذه الخطة، بالإضافة إلى الحفاظ على مقومات الشخصية الجزائرية. من التحديات والاحتياجات التي تواجه الزوايا حاليا غياب التوثيق لتاريخ الزوايا ومشايخها ونشاطها مع انتشار مفاهيم خاطئة في الزوايا وعقم طرق التدريس، فإن ميدان تعليم القرآن وتحفيظه عرف تطورا كبيرا، فالقرآن يعلم في جميع المساجد بالتقريب وفي كل الزوايا. هناك أعداد كبيرة من التلاميذ المتمدرسين وحتى الأشخاص الكبار ويتحولون خلال الأوقات الفارغة وحتى خلال العطل المدرسية وبما فيها العطلة الصيفية وإلى 'قناديز' حقيقيين وإلى تلاميذ لحفظ القرآن على مستوى المساجد والزوايا. ما إن انتهت الدراسة يتوجه التلاميذ الشباب إلى الكتاتيب مجهزين بالألواح وبالأقلام الخشبية وبالمحابر التقليدية (الدواية)، لقد أصبح التعود والذهاب الى المدارس القرآنية تقليدا لدى الكثير من الأسر بحيث أن هذه العادة تدوم وتتواصل حتى خلال العطلة الصيفية المعروفة بحرارة فعلا وتبقى قراءة وتعليم القرآن عادة راسخة من عادات وتقاليد المجتمع الجزائري مكونة بذلك القاعدة الاساسية للتربية لدى الأسر المحافظة في كل أنحاء البلاد على كل حال، في بداية هذا الأمر لا يعجب الأطفال والشباب خاصة خلال العطل الصيفية، فهم يعملون على استعمال كل الحيل للتخلص من حفظ القرآن، لكن هذه الإستراتيجية لا تخفى عن أعين وفطنة كل من الأولياء والمعلمين يشتكي الشباب في البداية من بقائهم محبوسين في قاعة الزاوية أو المسجد، في الوقت الذي يستفيد فيه الآخرون من متعة العطلة، غير أن منهجية التعليم والسلوك الجيد للشيخ تلطف الأجواء وتحمس التلاميذ

والطلبة على الحفظ[1]، الشيء الملاحظ فعلا أن معاملة الشيخ معلم القرآن لتلاميذه, أصبحت تتسم بالمرونة والتساهل والتسامح والإغضاء عن الأخطاء فالطفل أو الشاب الذي ينجح في حفظ حزب مثلا يجد نفسه مشجعا ومهنئا من طرف كل المحيط: المعلم والأسرة وحتى الجيران والأصدقاء. فعندما تنتهي عملية حفظ القرآن ينظم حفل الختمة على شرف الحافظ من أجل حث الزملاء على الاقتداء به عن طريق السرعة والتعجيل في حفظ الحزب تلو الأخر على المستوى البيداغوجي، يلاحظ أنه هناك منهج عصري طبق على المستوى الكتاتيب هذا يمكن الطلبة من التذكر بسهولة من جهة والابتعاد نوعا ما عن التمرن الذهني الروتيني عن طريق منهجية بسيطة غير متعبة. يحتوى القطاع على مدارس قرآنية كثيرة بالإضافة إلى المساجد والزوايا، وذلك تحت تأطير الشيوخ ومعلمي القرآن والأئمة ينتمي الطلبة لكل فئات العمر وللجنسين من بينهم الطلبة المتفرغون لهذه الممارسة فقط.

ومن بين الأنشطة التي تعمل على إحيائها الزوايا هناك التظاهرات الدينية والثقافية دون تخلي بعضها عن طابعها الفولكلوري المعروف تاريخيا، وفي هذا المجال نذكر أنه ما تزال الكثير من العائلات متمسكة بما ورثته من الأولين بشأن حفلات الأعراس والأفراح بصفة عامة. وتشكل ظاهرة إسناد الحفلات لفرق العيساوة أهم تقليد حافظت عليه أو احيته أغلب العائلات في المناطق الداخلية للجزائر ولما تتوفر عليه من مدائح دينية بوسائل العيساوة التقليدية بالإضافة غلى ما توفره هذه الفرق من عروض في الرقص الصوفي تقوم بتعليمه للمدعوين الراغبين في تعلم هذا الرقص التراثي، يكون العرض العيساوي كذلك فرصة للحاضرين للإخراط في طائفة المسقيين من خلال طقوس يقوم مرشد الفرقة بها ليصبحوا بعد ذلك من مدمني الفن العيساوي ويقطعون المسافات لحضور حفل تنشطه فرقة من فرق العيساوة. يختتم العرس العيساوي بربط الحناء للعريس على أنغام المديح النبوي تليه مباشرة إقامة الحضرة العيساوية التي يقوم فيها المسقيون والحضور بالرقص وفق طقوس وتقاليد متوارثة، في هذا الشأن يحرص مرشد الفرقة على الإكثار من الصلاة على النبي (ص)

[1] بن عتو بشير، المرجع السابق، ص ص 97-99.

وتكرير ذكر لفظ الجلالة (لا إله إلا الله) بالتوازي مع مراقبة الراقصين وإسعاف من أغمي عليهم[1].

11- العلاقات القرابية داخل مؤسسة الزاوية:

أ- **التعريف بالقرابة:** حاولنا التقرب من المعاجم والقواميس قصد ايجاد تعريف واضح للقرابة، فانتقلنا في تعريفاتنا من التاريخ إلى التأريخ لتطور مفهوم القرابة، فحسب ابن منظور القرابة هي "القريب ذو القارابة والجمع من النساء قرائب ولو قيل لجاز والقرابة والقربى الدنيوي النسب: القري في الرحم وهي الأصل مصدر وفي التنزيل العزيز: ﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا ﴾ (36)[2]، وما بينهما مقربة ومقربة أي قرابة وأقارب الرجل. وأقربوه: عشيرته الأنذرون: قال تعالى ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ (214)[3]. يضيف ابن منظور تفسيرا لهذه الآية نقلا عن الزجاج لما نزلت هذه الآية صعد الصفا ونادى الأقرب، فخذا فخذا " يا بني عبد المطلب، يا بني هاشم يا بني عبد مناف يا عباس يا صفية، إني لا أملك لكم شيئا، سلوني من مالي ما شئتم" الحديث لرسول الله، نقلا عن ابن منظور وكما هو واضح أن الرسول صلى الله عليه وسلم ينادي أقرباءه من بنى عشيرته والذين تجمعهم معهم قرابة دموية وقد انتقل في هذا النداء من القبيلة إلى العشيرة إلى الأفراد وهذا التسلسل أو هذه الشجرة هي السلالة التي ينحدر منها الرسول صلى الله عليه وسلم والتي يحق لها أن تنال من خيراته من مال أو من يملك وحق للدين ناداهم رسول الله أن يناسب معه وأن يطلب الصدقات منه وأن يرثوه ويسمي هذا بالنسب الشريف[4]. وتقول العرب كذلك: "بيني وبينه قرابة، قرب، ومقربة ... وهو قربي وأقاربي، يقول الله عز وجل من قائل:﴿ ذلك الذي يبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسنا إن الله غفور شكور﴾32[5]. يواصل ابن منظور تعريفه قائلا

---

(1) بن عتو بشير, مرجع سابق, ص -100-101.
(2) سورة النساء، الآية 36، ص 84.
(3) سورة الشعراء، الآية 214، ص376.
(4) ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، المجلد الأول، الطبعة الثالثة، 1993، ص 665.
(5) سورة الشورى، الآية 32، ص486.

في تفسيره لهذه الآية أي إلا أن تؤذوني في قرابتي أي في قرابي منكم، ويقال: فلان وقرابتي مني، قال تعالى: ﴿ يتيما ذا مقربة ﴾ 15[1]. وقد أوصى الاسلام بالمحافظة على صلة القرابة بين القبائل والعشائر والأسر، حيث دعا المسلمين وألح عليهم بزيارة اقاربهم سواء من المصاهرة أو من القرابة الدموية، وقد ألح الرسول صلى الله عليه ويلم على صلة الرحم وهي قرابة دموية، اساسها المصاهرة وتركز العرب في على هذه العلاقات القرابية، حيث أوصى الرسول صلى الله عليه وسلم بأولوية إعطاء زكاة الفطر إلى الأقارب الذين يستحقونها والمقصود بالأقارب هم الذين تربطنا معهم علاقة دموية. وركز الإسلام ومن قبله العرب على هذا النوع من القرابة كانت تنتصر للقبيلة التي معها علاقة مصاهرة ، أي قرابة المصاهرة، ولم يختلف العرب في قرابة الدم والمصاهرة بل كانوا يعتبرونها من جنس القرابة الدموية وذلك لانهم كانوا يحافظون على أنسالهم بضبطهم لعلاقة الزواج، فكاونا يتزوجون من الحرائر وذي النسب الأصيل والشريف. إن هذه القضية أي القرابة نالت اهتماما كبيرا عند العرب وبالخصوص مسألة النسب، ويعرفه أبن منظور قائلا:" النسبة والنسبة والنسب: القرابة، وقيل هو في الآباء خاصة، قيل النسبة مصدر الانتساب والنسبة الاسم التهذيب، النسب يكون بالآباء ويكون في البلاد ويكون في الصناعة، ونسب فلان لأبيه أنسبه نسبا إذ رفعت في نسبه إلى جده الأكبر" وتوارثت العرب رواية النسب وبالخصوص في التعامل مع بعضهم البعض حتى يعرف أصل الفارس أو الرجل وحتى المرأة، وقد نلاحظ في تأليف العرب أن النسب يرتكز فيها على عنصرين هما ذكر سلالة الأب إلى الجد الأول حتى يستقر النسب على القبيلة التي كان ينتسب إليها أبو الفارس أو الشاعر أو غيره[2]، فالنسب العربي يعتمد على الرباط الدموي والانتماء المكاني لكن الرباط الدموي هو الاساس في إثبات القرابة عند العرب، أما الغرب فقد قدم لنا مجموعة من التصنيفات لفهم القرابة عند العرب، أما الغرب فقد قدم لنا مجموعة من التصنيفات لفهم القرابة ومن جملة هذه التصنيفات: تعريفهم للقرابة وسنركز في هذا التعريف على الجهود التي بذلها الأنثروبولوجيون في تعاملهم مع القرابة والتي حظيت باهتمام بالغ من طرفهم، حيث نلاحظ

[1] سورة البلد، الآية 15، ص594.
[2] ابن منظور، المرجع السابق، ص 755.

أن لويس مورغان قد اهتم منذ 1871 بدراسة العلاقات القرابية وفي الوقت نفسه بتعريفه لهذا المصطلح الذي طرح عندهم إشكالية كبيرة. ومن بين الجهود التي قام بها مورغان من تصنيف المجتمعات انطلاقا من دراسة نظام القرابة، وقد اعتبر المصطلحات القرابية الأساس في تكوين هذه المجتمعات وإنه يتحدث عن القبائل البدائية القديمة التي تعتمد في بنائها الداخلي وفي تشكيل الأنثية على نظام القرابة الذي يجمع بين عدة علاقات منها: الروابط الدموية وعلاقة النسب والمصاهرة، وقبل أن نشرح طريقة مورغان في وضعه لهذه المادة الأنثروبولوجية بين أيدي الباحثين، لابد أن نعود إلى التعريفات الكلاسيكية أو الطريقة التي تعامل بها العلماء مع القرابة وبالأخص في الدراسات الأنثروبولوجية. فالقرابة على حد تعريف معجم الأنتروبولوجيا والاثنولوجيا: "ترتبط كمادة أنثروبولوجية مع عوامل التوالد البيولوجي بعلاقة معقدة قوامها الاستمرارية والانقطاع ... فإن القرابة ليست فقط عبارة عن مجرد "روابط طبيعية" فالقرابة المندمجة في أنظمة عمل (تحدد طرائق حسن التصرف) وتفكير في آن واحد معا (تحديد هيكلة المفاهيم) تمثل قبل كل شيء واقعا ثقافيا يستجيب لأهداف خاصة، القرابة يمكن أن تطرح من عدة زوايا:عاطفية، معيارية، رمزية، استراتيجية..الخ[1].

إن الأنثروبولوجيا وكما هو واضح في هذا التعريف غيرت كثيرا من النظم في القرابة وحيث لم تعد تتعامل معها على اساس أنها نظام وراثي فقط، كما حدث مع السابقين ممن درسوا القرابة فركزوا كثيرا على أن القرابة مجموعة من الروابط الدموية التي تشكل أسرة عبر أزمنة طويلة واعتبرت القرابة نظاما أسريا تتحكم فيه الروابط الدموية بالدرجة الأولى، أما علاقة النسب والمصاهرة فهناك من اعتبرها من القرابات البعيدة على الرغم من أن في علاقة المصاهرة تقاربا دمويا كما يمكن أن يكون فيها كذلك تقارب "جيني" ووراثي جيني، فالنسب شكل مجموعة من الرزم القرابية ويخرج القرابة من وسطها الأسري الضيق. إننا نلاحظ أن الأنثروبولوجيا تتعامل مع القرابة في تعريفها تعاملا وظيفيا لتحافظ على خصوصيتها، أي القرابة باعتبارها "روابط طبيعية بيولوجية". ولكن هناك القرابة

(1) بياربونت وميشال ايزار وآخرون، معجم الأنثروبولوجيا والاثنولوجيا، ترجمة وإشراف: مصباح الصمد، ط1، المؤسسة الجامعية للدراسة والنشر والتوزيع مجد، بيروت، لبنان، 2006، ص ص 718-719.

"المندمجة" وهي الناتجة عن روابط العمل، حيث تحدث هذه القرابة واقعا ثقافيا، وبالطبع حاولت الأنثروبولوجيا أن تقدم تفسيرا وأمثلة عن هذا الواقع القرابي، وما يمكننا ملاحظته أن هناك ثنائية تتحكم في القرابة، الأولى تتعلق بالجانب الطبيعي "الدموي" والثانية ترتبط "بالجانب المنتج من العلاقات الإنسانية"، ولهذا نلاحظ أن الأنثروبولوجيا قد وسعت من مفهوم القرابة، ومكنتها من إرساء أسس ونظريات جديدة على القرابة. لكن من خلال هذه الدراسة لا يمكننا التمييز بين المصطلحين، لأنها متجاوران ومتقاربان وفكل منهما يؤسس للآخر، ليصنع منه علاقة قرابية كما سنوضح ذلك من خلال مناقشتنا لنظرية القرابة.

ب- نظرية القرابة: بما أننا تحدثنا عن جهود العلماء في ميدان القرابة، والذي وضع اسئلة تتعلق بالمصطلحات القرابية ومعتبرا أن هذه المصطلحات نظام يؤسس لعلاقة القرابة أين يمكننا حين الحديث عن مصطلح القرابة أن نميز بين مصطلحين:

1- **التخاطبي:** وهو المستعمل للدلالة على القريب الذي تتوجه مباشرة إليه بالكلام.

2- **الاسنادي**: وهو المستعمل للدلالة على القريب الذي تتكلم عنه مع شخص آخر[1].

كذلك لابد أن نميز بين مصطلحين آخرين قد استعملهما مورغان هما: "توصيفية وتصنيفية"، فالأولى تعرف بالطبيعة الفعلية للعلاقات (ابن، أخ، أمي،...) والثانية تستعمل لفظة واحدة للدلالة على عدة أقرباء ينتمون في آن واحد إلى السلالة الجانبية (أب أو أم) للدلالة على الاخوة الأول والأخوات الثانية".

ملاحظة: إن هذه الدراسة لمورغان مكنت الكثير من العلماء من تقديم جهود معتبرة في ميدان القرابة، حيث استطاع "موردوك" أن يقدم لنا التصنيف القرابي الذي على إثره تم تغطية كل المصطلحات القرابية التي توظفها جميع المجتمعات.

أما كروبر فعمد إلى تصنيف القرابة واضعا لها اسسا حصرها في ثمانية هي أساس الجيل[2].

* الأساس الذي يصنف الأقارب من الجيل نفسه تبعا لفروق العمر.

*الأساس الذي يفرق بين الأقارب الخطيبين (المباشرين)، والأقارب المجانبين(غير مباشرين).

---

(1) جاك لومبار، مدخل إلى الأنثروبولوجيا، ترجمة: حسن فنيسي، ط1، المركز الثقافي العربي ، 1997، ص 110.
(2) جاك لومبار، المرجع السابق، ص 110.

*الأساس الذي يربط باختلاف نوع القريب (ذكرا أم أنثى).

*أساس التصنيف الذي يفرض في نوع المتكلم نفسه(الذي يخاطبه).

*التصنيف السادس عند كروبر هو "الفروق في نوع القريب الذي يمثل همزة الوصل في القرابة.

*الأساس الذي يميز القرابة الدموية عن قرابة المصاهرة.

*الأساس الذي يصنف القرابة على الفروق في المكانة أو الظروف المعيشية للشخص الذي تقوم علاقة القرابة خلاله[1].

إن ذكر مصطلحات القرابة هي ليست من باب التكثير وحسب، بل إننا نريد رصد حركة، أو بالأحرى، وظيفة هذه المصطلحات داخل النظام القرابي، وبالتالي ستعيننا على فهم أوسع لكل الأنظمة العشائرية والقبلية، كذا الاجتماعية.

ويبين لنا نحمد عبده محجوب أهمية هذه المصطلحات بالنسبة للبناء الاجتماعي: حيث يقول "إن أهمية مصطلحات القرابة وألقاب المناداة قيمة في ذلك أن نسق مصطلحات القرابة ينطوي على " خريطة " أو بنية نموذجية للسلوك..." ولما كانت المصطلحات القرابية وألقاب المناداة تمثل طبقا للتفاعل الاجتماعي فهي بالتالي ذات قيمة كبيرة بالنسبة للباحث الأنثروبولوجي وهنا لابد أيضا بتغيير مصطلحات القرابة باعتبار أن تغييرها يعبر إلى حد بعيد عن أسلوب تغيير أنماط التفاعل الاجتماعي. لهذا التعريف يمكننا القول إن القرابة خرجت من دائرة التفسير الفردي أو السلوك، مما دفع بستراوس إلى نقده وتجاوزه بمثل هذه التفسيرات في القرابة، على الرغم من أن النتيجة التي وقف عندها كل من مارسل موس وراد كيف براون ومالينوفسكي قلبت أوضاع الفكر الأنثروبولوجي "فقد أدرك جميعهم أن علاقات القرابة وسائل اجتماعية معدة للقيام بوظيفة اجتماعية، ألا وهي تامين التوازن الاجتماعي، تأصيل السلم بين الافراد، وتمكين التلاحم بين أعضاء المجموعة[2]. ولكن ستراوس "لم يفصل القرابة عن الظواهر اللغوية والألسنية، وقد اعتبرها حلقة موصلة

---

[1] راد بيلزهاري حمو يجر، مقدمة في الأنثروبولوجيا العامة، ترجمة: محمد الجوهري ومحمد الحبي، ج1، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ص ص 466-469

[2] محمد بن حمودة ، الأنثروبولوجية البنيوية: أوجه الاختلاف خلال أبحاث ليفي ستراوس، ط1، دار محمد علي الخامس لنشر، صفاقس، تونس، 1987، ص 70.

ببعضها البعض فيجزم بأن دراسة نظام القرابة أو النظام الاقتصادي أو نظام السان لا تخلو من تماثل بنيوي، وقد وظف ستراوس مصطلح أنساق القرابة الذي علج فيه مشكلة المصطلح حيث لا يستعمل المصطلح نفسه في المجتمع.

* للدلالة على نفس القريب في المجتمع.

* فالأب والعم في أحد المجتمعات لا يختلف دلاليا في المجتمعات الأخرى، لهذا نجده في البدء يحدد لنا القرابة بقوله: "يتطلب وجود بنية قرابية واشتمال هذه البنية على نماذج العلاقات العائلية الثلاثة المبنية دائما على الجانب البشري، وهي علاقة عصبية وعلاقة زواج وعلاقة نسب، بعبارة أخرى علاقة شقيق بشقيق، علاقة زوج بزوجة وعلاقة قريب بطفل".

إن ستراوس من خلال التصنيف يحاول أن يبين كيفية انتظام مصطلحات القرابة (كالأخ، أخت، أب، ابن) ضمن نسق يضمن التوازن والتكامل إلا أننا من باب الاعتباط إذا اعتبرنا أن المصطلحات تؤسس لمفهوم النسق القرابي.

وحتى الرأي الذي يرد العائل إلى الأساس الطبيعي، ولا غريزة التناسل أو الأمومة، ولا الروابط العاطفية ولا حتى تأليف هذه العناصر بقادر على تعليل وتقديم تفسير واضح للقرابة ببساطة، هذه العوامل غير قادرة على بناء عائلة، لأنه في المجتمعات الإنسانية يشترط إنشاء عائلة وجود لعائلتين أخيرتين، إحداهما توفر الرجل، وأخرى المرأة.

"إذ لا قبل لوجود العائلة إلا غضون المجتمع، أي حشد من العائلات يقبل بوجود علاقات أخرى عدا العلاقات الدموية تجعل السيرورة الطبيعية لحركة النسب ولا تستطيع مواصلة تمشيها إلا مدمجة في التحالف الاجتماعي[1] الذي يعتمد على مبادئ وأسس بالدرجة الولي وعلى هذا الساس وصف لنا محمد رياض مجموعة من المبادئ تقوم على اساسها مصطلحات القرابة وهي:

*مبدأ الأجيال: مثل الجد والوالدان والبناء.

*مبدأ الجنس: التفريق بين الأقارب حسب الجنس.

* مبدأ المصاهرة: له علاقة بالزواج وأنماطه.

[1] محمد بن حمودة، المرجع السابق، ص 72.

* مبدأ خط النسب: يفصل ويوضح التسلسل القرابي المباشر أو الجانبي.

* مبدأ التبادلية: فيه ينادي الشخص من الجيل إلا على قريبه من الجيل الأدنى اللقب كأن ينادي العم ابن أخيه بعم أو الأب ينادي ابنه بأب[1].

12- نظام القرابة في الزاوية :

أ-القرابة في الإسلام :

تمكن الدين الإسلامي من صنع نظام أقارب خاص به، وذلك من خلال العلاقات الاجتماعية التي كانت تربط الأفراد بعضهم ببعض ودون أن تكون بينهم روابط دموية، فمصطلح "أخي" في الله نجد عامة المسلمين يستعملونه تقربا من الله تعالى والعرب في سالف عهدهم تضرب أمثالا على هذا النوع من الأخوة: "رب أخ لم تلده لك أمك" بمعنى صديق في درجة الأخ وهذا النوع من الأخوة لا نكاد نلاحظه إلا عند العرب المسلمين وسنوضح ذلك في عنصر لاحق.

أما تعامل القرآن الكريم مع القرابة فقد نلاحظه من خلال الوقوف على بعض التفاسير التي قدمت شروحا لآيات القرابة، فالقطبي في تفسيره لقوله تعالى في الآية من سورة النساء:﴿للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون لنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيبا مفروضا ﴾[2] وقف على ثلاثة آراء:

الأول: لما ذكر الله تعالى اليتيم وصله بذكر المواريث، ونزلت الآية في أوس بن ثابت الأنصاري الذي توفى و ترك امرأة لها أم " كجة" وثلاث بنات له منها فقام رجلان هما ابن عم الميت .. سويد وعرفجة، فأخذ ماله ولم يعطيا امرأته وبناته شيئا .. فذكرت أم كجة ذلك لرسول الل صلى الله عليه وسلم فقال: "انصرفا حتى أرى ما يحث لي الله فيهن"، فأنزل الله هذه الآية ردعا عليهم وباطلا لقولهم بجهلهم، فإن الورثة الصغار كانوا أحق بالمال من الكبار.

الثانية: قال العلماء أن هذه الآية فوائد ثلاث، إحداها بيان علة الميراث وهي القرابة، عموم القرابة، كيفما تصرف من قريب أو من بعيد.."

---

[1] محمد رياض، الإنسان دراسة في النوع والحضارة، ط2، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1974، ص 530.

[2] سورة النساء، الآية 36.

الثالثة: ثبت أن أب طلحة لما تصدق بماله بئر جاء، وذكر ذلك لنبي الله صلى الله عليه وسلم فقال له "اجعلها في فقراء أقاربك" فجعلها لحسان وأبي، قال آنس "وكانا أقرب إليه مني"[1].

قال أبو داود: عن محمد بن عبد الله الأنصاري أنه قال: أبو طلحة الأنصاري زيد بن سهير بن الأسود بن حرام بن عمرو بن عدي، بن عمرو بن مالك بن النجار وحسان بن ثابت بن كعب بن المنذر بن حرام يجتمعان في الأب الثالث وهو حرام وأبي بن كعب بن قيس بن عبيد بن زيد بن معاوية بن عمرو، وبن مالك بن النجار قال الأنصاري بن أبي طلحة وأبي ستة آباء، قال وعمرو بن مالك يجمع حسان وابي بن كعب وأبا طلحة[2]. فالقرابة حسب هذه الآراء التفسيرية تعتمد، وبالدرجة الأولى على الوراثة وتحافظ عليها وفالروابط الدموية هي الأساس في القرابة حسب ما ورد في تفسير القرطبي لهذه الآية ويمكننا أن نلاحظ محافظة العرب على التسلسل القرابي فهم يذكرون نسبهم عن طريق الرواية، فيذكر الأب ثم أبوه: "عدي هو اسمه ابن عمر اسم أبيه، وفي الغالب حافظت العرب على ذكر اسم الأب في تسمية الأبن حتى يعرف أبوه حسب الاسم. وما استعملت العرب هذه النوع من التسمية إلا ليعرف الابن البار من اللقيط، كذلك ليعرف صاحب المكانة في قومه من الوضيع، أو الذي بل مكانة له بين قومه، وحتى يحافظ العرب على هذا النسب وضعوا فيما بعد شجرة لعائلاتهم لأن الأنساب اختلطت، وكثر النسل، فعمدوا إلى تصنيف أجدادهم من الجد الأول إلى آخر حفيد ويرتكزون في هذا التصنيف على رد العلاقات القرابية إلى الأب فقط دون الأم حسب قوله تعالى: ﴿ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم وكان الله غفورا رحيما﴾[3].

يقول أبو عمر تعليقا على القول السابق: "وفي هذا ما يقضي على القرابة الى ما كانت في هذا التعدد ونحوه وما كان دونه فهو أحرى أن يلحقه اسم القرابة.

قال النبي صلى الله عليه وسلم: "من موجبات الرحمة اطعام المسلم الشغبان" (يتيما ذا مقربة)، يقال فلان ذو قرابتي وذو مقربتي، يعلمك أن الصدقة على القرابة أفضل منها على

---

(2) محمد رياض، مرجع سابق، ص 71.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن الكريم، ج5، دار أحياء التراث العربي، بيروت، 1985، ص ص 46-47.
(3) سورة الأحزاب، الآية5، ص 418.

غير القرابة. والقرابة هنا على حسب التفسير وهي قرابة الدم، وقد يشبه ذلك الزمخشري في تفسيره للآية الكريمة بعد قوله تعالى: ﴿وأنذر عشيرتك القربين﴾[1].

وقد علم أن ذلك لا يكون ولكن أراد أن يحرك منه لازدياد الاخلاص والتقوى وفيه لفظ لسائر المكلفين. قال ولو تقول علينا بعض الأقاويل فإن كنت في شك مما نزلنا اليك فيه وجهان: أحدهما أن يؤم بإنذار القارب فالقرب من قومه ويبدأ في ذلك بمن هو أولى بالبداءة ثم من يليه وأن يقدم إنذارهم على إنذار غيرهم كما روي عنه عليه السلام أنه لما دخل مكة قال:" كل ربا في الجاهلية موضوع تحت قدمي هاتين وأول ما أضعه ربا العباس والثاني أن يؤمر لا يأخذه ما يأخذ القريب للقريب من العطف والرأفة ولا يجابيهم في الإنذار والتخويف"[2]، وفي الآية الكريمة ورد مصطلح القرابة متجاوزا مصطلح العشيرة ولم يتغير مفهوم القرابة في هذه الآية، بل أكده الزمخشري بذكره للعباسي حين روي حديث رسول الله والعباس رضي الله عنه من اقارب الرسول صلى الله عليه وسلم وقد يحمل مصطلح القرابة بالإضافة غلى دلالته "وضيفة أو صفة" فلاحظنا في الجاهلية اليهم كانوا ينسبون الابن إلى أبيه وحده وقصد معرفة مكانة الرجل بين قومه وإلا أن هذا النوع من الانتساب خلق طبقية بين الناس، وأدى إلى تنافس لا منتهي لاكتساب نسب وجيه وذي سلطان، لكن الإسلام قد وضع لهذه العبودية حدا، فسوى بين الناس ولكنه حافظ على مبدأ الفوارق سواء المعرفية العلمية أو الكفاءة أو غيرها من الصفات التي حث الاسلام على المحافظة عليها كقوله تعالى: ﴿لا اسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى﴾[3].

(إن المودة في القربى) قال الزجاج: "إلا المودة" استثناء ليس من الأول أي أن تودونني لقربتي فتحفظوني و الخطاب لقريش خاصة. يقول ابن عباس أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان أوسط الناس في قريش وليس بطن من بطونهم، فقال الله له: "فلا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى" إلا أن تودوني في قرابتي منكم أي ترحموا ما بيني وبينكم فتصدقونني، القرابة هاهنا قرابة الرحم كأنه قال: اتبعوني للقرابة إن لم تتبعوني للنبوة.

---

[1] سورة الشعراء، الآية، 214.
[2] ابن عمر الزمخشري الخوارزمي، الكشاف، ج3، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ص 129.
[3] سورة الشورى، الآية23.

القربى: قرابة الرسول صلى الله عليه وسلم أي لا أسألكم أجرا إلا أن تودوا قرابتي وأهل بيتي، كما أمر بإعظامهم ذوي القربى وهذا قول علي حسين وعمرو بن شعيب والسدي"، وأقارب الرسول عليه الصلاة والسلام قد نطلع عليهم في التفسير لهذه الآية الكريمة يقول ابن كثير:" والحق تفسير هذه الآية بما فسرها به حبر الأمة وترجمان القرآن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما لما رواه عن البخاري ولا ننكر الوصاية بأهل البيت والأمر بإحسان إليهم واحترامه وإكرامهم من ذرية طاهرة من أشرف بيت وجد على الأرض فخرا وحسبا ونسبا ولاسيما إذا كانوا متبعين للسنة النبوية الصحيحة الواضحة الجلية كما كان عليه سلفهم كالعباس وبنيه وعلى أهل ذريته رضي الله عنهم أجمعين.

قال الإمام أحمد حدثنا يزيد بن هارون أن إسماعيل بن أبي خالد عن يزيد بن أبي زياد عن عبد الله عن عبد المطلب رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله إن قريشا إذا لقي بعضهم بعضا لقوهم ببشرى حسن، وإذا لقونا لقونا بوجوه لا نعرفها، قال: فغضب النبي صلى الله عليه وسلم غضبا شديدا وقال:" والذي نفسي بيده لا يدخل قلب الرجل الإيمان حتى يحبكم الله ورسوله".

قال الإمام أحمد: حصين على النبي قال "أما بعد، أيها الناس إنما أنا بشر يوشك أن يأتيني رسول ربي فأجيب وإني تارك فيكم الثقلين أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به" فحث على كتاب الله ورغب فيه وأضاف قائلا:" وأهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي"، فقال له حصين، ومن أهل بيته يا يزيد؟ أليست نساؤه من أهل بيته؟ قال: إن نساءه لسن من أهل بيته لكن أهل بيته من حرم عليه الصدقة بعده، قال ومن هم؟ قال: هم آل علي آل جعفر وآل عباس رضي الله عنهم قال أكل هؤلاء حرم عليهم الصدقة؟ قال نعم، هكذا رواه النسائي من طرف يزيد بن حبان"[1]. إن معالجة هذه التفاسير لمفهوم القرابة الوارد في القرآن الكريم, ليطرح علينا مجموعة من التساؤلات وبالخصوص اصطفاء الله لعباده المرسلين الذين يمثلون صورة الكمال خطيئة فسلوكهم وحي رباني تتحكم فيه السلطة الإلهية وعلاقتهم مع بعضهم البعض. وقد يعرفنا ابن خلدون لهذا

[1] الإمام الجليل الحافظ عماد الدين بن كثير القريشي، تفسير القرآن العظيم، ط1، ج6، دار الفكر للطباعة والنشر، 1980، ص ص 198-200.

المصطلح من خلال تعريفه: "وذلك أن الشرف والحسب إنما هو بالخلال، ومعنى البيت، أن يعد الرجل في آبائه أشرافا مذكورين يكون له بولادتهم إياه الانتساب غليهم جلة في أهل جلدته لمل وقر في نفوسهم من تجلة في سلفه وشرفهم بخلالهم والناس في نشأتهم وتناسلهم معادن، قال صلى الله عليه وسلم: "الناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام، إذا فقهوا فمعنى الحسب راجع إلى الانتساب"، إن ابن خلدون في هذا التعريف يقودنا إلى الأنساب تشكل العصبية لأجل التناصر حيث يكون المشرب أزكى والشجرة أنقى فيزدادا التناصر بين الأنساب وتكون الفائدة كبيرة، فلا قيمة حسب ابن خلدون للشرف أو الحسب، لأنه يكون أصليا في العصبية لوجود ثمرة النسب ورسول الله صلى الله عليه وسلم لقب بابن الذبيحين حيث يعود إلى ابن عبد المطلب وهو من قريش أحد بطون العرب والذين شكلوا العصبية في تأسيس النظام الاجتماعي الإسلامي. هذه الطريقة تأسس فيها نظام القرابة، لكن الشرف له قواعد وأسس أخرى تتحكم في تأسيسه ومنها مسالة الحسب، ومسالة الأجداد التي قيل فيها، "والحسب من العوارض التي تعرض لآدميين فهو كائن فاسد لا محالة وليس يوجد لأحد من أهل الخليفة شرف متصل في آبائه من ولد آدم إليه إلا ما كان من ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم كرامة به وحياطه على الشرف وأول كل شرف خارجية كما قيل هي الخروج عن الرئاسة والشرف إلى الضعة والانتحال وعدم الحسب ومعناه أن كل شرف وحسب فعدمه سابق عليه شأن كل متحدث ثم إن لماجته في أربعة آباء"، نلاحظ أن ابن خلدون قد لخص مسألة الشرف في أربعة أجيال لا غير هي التي يمكنها أن تحافظ على الحسب والشرف انطلاقا من الوظائف التي تقوم بها الاجيال وعلاقتها بالحسب الأول وهو جيل البناء ثم الثاني جيل مباشر له[1]، ثم جيل التقليد ثم الهدم إن ابن خلدون يحاول أن يبين في هذا الباب أن الشرف لا معنى له عند الجيل الرابع الذي يهتم بالترف ولكن هذا يكون في حالة الحضارة فقط أو في حالة ازدهار الدولة ولا يمكن أن ننسى أن فكرة الشرف عند العرب ذات معنيين، الأول مادي كما اعتبره ابن خلدون والثاني معنوي، كما حاول أن يتداركه في هذا التعريف. و" قد اعتبرت الأربعة في لما الحسب في باب المدح والثناء، قال صلى الله عليه

[1] عبد الرحمان ابن خلدون، المقدمة، منشورات دار مكتبة الهلال، 1991، ص ص 92 -94.

وسلم "إنما الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف ابن يعقوب ابن اسحاق ابن ابراهيم اشارة إلى أنه بلغ الغاية من المجد"[1].

ب- **القرابة في مؤسسة الزاوية :**

سؤال يفرض علينا معالجته وفالقضية مهمه جدا في التراث الإسلامي حيث نلاحظ كثيرا من الطوائف والطرق من ينسب نفسه إلى الرسول عليه الصلاة والسلام أو غيره ولعله يكتسب مكانة بين قومه أو أهل عشيرته، كما هو ملاحظ أن طرقا عدة اشتركت في نسب واحد وهي تركز عليه فالشيعة مثلا ينسبون أنفسهم الى أنهم من سلالة علي كرم الله وجهه وإلى فاطمة الزهراء عن طريق ابنها، فهذا الانتساب إلى آل البيت كما يقولون جعلهم أشرافا لابد للأمة الإسلامي أن تأخذه بعين الاعتبار قولا وفعلا، وليسوا وحدهم بل هناك من المتصوفة والطرق الصوفية من ينتسب إلى الرسول عن طريق آل بيته فالنسب الشريف مسألة ذات أهمية في الثقافة الصوفية يتوقف عليها نشر هذا الابداع كما يترتب عليها البعد الاعتقادي والقدسي. وقد لا تنحصر القرابة عند جمهور المتصوفة على هذه المقومات فقط بل أعيد بناء القرابة بناء على النظام الصوفي[2]، ومن خلال ملاحظتنا الميدانية وحديثي مع شيوخ الزوايا كلهم يتفقون على أن نسبهم يعود الى الشجرة الشريفة، مع العلم أن هناك من ينفي ذلك، أسفرت التحقيقات والدراسات عن معطيات كثيرة واستطاعت بفضلها السياسة الاستعمارية أن توجه ضربات قاضية للزوايا من خارجها ومن داخلها كذلك:

- **الاستهداف الخارجي**: ونعني به نختلف الأساليب التي خصت بها الزوايا من خارجها تشديد الحراسة على المشبوه فيهم ومحاصرتهم ومنعهم من أي نشاط سياسي، منع التنقل من غير رخص وقد نبهت التقارير إلى وجود شبكة للاتصالات والعلاقات بين الزوايا داخل الجزائر وحتى بفروعها أو أصولها خارج الجزائر وفجاء الأمر في الحين بالشروع في مرقبة التنقلات واعطاء رخص للمرور، الأمر الذي كان يسمح بالعثور على الذين لا يملكون هذه الرخص مما يعرضهم لشتى أنواع الاضطهاد تحقيقي ضرب تغريم... الخ، ايضا النفي والسجن والتشريد والترويع لزوايا وطرق بعينها مثل الرحمانية والسنوسية. سياسة فرق تسد

(1) عبد الرحمان ابن خلدون، نفسه، ص 95.
(2) الطرق الصوفية في الجزائر، مرجع سابق، ص 510.

وضرب الزوايا والطرق بعضها ببعض حيث عمل الاحتلال الفرنسي على خلق نزاعات وخلافات حول بعض القضايا الهامشية فرعية كالقبض في الصلاة والجهر بالبسملة وقراءتها وكان ذلك سببا في قيام مشاحنات وحزازات بين الأتباع وأخطر تللك النزاعات هو ما كان يؤدي في بعض الحيان غلى التقاتل أو إلى خيانة الوطن والتعاون مع العدو. ايضا اختلاق القضية البربرية والأمازيغية وتكثيف الحملات التنصيرية على منطقة زواوة بالذات بمحاولة لاستبدال الزوايا بالأديرة والكنائس. إقامة مدارس فرنسية مجاورة للزوايا، وهذا ليس من باب الاهتمام ولكنه تمهيد للقضاء على تعليم الزوايا بسحب تلاميذها تدريجا فإن كل الدلائل تدل على أن الفرنسيين قد خططوا لعرقلة التعليم في الزوايا ومنافسته ووضع الشروط المضادة له وسحب التلاميذ منه وعدم التوظيف من خريجي الزوايا.

- **الاختراق الداخلي:** ومن الأساليب التي اخترقت بها الزوايا من داخلها، استعمال شبكة من الجواسيس من أهل الزوايا أنفسهم أو من باقي الأهالي[1]. توقيف النشاطات التعليمية لكثير من الزوايا وتشجيعها على الدروشة والخرافات والدجل، وحتى السحر والألعاب البهلوانية ومثل: 'العمارية' و "العيساوية'، وقد استغل الكثير من أهل الزوايا الأوضاع الاستعمارية وجعلوا من طلاب الزوايا خدما وعبيدا لأهوائهم، الإغراء بالمناصب والألقاب والنياشين والامتيازات.

[1] لوصيف فوزية، المرجع السابق، ص11.

تمهيد:

إذا كانت دراسة الإطار النظري خاصة في العلوم الاجتماعية ضرورية، فإنها تبقى غير كافية للوصول وحدها إلى نتائج علمية وموضوعية رغم نسبة ذلك، كونها عبارة عن مطالب تستوجب التي في صحتها والتأكد من دقتها ميدانيا بأسلوب علمي ومنهجي محدد دلك البحث السوسيولوجي يتسم بالكمال بين جزأين النظري والميداني الذي من شانه أن يسهل التحقق من صحة الفرضيات المقترحة أو لجزء منها أو تعديلها.

1- الدراسة الاستطلاعية:

لكل باحث شيء في داخله تجعل لديه الرغبة في دراسة ومعرفة حياة ونمط العيش في ظل الزوايا والأضرحة وبحكم انتمائي لهذه المنطقة كنت أزورها في المناسبات مثل الركب سيدي الشيخ (الوعدة) كما يقال لها.

قبل الشروع في الدراسة الميدانية قمنا بدراسة استطلاعية من أجل استكشاف المنطقة والتقرب من ميدان الدراسة والتعرف على خصوصيات مجتمع الدراسة وتحديد إطار الملاحظة كانت الفترة الممتدة من جويلية 2015 إلى غاية نوفمبر 2015 الفترة اللازمة للدراسة الاستطلاعية حتى يتمكن الباحث من بناء علاقات صداقة وعلاقات اجتماعية مع سكان المنطقة والقائمين على الصريح وتحديد ما يمكن ملاحظته والاستفسار عنه في حدود الإشكالية المحددة وأهداف الدراسة المسطرة.

الهدف من الدراسة الاستطلاعية والزيارة الميدانية والتي تضمنت الملاحظات الاستكشافية والمقابلات الاستطلاعية التي سمحت لنا بتحديد الإشكالية وبناء الفرضيات في الدراسة الحالية كخطوة هامة للبناء مراحل البحث وتحديد الأدوات التي يمكن استعمالها في الدراسة الميدانية والتي استغرقت مد ديسمبر 2015 إلى غاية 2016.

قمنا باستغلال الدراسة الاستطلاعية في هذه الفترة كل اللحظات والمواقف التي صادفتنا في المنطقة رغبة منا في الحصول على أكبر قدر من المعلومات حول الأضرحة المجاورة والولي سيدي الشيخ، وكذلك سلوكيات الأفراد حول الضريح وذلك ما ساعدنا في تحديد المعطيات الميدانية.

2- المنهج المتبع:

إن المنهج يمثل الكيفية التي يستطيع بها الباحث الوصول إلى إجابات مقنعة لأسئلة دراسة واختيار فروضها إذ يعرف بأنه: " مجموعة منظمة من العمليات تسعى لبلوغ هدف[1].

فهو: "الذي ينير الطريق ويساعد الباحث في ضبط أبعاد ومساعي وأسئلة وفروض البحث"[2].

تجدر الإشارة أن المنهج الذي اخترناه ملائم لدراستنا فقد اخترنا:

2-2- المنهج الوصفي التحليلي:

يعد " أسلوب من أساليب التحليل المرتكز على معلومات كافية ودقيقة عن الظاهرة، أو موضوع محدد من خلال فترة أو فترات زمنية معلومة وذلك من أجل الحصول على نتائج علمية ثم تفسيرها بطريقة موضوعية[3].

هذا ويتضمن المنهج الوصفي دراسة الحقائق الراهنة المتعلقة بطبيعة ظاهرة أو موقف أو مجموعة من الناس أو مجموعة من الأحداث أو مجموعة من الأوضاع ولا تقتصر هذه الدراسة الوصفية على معرفة خصائص الظاهرة بل تتجاوز ذلك إلى معرفة المتغيرات والعوامل التي تتسبب في وجود الظاهرة[4].

تهدف البحوث الوصفية إلى وصف ظواهر أو أحداث أو أشياء معينة وجمع الحقائق ووصف الظروف الخامسة بها تقرير حالتها كما توجد عليه في الواقع أن المنهج الوصفي يمكن من خلاله استخلاص أحكام تصدق على مختلف الفئات المكونة للظاهرة موضوع البحث فإنه لا بد من تصنيف الأشياء أو الوقائع أو الظواهر على أساس معيار محدد.[5]

3- مجال الدراسة:

والتي تنقسم بدورها إلى إطار زماني ومكاني وبشرى الذي يساعدنا في تحديد مجال الدراسة التي يعد أهم خطوات البحث الميداني التي لا يمكن للباحث إغفالها.

---

(1) موريس أنجرس، منهجية البحث العلمي في العلوم الإنسانية، تدريبات عملية، تر: بوزيد صحراوي، كمال بوشرف، سعيد سبعون، دار القصبة، الجزائر، 2006 ، ص 466.

(2) رشيد زرواني، منهجية البحث في العلوم الاجتماعية، دار الكتاب الحديث، الجزائر (ب.ط)، 2004، ص ص 104، 105.

(3) محمد عبيرات، محمد أبو نصار، منهجية البحث العلمي، دار وسائل للنشر، الأردن ، ط2، 1993، ص 46.

(4) فوزي غرايبة، أساليب البحث العلمي في العلوم الاجتماعية والإنسانية، عمان، ط 3، 2002، ص 33.

(5) سامي محمد ملحم، مناهج البحث في التربة وعلم النفس، عمان، دار المسيرة للنشر والتوزيع (ط2)، 2002، ص353.

2-1- المجال الزماني:

يتحدد هذا المجال أو الفترة الزمنية للبحث وفق ما استغرقته مراحل البحث المختلفة والتي تمت كالتالي:

2-1-1- مرحلة جمع المعطيات النظرية وتذوينها:

كان سؤال انطلاقة متداول في مستوى ذهني منذ الفترة التي زرت هاته المنطقة ومنه انطلق بحثي وجمع أكبر قدر ممكن من المعلومات منذ حوالي شهر جويلية 2015 إلى غاية نوفمبر 2015 تقريبا 05 أشهر والتي تضمنت القراءات والمقابلات والتي قادتنا بدورها إلى بناء الإشكالية كخطوة تمهيده للمراحل التي تليها.

2-1-2- مرحلة جمع المادة الميدانية:

والتي استغرقت من سبتمبر لسنة 2015 إلى غاية أواخر فيفري لسنة 2016 ولقد أطلت في هذه المرحلة وذلك لرغبتي في الحصول على اكبر قدر ممكن من المعطيات الميدانية التي تخدم إشكالية وفرضيات الدراسة بأسلوب منهجي وعملي دقيق وفق ما يتطلبه البحث إضافة إلى ذلك بعد المسافة بينه وبين المنطقة الموجدة فيها الزاوية.

2-1-3- مرحلة تفريغ وتحليل البيانات:

استغرقت هذه المرحلة حوالي شهرين ونصف من أواخر شهر فيفري 2015 إلى غاية أفريل من نفس السنة وما تضمنته من جدولة وتحليل إحصائي وكذا سوسيولوجي للبنايات المستقاة من الميدان ومن ثم تفسيرها ولخروج بالنتائج النهائية التي تثبت فرضيات بحثية نسبيا.

2-1-4- مرحلة التقرير النهائي للبحث:

استغرقت بدورها شهرا كاملا نهاية أفريل وبدية ماي 2016 لهذه المرحلة من مراجعة نهائية للعمل شكلا ومضمونا لتجنب الأخطاء الشبكية التي حدث في مرحلة الطباعة.

2-1-3- المجال المكاني:

يتواجد ضريح سيدي الشيخ بمدينة الأبيض سيدي الشيخ نسبة لهذا الولي التابعة لولاية البيض على بعد 12 كلم ويحد الأبيض سيدي الشيخ كل من شمالا أربوات، جنوبا البنود،

شرقا بريزينة وغربا الشلالة وتتربع على مساحة قدرت 2750.859 كلم مربع وعدد سكانها ثمانية وثلاثون ألف نسمة.

فقد تأسست بعد وفاة الأب الروحي لأولاد سيدي الشيخ في بداية القرن العاشر وهذا يعني أنها أنشأت في هذا العهد بل كانت قبل هذا تتوفر على مصلى وبئر اسمه سيدى سليمان بن بوسماحة جوالي منتصف القرن التاسع ويستجدون ضمن ملاحق الدراسة خريطة عن المنطقة.

3-2- الإطار البشري:

يتضمن الإطار البشري الأفراد المتواجدين في المنطقة وتتمثل 50 حالة من الذين يزرون المنطقة منهم 25 ذكور و 25 إناث، وذلك من أجل تحديد خصائص ومميزات المتوافدين إلى الضريح، والأضرحة المجاورة للزاوية المركز (سيدي الشيخ) فتبين لنا أن أكثرهم من فئة الشباب تتراوح أعمارهم ما بين 25 و45 سنة، كما سجلنا من بين الحالات التي قبلناها أثناء الدراسة كل المستويات سواء التعليم العالي المتوسط والمتدني ولاحظنا أنهم يتوافدون على زاوية الأم أكثر من الأضرحة الأخرى.

4- الأدوات المستعملة في الدراسة:

يسعى علم الاجتماع على غرار العلوم الأخرى إلى فهم طبيعة السلوك الإنساني هم محاولة إيجاد أسبابه ودوافعه وكذلك نتائجه، ولتحقيق ذلك لا بد من استخدام وسيلة جمع وتصنيف وجدولة وتحليل البيانات ومن ثم الوصول إلى لحقائق وتشخيصها مع الأخذ بعين الاعتبار وخصوصيات وأهداف كل موضوع التي تفرض على الباحث اختيار أنسب الأدوات لمعالجة بحثنا، ومن ثم اخترنا كل من الملاحظة بالمشاركة الاستعارة بالمقابلة والمقابلة الموجهة وكذا التصوير الفوتوغرافي كوسائل انجح لتتبع محتوى الظاهري التي نحن بصدد دراستها.

4-1- الملاحظة في المشاركة:

هي الأداة التي تمد الباحث بالاستبصارات اللازمة لتصميم الاستمارات والاختبارات كما أنها هامة لاختيار المعلومات الحقيقة اللازمة لتقييم الشواهد التي جمعت بالوسائل الأخرى المتخصصة، فلدراسة الحقلية تتطلب أكثر من مجرد التواجد والمراقة السلبية لما على

الناس، ذاك أن الباحث يحتاج إلى التحري عن كثير مما يظهر له في أول ملاحظة، دون أن تهمل ما يمده الإطار النظري من تساؤلات وموضوعات بحيث أن الباحث عندما يشاهد واقفة يحاول أن يكتشف علاقتها بهذا الإطار المرجعي.[1]

وهي أيضا "طريقة منهجية في البحث الأنثربولوجيي ترتبط بما لنوفسكي إلا أن أصبحت عنصرا أساسيا في الدراسة الميدانية في الأنتروبولوجيا الثقافية والاجتماعية المعاصرة.[2]

أيضا كما يقول ربحي مصطفى وعثمان محمد أن الملاحظة بالمشاركة " هي أنه يقوم الباحث بنفس الدور، ويشارك أفراد الدراسة في سلوكياتهم وممارستهم".

فقد قمنا بمشاركة عينة البحث ومقاييسهم في ميدان الدراسة وذلك من خلال كل لطقوس الذي يقامون بها كطقوس الزيارة والوقوف أمام التابوت ورفع اليدين والدعاء، أيضا مسح الوجه بالغطاء الذي يغطي التابوت، ووضع إشعال الشموع والبخور، إضافة إلى ذلك الطواف داخل القبة.

ومنه البقاء مدة أطول مع الزوار داخل الضريح يمكننا من رصد سلوكيات وتصرفات الأفراد خاصة النساء وتفاعلهم مع تابوت الولي لصالح سيدي الشيخ كما تنقلنا مع الزوار وزيارة القبور المتواجدة بالمنطقة، أيضا زيارة القبب الأخرى لأن أولاد سيدي الشيخ منتشرين في هذه المنطقة وللوهلة الأولى عند دخولك هاته المنطقة نلاحظ وجود 7 قباب كهم أولاده لكن لاحظنا أنهم يتجمعون عند زاوية لمركز أو الأم (سيدي الشيخ) كذلك لاحظنا مدى اعتقاد وتعلق أفراد المجتمع بهذه لزاوية والبرك بها.

كذلك قمنا بمشاركة الزوايا من خلال وجبات الأكل الجلوس معهم الاستماع إلى المدائح التي تتغنى بالولي من أجل معرفة مدى تأثير هذه الزاوية في المجتمع الجزائري وهاته الزاوية ارتبطت بذلك الوعي الموجود في هذا المجتمع.

2-4- الاستمارة بالمقابلة:

---

(1) عبدالله عبد الغني غانم، قراءات وتطبيقات في طرق البحث الأنتروبولوجي، المكتب الجامعي لحديث، الإسكندرية، ط1، 2004، ص 105.

(2) محمد عبده محجوب وآخرون، تخطيط وتطبيق البحوث الأنتروبولوجيا، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية 2008، ص 157.

كما يعرفها موريس أنجرس على أنها "عبارة عن وجيز أسئلة بطرحها المستجوب الذي يقوم في نفس الوقت بتسجيل الإجابات المقدمة من طرف المستجوب تتم عن طريق الطرح الشفوي للأسئلة وتسجيل الإجابات مما يتطلب من الباحث وقتا وتدخلا أكثر[1].

ولقد استعملنا هاته الأداة في دراستا لأنها تساعدنا في جمع المعطيات البحث بشكل مباشر من المبحوثين، وأيضا نظرا لاختلاف مستويات الفئات الاجتماعية التعامل معها أردنا أن تكون بالمقابلة لتجنب ما قد يعيقني في بحثي، حيث قمنا باستجواب 50 مبحوث منهم إناث وذكور وتضمنت هاته الاستمارة بالمقابلة 50 سؤال منها ما هو مفتوح ومنها ما هو معلق ضمن أربعة محاور بالإضافة إلى محور لبيانات الشخصية طبقا لما لهذا المحور من أهمية في إبراز مميزات وخصائص مبحوثا ومن ثم لتقوم بترفيهها بتفريغ تلك الاستمارات وجدولتها ومن ثم قراءتها إحصائيا وسوسولوجيا وإعطاء دلالة مباشرة لفرضيات الدراسة.

3-4- المقابلة الموجهة:

وهي عملية طرح عدد من الأسئلة بحيث: " تكون محددة ومتسلسلة من طرف الباحث"[2] وعلى الباحث أن يتحكم في توجيه المقابلة مع مراعاة المحاور التي يكون قد أعدها مسبقا حتى لا يخرج المبحوث عن موضوع لدراسة، بغية الوقوف على متغيرات الدراسة وذلك لكي تجمع أكبر قدر من المعلومات حول ميدان الدراسة وتوسيع شبكة المعلومات مع مختلف أفراد مجتمع البحث قمنا بإعداد مجموعة من الأسئلة معتمدين بذلك على المقابلة التي تتم "عن طريق الصراح الشفوي وتسجيل الإجابات"[3] ويتطلب من الباحث التدخل من حيث لآخر مع توجيه المبحوث من خلال الأسئلة المطروحة.

4-4- التصوير الفوتوغرافي:

استعنا بالكاميرا التصورية لأخذ بعض الصور أثناء فترة الدراسة الميدانية وتسجيل بعض الفيديوهات للمواسم المقامة خاصة في وعدة سيدي الشيخ لطي يقام كل سنة، وذلك لتوثيق ملاحظاتنا الميدانية، "بعد التصوير الفوتوغرافي من أهم الأدوات التي اعتمد عليها

---

[1] موريس أنجرس، منهجية البحث العلمي في العلوم الإنسانية، المرجع السابق.
[2] محمد عبده محجوب وآخرون، المرجع السابق، ص 105.
[3] موريس أنجرس، المرجع السابق، 206.

الباحثون الأنثروبولوجيون في توثيق ملاحظاتهم الميدانية"[1] فالتصوير يساعدنا في استرجاع كل الصور والملاحظات السابقة في بحثنا.

5- عينة البحث:

يتمثل مجتمع البحث في دراستنا في سكان المنطقة الزائرين المقدم تماشيا مع أهداف البحث وأغراض الدراسة، وتعتبر هذه المرحلة من أهم الخطوات المنهجية في البحوث الاجتماعية إذ يتوقف عليها أجراء البحث وتصميم هو كذا نتائج الدراسة مما يتطلب دقة بالغة من قبل الباحث فالعينة تعرف بأنها "مجموعة فرعية من عناصر مجتمع بحث معين" ووفقا للمتغيرات الأساسية للدراسة وتتماشيا مع أهدافنا البحثية التي نسعى إلى تحقيقها اخترنا نمطين من العينات وهما:

أ- العينة العشوائية:

هي إجراء أساسي يظهر من جديد في مرحلة ما أو أخرى في الأصناف الأخرى في المعاينات الاحتمالية، أن مصطلح عشوائية يعني أننا نستعين بالحظ أو الصدفة في اختيار للعناصر على أن الصفة التي تغنيها هي صدفة مراقبة، إذ نستخدم في العلم كذلك مصطلح العشوائية للدلالة على أننا نستعمل بالصدفة المقصورة، وليس بالصدفة الفجائية لان العمل من حلال الصدفة الفجائية يرجع بناء إلى القول أننا نستعمل بأية طريقة كانت، في حين أن اللجوء إلى استخدام الصدفة المقصودة يعنى اتخاذ احتياطات خاصة أثناء السحب بإعطائه ميزة علمية وذلك يمنح كل عنصر من عناصر مجتمع البحث إمكانية معروفة للظهور بين العناصر المختارة مع السعي ما أمكن تجنب ذلك التوافق البسيط.

إن مصطلح بسيط يعني أن السحب سيتم بطريقة مباشرة على أساس قاعدة مجتمع البحث[2].

ب- العينة القصدية:

---

[1] محمد الجوهري وآخرون، الأنتروبولوجيا الاجتماعية قضايا الموضوع والمنهج، دار المعرفة الجامعية، مصر، 2004 ص353.

[2] موريس أنجرس، المرجع السابق، 304.

كنوع من أنواع العينات الغير عشوائية والتي: "يختارها الباحث عن قصد لأنه يرى أنها تحقق أهداف دراسته بشكل أفضل، وبالتالي فإنه يتبقى عناصر العينة لأنه يعرف مسبقا أنهم الأقدر على تقديم معلومات عن مشكلة بحثه[1]، وعيننا في الدراسة هي ضريح الولي الصالح سيدي الشيخ بمنطقة التي سميت باسمة" الأبيض سيدي الشيخ" والذي يتربع على ضريح كبير عكس الأضرحة الأخرى التي تحمل أولاده المنتشرين في هذه المنطقة فقد كان اختيارنا الضريح هذا الولي يشكل عمدي لعدة أسباب أبرزها التقرب لهذا الولي كن طرف أفراد المتجمع لزيارته بشرة ويشكل مستمر ومن عدة مناطق من التراب الوطني وممارسة مختلف الطقوس خصوصا في المناسبات.

أما بالنسبة للمبحوثين فقد قمنا باختيارهم بطريقة عشوائية كون زوار الضريح مناطق مختلفة ومن فئات أيضا مختلفة سواء كانت عمرية أو جنسية فقد استجوبنا 50 زائر من بين آلاف من الزوار والذين لا تستطيع حصر مجتمع بحثهم كونهم قد يترددون بشكل يومي خاصة إذا كانوا مقيمين بالمنطقة لزيارة الضريح وقد لا يأتون لزيارته إلا مرة واحدة دون أن نهمل أن الزوار من مناطق مختلفة فهناك من تصادفهم مرة طيلة فترة البحث وهناك من تراهم بشكل دائم خاصة ي موسك الخاص بالضريح (ركب سيدي الشيخ).

6- عرض وتحليل البيانات:

والتي تتضمن جدولة البيانات أهم المؤشرات والمعطيات التي تعكس فرضيات الدراسة.

6-1- عرض شبكة الملاحظة:

تسجيل محتوى الملاحظات	غرضها	نوعها	مكان الملاحظة
* توجهنا في يوم الجمعة الى منطقة الأبيض سيدي الشيخ التي تبعد عن الولاية ب 120 كلم فقد لاحظنا توجه عدد كبير من الأفراد نحو ضريح سيدي الشيخ رغ وجود بعض الأضرحة المجاورة لكن الأغلبية يتوجهون نحو ضريح الولي الصالح سيدي الشيخ منها ترك فيا أكثر من انشغال ودفع بنا إلى	دراسة استكشافية	غير مقصودة	منطقة الأبيض سيدي الشيخ

[1] فوزي غرايبية وآخرون، المرجع السابق، ص 15.

طرح العديد من الأسئلة والرغبة الكبيرة في الإجابة عنها بالبحث والتشخيص ومن هنا بدأت رحلانا البحثية.			

تسجيل محتوى الملاحظات	غرضها	نوعها	مكان الملاحظة
*** وصف الجانب الشكلي من الخارج للضريح:** موقعه في الوسط تقابله مساحة شاسعة بها دكاكين ومحلات للكراء خاصة في المواسم الدينية مكتوب على الضريح اسم (سيدي الشيخ) ذو لون بيض وفي القبة اخضر واجهته مزخرفة له مدخل رئيسي ثم يأتي الباب الذي يؤدي إلى الضريح وفي أعلى الباب مكتوب عليها آيات قرآنية وعبارة سيدنا عبد القادر بن سماحة الملقب بسيدي الشيخ.	دراسة استطلاعية	مقصودة	ضريح سيدي الشيخ
*** الجانب الداخلي للضريح:** عندما تدخل للضريح تجد غرفة فيها قبر وصندوق مصنوع الإسمنت توضع فيه النقود أو ما يطلق عليها اسم "الزيارات" معلقة عليها صور متنوعة وصور خاصة بشجرة العائلة فتدخل مباشرة إلى غرفة لين يوجد فيها تابوته الذي مغطى بأغطية لونها اخضر تنبع منها رائحة زكية أما عندما ترى إلى السقف تلاحظ زخرفات وألوان مرصعة أما التابوت به باب يدخل منه الزوار بحجة أهم يريدون التحدث إلى الولي والتمسح والتبرك بتلك الأغطية أما عند الحواف في القاعة توضع مفروشات مخصصة للجلوس ورفوف مخصصة لوضع البخور والشموع في جميع زوايا الضريح.	دراسة استطلاعية	مقصودة	ضريح سيدي الشيخ

*** نوع الأشخاص وسبب تواجدهم:** لاحظنا من الوهلة الأولى وجود زوار من فئات عمرية وجنسه مختلفة لكتن الغالبية كانت نساء وفي متوسط العمر، أيضا لاحظنا وجودة أفراد من عائلة واحدة يتجهون بشكل جماعي إلى الضريح وكانوا يقومون بسلوكيات وطقوس خاصة بالضريح فهي عبارة عن التبرك بقبر الولي وقلع الأحذية والدخول إلى الضريح الدوران على لزاوية وإشعال البخور والدعاء داخل التابوت وعند باب لتابوت لاحظنا ازدحام كبير كأنهم يتسابقون من الذي يكون له الشرف لدخول لهذا المكان والوقوف على قبره ود لاحظنا أن كل زائر له قصد معين من الزيارة هناك من جاء لطلب الشفاء والبنات لقصد الدعاء للزواج إلي غير ذلك.	دراسة ميدانية	مقصودة	ضريح سيدي الشيخ

*** تفاعلات الزوار:** مما لاحظناه في البداية تلك التكتلات العائلية كانوا مجتمعون مع بعضهم لكن سرعان ما يندمج غالبتهم مع الزوار الآخرين بعد الاحتكاك معهم كونهم أما يعانون من نفس المشكل أو المرض أو يحبون هذا الولي ولديهم نفس الاعتقاد حوله وبالتالي لاحظنا أن الضريح مازال يحافظ على مكانته التي كان عليها منذ القدم.	دراسة ميدانية	مقصودة	ضريح سيدي الشيخ

*** نوع الأحداث:** يقام ككل سنة موسم الضريح أو ما يسمى ركب "سيدي الشيخ" ويتم هذا التجمع في كل عام في أواخر جوان، طيلة ثلاث أيام متتابعة تجتمع فيه الطرق الصوفية وأحفاد سيدي الشيخ فقد لحظنا أن هناك من يحضر لأول مرة وهناك من يسمى نفسه حبيب سيدي الشيخ والمريدون أما الطلبة فيقومون بخدمة الزوار والإشراف على إطعام وإقامة الزوار في الزاوية وقاعات مخصصة لذلك وتتخلل هذه الاحتفالات ألعاب المبارزة ومسابقات	دراسة ميدانية	مقصودة	زاوية سيدي الشيخ

الفروسية الذي يطلق عليها عندهم "العلقة" والفرق الفلكلورية وطلقات البارود وتستكمل بالصلاة والتبرك بالمقام وبمؤسس الطريقة الشيخية. كذلك لقد انتباها وجود عروسة وعروسة جاءت لزيارة الضريح كأنها عادة كل من تزوج يأتي إلى الضريح والدعاء عنده لك يبارك زواجها ويعطهم الذرية الصالحة. وما لحطناه وجود عدد من الدراويش منتشرين ويتجولون في المنطقة والناس والزوار تقدم لهم لقمات من الأكل وهناك من يوزع الحلوى والتمر كأنه يصدقه ، كذلك لاحظنا وجود امرأة تقدمنا منها سألنها عن وجودها ولاحظنا أنها ربطت بطنها بخيط وبعد ذلك وضعته أو علقته داخل الضريح لأنها لم تنجب وفعلت ذلك لكي تنجب ودعت أنه إن أنجبت ستسمي ولدها على اسم الولي سيدى الشيخ.			
*** الفترات الملائمة للملاحظة:** لاحظنا عند توجهنا لمكان الدراسة ان الفترة المفضلة للزوار الذين يقومون بعيدا تكون أيام نهاية الأسبوع ، أما السكان القاطنين بالمنطقة تقريبا كل يوم وخاصة يوم الجمعة بعد صلاة الظهر تخرج العائلات للتنزه وزيارة الضريح لكن المكان يصبح مكتظا بالزوار أيام المناسبات الدينية كالمولد النبوي، يوم عاشوراء الذي يقومون بختان الأطفال جماعة. أما المناسبة التي لا تكاد تتسع للزوار مناسبة التي تخص موسم الضريح أو عدة سيدي الشيخ (الركبي).	دراسة ميدانية	مقصودة	ضريح سيدي الشيخ

2-6- جدولة وتحليل بيانات الاستمارة:

2-1-6- الجداول البسيطة: والتي تتضمن جدولة البيانات الشخصية

الجدول 01: يوضح فئة العمر لأفراد العينة

الجنس	التكرار	النسبة
ذكور	20	%40
إناث	30	%60
المجموع	50	%100

- القراءة الإحصائية للجدول رقم 01:

من خلال الجدول المدون أعلاه نلاحظ أن غالبية زوار ضريح سيدي الشيخ هم من فئة الإناث وذلك بنسبة 60 بتكرار 30 مرة مقابل نسبة 40 بتكرير 20 مرة من فئة الذكور.

- القراءة السوسيولوجيا للجدول رقم 01:

من خلال القراءة الإحصائية للجدول أعلاه نتواصل أن غالبية زوار الضريح فئة الإناث كأعلى نسبة، مما يدل على أن المرأة هي الأكثر إقبالا على زيارة ضريح سيدي الشيخ مقارنة بالرجل والذي قد يعود بسبب توفر الوقت بالنسبة لها كون غالبيتهم ماكثات في البيت فمن هن سكان المنطقة كما لا يجدن معارضة من قبل عائلاتهم إذا تعلق الأمر بضريح ولي مقارنة بأماكن أخرى أيضا بالنسبة للعازبات تقوم بصداقات بغرض الزواج ولديهن اعتقادا ف بركة الولي أنه يساعدهن في الزواج، وهناك من يفترض أن المرأة تتنفس عن نفسها وذلك يعطيها الراحة النفسية والجسدية.

2-2-6- الجدول رقم (02):الحالة العائلية للزوار

الجنس / الحالة العائلية	ذكور		إناث		المجموع	
	ت	ت%	ت	ت%	ت+ث	ن+ن

أعزب	7	%14	818	16	15	30%
متزوج	13	26%	4	8	17	34%
أرمل	00	00%	9	18	9	18%
مطلق	5	10%	4	8	9	18%
المجموع	25	50%	25	%50	50	100%

- القراءة الإحصائية للجدول رقم (02):

ما يمكن ملاحظته من خلال الجدول أعلاه أن الحالة العائلية لغالبية زوار ضريح سيدي الشيخ كمن فئة المتزوجين بنسبة 26% بتكرار 13 مقابل الإناث المتزوجات بنسبة 8% بتكرار 4 أما بالسبة لفئة الأرامل كانت النسبة الأكثر عند الإناث بنسبة 18% بتكرار 9 مقابل 00% عند الذكور، أما فئة العزاب فكانت متقاربة بين لجنسين حين تسجل نسبة 14% بتكرار 7 عند الذكور ونسبة 16% بتكرار 8 عند الإناث وفئة المطلقين سجلنا نسبة 10% عند الذكور بتكرار 5 ونسبة 8% عند الإناث بتكرار 4 مرات.

- القراءة السوسيولوجية للجدول رقم (02):

بعد قراءتنا للجدول أعلاه إحصائيا توصلنا إلى أن الحالة العائلية لزوار ضريح سيدي الشيخ من فئة المتزوجين التي هي أكثر إقبالا على زيارة الضريح مما يدفع بنا إلى التساؤل حول سبب تلك الزيارات ربما لوجود مشاكل عائلية، ومن ثم الهروب بحثا عن متنفس من خلال الزيارات، أما عند فئة الإناث أن غالبية الزوار من فئة الأرامل سجلنا نسبة 18% على عكس العازبات نسبة 16% ولعل لجوئها للزيارة هروبا من اضطهاد المجتمع وأيضا سيطرة السلطة الذكورية سواء كان أب و أخ.

إن زوار سيدي الشيخ يتكونون منة طبقات اجتماعية متباينة ومختلفة ويمكن إرجاع سبب الزيارة إلى الظروف الاجتماعية والنفسية لفئات الاجتماعية بكل حب حاجته وغايته وكذلك لانتشار ثقافة زيارة الأضرحة بين أفراد المجتمع الجزائري منذ القدم وبدلك الضريح حافظ على دوره علة نفس الكتلة التاريخية.

إن ممارسة الطقوس حول الضريح لا تكمن وظيفتها في الواجب الديني فقط وإنما أيضا الوظيفة التفافية والاجتماعية النفسية والسياسية.

2-3-6- الجدول رقم 03: المستوى التعليمي للزوار

الجنس / المستوى الدراسي	ذكور		إناث		المجموع	
	ت	ن%	ت	ن%	ت+ث	ن+ن
أمي	6	%12	4	%8	10	20%
ابتدائي	3	06%	2	%8	5	10%
متوسط	8	16%	11	%22	19	38%
ثانوي	5	10%	6	%12	11	22%
جامعي	3	06%	2	%4	5	10%
المجموع	25	50%	25	%50	50	100%

- القراءة الإحصائية للجدول رقم 03:

من خلال الجدول أن غالبية الزوار من المستوى التعليمي المتوسط لمختلف الجنسيين، فكانت أعلى نسبة عند الذكور 16% وعند الإناث 22%، كما سجلنا المستوى التعليمي الثانوي لدى الإناث ب 12% وبدون تعليم 8% والجامعيات بنسبة 4% والابتدائي ب 6%، أما لذكور فكان نسبة التعليم الثانوي 10% والجامعي 6% والأميون فكانت بنسبة 12%.

- القراءة السوسيولوجية للجدول رقم 03:

نلاحظ من خلال الجدول أعلاه أن 19 شخص من مجموع 50 شخص أي 38من المستوى التعليمي المتوسط وثمة 16 شخص أي 32% من المستوى التعليمي بين الثانوي والجامعي أي في مجموع الفئات المتعلمة نجده 70% من الأفراد يأتون إلى زيادة ضريح سيد الشيخ وهي نسبته على أن زيادة الضريح لا تقتصر على الأميين، أو ذوي مستوى التعليم المتدني وهذا يدل على أن الأضرحة والزوايا لا تتأثر باختلاف المستويات الثقافية

والاجتماعية بين أفراد التجمع وذلك يدل على أن ظاهرة الأضرحة (زاوية سيدي الشيخ) بقيت محافظة على كيانها التي تمتعت بخصوصيتها الثقافية والهوية الإسلامية تمل في طياتها لحتمية الثابتة التي تعمل على استمرارها.

2-4-6- الجدول رقم 04: سبب الزيارة

الجنس / سبب الزيارة	ذكور		إناث		المجموع	
	ت	ن%	ت	ن%	ت+ن	ن+ن
طلب العلاج	11	%22	13	%26	24	48%
حاجات اجتماعية	7	14%	9	%18	16	32%
الفسحة	2	04%	1	%2	3	6%
التبرك	5	10%	2	%4	7	14%
المجموع	25	50%	25	%50	50	100%

- القراءة الإحصائية للجدول رقم 03:

من خلال الجدول أعلاه نلاحظ أن 48% بسبب العلاج بالنسبة لتوافد الزوار إلى ضريح سيدي الشيخ بينما 32% بسبب أغراض اجتماعية وكانت اقل نسبة 6% من أجل الفسحة و 14% من أجل التبرك.

- القراءة السوسيولوجية للجدول رقم 04:

نلاحظ من خلال النسب أن غالبية الزوار كان سبب توافدهم إلى ضريح سيدي الشيخ من أجل العلاج وفك السحر وأيضا عدم إنجاب الزوجة، وتأخر زواج البنت أو الولد وهذا ما يدفع الزوار إلى اللجوء إلى زيارة لضريح من أل طرد الأرواح الشريرة على حد تعبيرهم المختلفة "لي فيا يروح".

وكل هذا يؤكد لنا صحة فرضيتنا وأن هاته الزاوية بقيت محافظو على مكانتها من خلال جذب السكان والمرضى والزوار للعلاج كل من الأمراض النفسية والاجتماعية رغم

تطور الطب دائما هناك أمراض مستعصية العلاج مما دفع الزوار إلى اللجوء للضريح الولي.

2-5-6- الجدول رقم 05: بوضع العلاقة بين زوار الضريح موسمه السنوي (ركب أو عدة) مع مدى الالتزام بحضوره كل سنة.

حضور ركب سيدي الشيخ	اختياري		إلزامي		المجموع	
	ت	ن%	ت	ن%	ت+ث	ن+ن
غالبا	18	%36	20	%40	38	76%
دائما	7	14%	05	%10	11	22%
أحيانا	0	00%	00	%00	00	00%
أبدا	0	00%	00	%00	00	00%
المجموع	25	50%	25	%50	%49	98%

- القراءة الإحصائية للجدول رقم 05:

من خلال قراءتنا الإحصائية للجدول ، تبين لنا أن نسبة 36% بتكرار 18 مرة واغلبهم من فئة الإناث اللواتي يحصرن الموسم السنوي للضريح بشكل اختياري و40% بتكرار 20 مرة بالنسبة من يلتزمن دائما بحضوره كل سنة وتليها 14% والمتكرر 7 مرات بشكل اختياري 109% بتكرار 5 الذين يأتون يلتزمون بحضوره غالبا ودائما كل سنة.

- القراءة السوسيولوجية للجدول رقم 05:

من خلال الجدول أعلاه واستنادا إلى التحليل الإحصائي نلاحظ أن هناك من الزوار من يحضر الموسم السنوي أو الوعدة لضريح سيدي الشيخ عند اختيارهم إلا أن غالبيتهم من يحضرونه بشكل إلزامي مرجعين تل الإلزامية عدم قدرتهم عن مخالفة ذلك الموعد السنوي مما يعزز استمرارية وعيهم بزيارة ضريح الولي فلا يستعطون مخالفة حضور موسمه السنوي، بينما يرجع من يحضرونه عن اختيار منهم إلى رغبة في ذلك فقط.

وبالتالي نتوصل أن ضريح سيدي الشيخ حافظ ومازال يحافظ على مكانته الراسخة منذ القدم وذلك من خلال الاحتفال السنوي أو ركب سيد الشيخ كما يسمونه لذي يساعد وساهم في استمرارية وعي الأفراد بزيارة ضريحه كل سنة على اعتبار أن الموسم خطة تجديدية لعلاقة الإنسان بحفل القداسة ورسم لمعالم وحدود وكذا تداخل الجماعات والفئات الاجتماعية، وهو ما يجعله لإشكال التخيل الجمعي وأنماط المعتقدات الكونية والمحلية[1].

6-3-5- الجدول رقم 06: بوضع العلاقة بين إقامة لزوار بالاحتفالات المصاحبة لموسم إحياء التقاليد أم لأن الولي كان يقيمها سابقا.

إقامة الاحتفالات	إحياء التقاليد		بسبب آخر		المجموع	
لأن الولي كان يقيمها	ت	ن%	ت	ن%	ت+ث	ن+ن
نعم	15	%30	20	%40	35	70%
لا	10	20%	05	%10	15	30%
المجموع	25	50%	25	%50	%50	100%

- القراءة الإحصائية للجدول رقم 06:

ما يمكن ملاحظته من خلال الجدول أن نسبة 40% المتكررة 20 مرة كأعلى نسبة تتمثل في فئة لزوار الذين يقيمون الاحتفالات لسبب آخر وأن الولي كان يقيمها بنسبة 30% المتكررة 15 مرة.

- القراءة السوسيولوجية للجدول رقم 06:

من خلال الجدول المشار إليه أعلاه نلاحظ أن هناك من الزوايا من يقيم تلك الاحتفالات المصاحبة للموسم إحياء للتقاليد (وعدة سيدي الشيخ) ، وهناك من يقيمها لسبب آخر والمتمثل في حسب إجابات لغالبية أن سيدي الشيخ هو من كان يقيمها، وبالتالي استمرارية الممارسات التي كان يؤديها الولي بقدمها قد تدل على استمرارية وعيهم بزيارته من خلال إقامتهم لما كان يقوم به من ممارسات يوم أو أيام الموسم السنوي ، فإعادة تكرارهم لها إحياء لما كان يقوم به الولي سابقا يعزز استمرار وعيهم بزيارة ضريحه ويرسخ في

[1]-نور الدين الزاهي، المقدسي الإسلامي، دار توبقال ، المغرب ، (ب.ط)، 2005، ص 50-52، ص 15.

أذهانهم ويجدد كل سنة وعيهم بذلك، إذن هذا يؤكد لنا فرضية محافظة زاوية الأم أي ضريح سيدي الشيخ على مكانته من خلال الاحتفالات كل سنة.

9- المقاربة السوسيولوجية:

لقد حاولنا إسقاط المفاهيم التي بيناها حول موضوع دراستنا بتبني نظرية قد تعكس المجتمعات أو البيئة التي عاصرها رواد باحثين في هذا المجال.

- الاتجاه البنائي الوظيفي:

ترى المدرسة الوظيفية أن المجتمع نظام معقد تعمل شتى أجزاء سويا لتحقيق الاستقرار والتضامن بين مكوناته إذ هناك علاقة تربط المجتمعات يبعضها البعض، وعلى هذا الأساس يمكن أن نقول أن الأضرحة لها صلة بمؤسسات المجتمع كمثل الزوايا والأضرحة الأخرى لأن أجزاء المجتمع المختلفة تنمو بصورة متقاربة ومتكاملة.

أن المدرسة الوظيفية تشدد على أهمية الإجماع الأخلاقي في الحفاظ على النظام ولاستقرار في المجتمع وينجلي الإجماع الأخلاقي في هذا عندما يشرك اغلب الناس في المجتمع في القيم نفسها، ويرى الوظيفيون أن النظام والتوازن يمثلان الحالة الاعتيادية للمجتمع، ويرتكز التوازن الاجتماعي على وجود اجتماع أخلاقي بين أعضاء المجمع أن وركايم على سبيل المثال، كان يعتقد أن الذين يؤكد تمسك الناس بالقيم الاجتماعية لجوهرية ويساهم بالتالي في صياغة التماسك الاجتماعي.[1]

تحليل المقابلات مع المريدين وشيوخ الزاوية:

من خلال المقابلات التي أجريت مع المريدين تم رصد العديد من الاعتقادات المتعلقة بشيخ الطريقة الشيخية المؤسس وكذا مفهوم الشيخ والولي عموما، ومن خلال المقابلة استطعنا استخلاص وتحليل أراء بعض المريدين التي جاءت على النحو التالي:

المقابلة الأولى:

يقول احد المريدين الذي ينتسب إلى الولي الصالح سيدي الشيخ انه ورث هذا الانتساب من أبيه وعائلته فقد كان يزور الزاوية والأضرحة منذ نعومة أظافره وبذلك المحيط الأسري

(1) أنتوني جيدنز، علم الاجتماع، تر: فايز الصياغ، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، مؤسسة ترجمان، عمان، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط 2005، ص (74)، الطبعة الكترونية من موقع (4Shared)

يلعب دورا أساسيا حب الانتساب لهذه الزاوية وكذلك إعجابه الكلي وما زاد تعلقه لها مقدم الطريقة وحبه له فهو من بث فيهم تعلقه بالفكر الصوفي.

يقول احمد حينما سألته عن شيخ الطريقة الشيخية وما الذي يمثله له فقال نحن من الأشراف ونحن من سلالة أهل البيت على حد قوله ينتسب إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

كما يجزم وبكل قناعة مطلقة بان الشيخ المؤسس له كرامات بل ولكل ولي كرامات وأن الكرامات قد تظهر حتى عند الإنسان العادي المطيع والقريب من الله كما كان ولينا عبد القادر بن بوسماحة وضرب مثلا في إقبال وكثرة المريدين للشيخ المؤسس ولطريقته هي إحدى الكرامات التي وهبها الله له رغم موته .

ويرى احمد بان لابد على المسلم أن يكون لديه شيخ يقتدي به حيث عدم الانتماء إلى أي طريقة صوفية في نظره هذا الشخص غير مرتقي في إسلامه أو في إيمانه حيث قال الإنسان المتصوف هو أرقى وأسمى من الإنسان غير متصوف عند الله وهذا الفكر ليس بجديد فلطالما اصطدم هذا الفكر بالفكر الوهابي المضاد له والذي ينكر كل أفكار التبجيل والتعظيم من غير الله تعالى وهذا مت سيتطرق، فقد أفصح بأنه لا يمكن للمؤمن بان يصل إلى درجة الإحسان إلا عن طريق إتباعه لإحدى الطرق الصوفية وآن الذي يفعل ذلك تنقلب أعماله العادية إلى أعمال عبادية وذلك عن طريق نية الفرد، ومن خلال أسألتنا الموجهة لهذا المريد لاحظنا أن فكره وولائه للطريقة الصوفية الشيخية تعلقه الكبير بالأفكار الصوفية عامة وإلى منهج شيخه بصفة خاصة وهذا ما سهل لنا ملاحظة بأن المتصوفة يأخذون يأخذون النص الديني سواء كان قرانا أم حديثا قدسيا ويقومون بتفسيره وتحليله بما يضمن لهم مصداقية أفكارهم ومعتقداتهم من أمور التبجيل والتعظيم فأحمد كغيره من الأتباع والمريدين نجد بأن الفكر الصوفي الذي يتبناه هو وغيرهم مليء بالأفكار والمعتقدات التي تتخذ من الدروشة والتقديس وغيره من الطقوس اللا منطقية أحيانا.

إن المتصوفة يتلقون من شيوخهم تفسيرات و تحليلات للخطابات الدينية بما يخدم فكر أو اتجاه معين كما أن من الملاحظ وجود معظم الزوايا في الأحياء الشعبية فالبيئة تلعب دورا في انتشار هذه المعتقدات وترسخها بسرعة في أذهانهم.

المقابلة الثانية:

مع احد مريدي الطريقة الشيخية المواظبين منذ خمس سنوات وهو يقول بأنه تعرف على الطريقة من خلال المحيط والبيئة الاجتماعية التي يقطن بها رغم انه صرح بان والداه يعتقدان ويسلمان بالأولياء الصالحين والتصوف فهذا المريد وجد الجو والمحيط ساعدته لانتهاج الفكر الصوفي إضافة إلى الروابط الأسرية باعتبارها اللبنة الأساسية في تكوين المجتمع.

يقول إبراهيم هذا المريد رغم صغر سنه "نحن نتعامل بمبدأ التسليم أبا عن جد إذ أننا نسلم بكل الأمور المتعلقة بشيوخ الزوايا ولا نعرف الإنكار عليهم أبدا ودون أن نبحث أو نحقق في كل ما يسرد علينا من معتقدات وأساطير عن ولينا" وأردف قائلا "أن الشخص الغير منتمي للطريقة يسلك طريق غير محروس جيدا من إغراءات الشيطان وانه قد يتعرض لإنزلاقات عديدة أما في طريق التصوف وإتباع شيخ ما يكون ذلك قد اتبع طريق مضمون لا خوف عليه من إبليس وأتباعه ويرى أن هناك نوعان من الناس الذين لا يتبعون التصوف هما أناس يجهلونه وأناس ينكرونه.

المقابلة الثالثة:

مقابلتنا هذه كانت مع مقدم الزاوية كما يسمونه سي الطيب الذي راح يروي لنا بقوله "نحن لم نرى شيخنا سيدي الشيخ ولكننا بدخولنا تحت ورده وهي عبارة عن أذكار تحفظ عن ظهر قلب نكون اتصلنا بيه وبمجرد حفظك وتمكنك من الورد فأنت منتمي للطريقة الشيخية"، وهو يعتقد بشدة بأن الوصول إلى الله تعالى ومعرفته حق المعرفة يجب أن تمر على مراحل وهو معرفة الشيخ عبد القادر بن بوسماحة وأن شيخهم له عدة كرامات وأن الله فضله من بين الناس وأعطاه هذه الكرامات لصدقه وإيمانه بالله عن طريق الفكر الصوفي والزهد في الحياة. ما شدني في كلامه إحساسه وحبه وفخره بشيخه وطريقته

الصوفية وراح يقول حبي لشيخي وحبي لرسول الله صلى الله عليه وسلم مرتبطان ببعضهما البعض.

المقابلة الرابعة:

مع فتى صغير السن ليس من منطقة الأبيض سيدي الشيخ ينحدر من ولاية تيارت طرحت عليه بعض الأسئلة يقول رسوبي في المدرسة وبذلك لم يسمح لي بدخول الجامعة وبذلك طلب مني والدي الذهاب للزاوية للدراسة تعاليم والطريقة الشيخية، نلاحظ أن فشله في الدراسة ورسوبه بالإضافة إلى والديه كلها عوامل ساعدته على الاهتمام بالفكر الصوفي وكأنه وجد السلام والأمن في التعاليم الصوفية والطريقة الشيخية قال "عندما اذهب في العطلة لمنزلنا اشتاق إلى جدران وقبة سيدي الشيخ " نلاحظ مدى تعلقه بالفكر الصوفي فهو مريد مواظب وتلميذ مجتهد ويهتم بأمور الزاوية يقول "الشيخ عبد القادر من أهل البيت وأن سيدي الشيخ له كرامات وليس شخصا صالحا عاديا إذ انه يمتلك درجة قرابة من الله تتمثل وتتجلى في تلك الكرامات وخوارق التي وهبها الله إياها، وأردف قائلا "أن الزاوية الشيخية بالنسبة لي هي المنهج الذي اتبعه في حياتي وهي تمثل لي كل شيء".

المقابلة الخامسة:

عند دخولي إلى ساحة الضريح رأيت جماعة من الناس متجمعة لمحت رجل مع أشخاص كأنهم فرقة موسيقية قال لي عمي طاهر كأنه هو رئيس الفرقة أننا نمدح الولي الصالح سيدي الشيخ وهذا ما يسمى "الحضرة" هي عبارة عن كلام تابع للطريقة الشيخية فهو نوع من الممارسات الصوفية وأكد لي أنهم من أحباب الولي ومن المريدين وكل تابع للطريقة الشيخية عليه أن يحفظ هذا الكلام أي يقصد "الحضرة "التي هي متكونة من الورد والذكر والحزب:

- الورد: وهو تركة الشيخ الذي يكشف للمريدين الجدد الطريق الصعب للكمال.
- الذكر: وهو عبارة عن صلوات تتضمن لائحة طويلة من الابتهالات والدعوات.
- الحزب: وهو نوع من الصلاة الإضافية الزائدة عن الواجب وتكون مخصصة للقراءة.

إن التطبيق الجيد لهه المقومات الروحية حسب معتقديها يؤدي بالمريد ويقوده إلى الاتحاد بالله و هو هدف كل متصوف. وبغض النظر عما يمكن أن نجده من اختلاف بين هذه

الطريقة أو تلك فإن كل الطرق الصوفية اعتمدت مفهوم الحضرة بدلالات جديدة تتناسب مع الغاية الوظيفية والسلوكية والتربوية التي قصد إليها الشيوخ قصدا وهكذا أصبحت الحضرة مجموعة من طقوس المريدين يكون على رأسها شيخ عارف بالطريقة يقود الحفل وينبه على كل ما من شأنه أن يشوش إمكان الوصول إلى لحظة الصفاء العلوية وتسمى هذه عادة حضرة السلوك وأنشطتها تختلف بين اليومي والأسبوعي حيث يخصص بعضها للمريدين الراغبين في العلم والدرس ويعقد بعضها للذكر[1].

خلاصة القول أن تعاملنا مع المريدين والمبحوثين كان يسير بطريقة عفوية وذلك باستخدام المقابلة الموجهة مما ساعد على ظهور التصورات التي يتبناها المريدون، وأتباع الطريقة الشيخية فيما يتعلق بالأفكار والطقوس والممارسات وذلك عن طريق التحليل السوسيولوجي لأهم نتائج الدراسة والمتمثلة في التمثلات الفكرية والطقسية للأولياء الصالحين عن طريق قياس تمثلات الأربع محاور الآنفة الذكر، لنخرج في الأخير بأن الولي الصالح يشكل بالنسبة للمريد أكثر من كونه معلم ديني فهو القدوة والمنقذ من الضلال.

إن المنهج الصوفي يشترط على الشيخ الولي أن يكون عالما وتظهر في معالمه صفة العلم إلا أننا لم نلمس صفة العلم، إلا أننا لم نلمس صفة العلم ووجدنا أن الأضرحة والزوايا مرتبطة ببعضها البعض لا تذهب إلى ضريح ولي ولا توجد عنده زاوية تابعة لهذا الضريح مما ينتج عنه أن استمرار الزوايا إلى يومنا هذا في قيامها بوظائفها منذ أزمنة طويلة دليل على أن لها قيمة في حياتنا سواء كان تعليم القران والفقه أو نقل الخبرة ونحن كباحثين في علم الاجتماع شدني موضوع الزاوية والضريح باعتبارها لم تأخذ حقها من الدراسات الانتروبولوجية ولم تسلط على بعض الجوانب المتعلقة بظاهرة الزوايا والأضرحة الخفية التي سنكتشفها في البحوث القادمة.

[1] بن محمد الميلي مبارك، رسالة الشرك ومظاهره، دار البعث الجزائر، الطبعة الثالثة، 1982، ص 55.

الإستنتاج العام :

من خلال ما توصلنا إليه في موضوع دراستنا استطعنا الوصول إلى إستنتاجات هامّة حول الزوايا في الجزائر عامّة وزاوية الأبيض سيدي الشيخ بالبيض بصفة خاصة, وذلك بالنسبة لدورها الاجتماعي والتربوي داخل المجتمع منذ تأسيسها إلى يومنا هذا.
وتمّ التوصل إلى النتائج التالية:

إنّ الدور الاجتماعي والتربوي زاوية الأبيض سيدي الشيخ قد ساهم بوضوح في إستمرارها لمدة 5 قرون ونصف من الزمن إلى يومنا هذا وهي تؤدي في دورها الذي تأسست من أجله رغم ما تعرضت له من صعوبات من فترة إلى أخرى والناتجة عن التغيرات والمستجدات التي تحدث في البلاد فالزاوية تؤثر وتتأثر بمحيطها ومجتمعها ككل.

من خلال تتبع دور زاوية الأبيض سيدي الشيخ الاجتماعي والتربوي عبر مراحلها فإنه في فترات يتقلص وفي فترات أخرى يزداد حسب الظروف التي تمرّ بها الزاوية ولكنه إلى حدّ الآن لم يصل إلى ما كان عليه في عهد الشيخ المؤسس حيث كانت الزاوية في أوجّ قوتها ونشاطها الاجتماعي والتربوي بالرغم من استعادتها في المدّة الأخيرة لنشاطها الذي كانت عليه وذلك بعد استرجاعها لبعض أوقافها.

فلقد عملت منذ تأسيسها إلى الآن على مواكبة مستجدات العصر، فكانت تدخل مناهج وهياكل جديدة، بقصد التعديل أو التغيير، ولكي تحافظ على مكانتها الاجتماعية ومواكبة التحديات الخارجية مما جعل لها صيتا يقصدها الناس من كل جهات الوطن إما للزيارة أو الدراسة أو غيرها من الاحتياجات التي تقدمها الزاوية حيث لم تبقى وظيفتها أحادية والمتمثلة في تحفيظ القرآن وبعض علوم الفقه ، ليتجه دورها إلى المجتمع الخارجي بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما كان لها دور في تقليص نسبة الأمية وتعتبر مكملة لدور المدرسة الرسمية كما كانت عامل جذب للسكان وتعمير المدينة .
هذه الأدوار وأخرى حافظت على بقاء الزاوية وأهمية وظائفها لأكثر من 160 سنة منذ تأسيسها وبإمكانياتها البسيطة بقيت محافظة على مكانتها وسمعتها ودورها الذي أنشئت من أجله داخل المجتمع .

إنّ الزوايا في الجزائر يغلب عليها الطابع التقليدي سواءًا في التدريس أو غيره لذا فالطلبة لا يمكن تسييرهم على الطريقة الماضية وحدهم ولا يمكن إبعادهم عن زمن التكنولوجيا والحداثة والتطور وطرق التدريس الحديثة حتى لا تتعرض هذه الزوايا للإختفاء فيجب تجهيزها بما يليق بها فإنّ إحداث ما يخدم مردوديتها خصوصا في المجال التربوي لا يجعلها إلاّ أن تؤدي رسالتها على أحسن وجه أكثر من أي وقت مضى،أعطت كذلك للمرأة حقها في التعليم ولم تهمش بدليل تقديم دروس خاصّة للنساء في إحدى الكتاتيب القرآنية التي تشرف عليها الزاوية ووفق برنامجها التعليمي.

من خلال ما تم التوصل إليه حول الفرضيات الثلاث اتضح لنا أن للزاوية العديد من الأدوار أين يظهر دورها الاجتماعي في الإصلاح بين الناس وحل النزاعات وعقد القران كمشروع الزواج الجماعي والمحافظة على العادات، أما دورها الديني والتربوي يتمثل في دعوتها للتمسك بالدين وتحفيظ القرآن وترسيخ القيم الأخلاقي وتشجيعها لطلب العلم من خلال الاستفادة من الكتب الموجودة بمكتبتها، بالإضافة إلى تنظيمها لحلقات التوعية سواء منها الدينية أو التربوية.

الخاتمة:

موضوع دراستنا تطرق إلى دور زاوية الأبيض سيدي الشيخ التربوي والاجتماعي وبوجه خاص في المجتمعات الحضرية، كدراسة ميدانية من الناحية التربوية والاجتماعية، حاولنا أن نقدم نظرة عن دورها في الحاضر، مع إعطاء نبذة تاريخية لماضيها، فكانت تتراجع أحيانا وأحيانا تتقدم كل هذا جعلها تحافظ على بقائها بحكمة فقامت بأدوارها الاجتماعية والتربوية في ظروف صعبة ولأن الكثير من الزوايا هدمت ولم يبقى منها في الوقت الحالي إلا ما يقال أو يكتب عنها.

فلقد عملت منذ تأسيسها حتى وقتنا هذا على مواكبة مستجدات العصر وكانت في كل مرة تدخل مناهج وهياكل جديدة قصد التعديل والإصلاح ولتحافظ على مكانتها الاجتماعية وتواكب التحديات الخارجية، وها هي الآن تعتبر مركز إشعاع ثقافي وحضاري يقصدها الناس من كل جهات الوطن، إما للزيارة أو للدراسة أو لغيرها من الاحتياجات التي تقدمها الزاوية، ورغم هذا فإنها لم تسلم من انتقادات وكلام تفوه به البعض الذين يتهمونها بأنها مقر للبدع والخرافات ومتناسين ومتجاهلين كلّ ما قدمته من خدمات للمجتمع.

فلقد كانت الزاوية أكبر من هذا وأثبت لهؤلاء ذوي الفهم الخاطئ لدورها أنّ معرفتهم لها معرفة سطحية وأثبتت لهم العكس مع مرور الزمن من خلال ما تقدمه من أدوار، لأنه من غير المعقول أن تقدم الزاوية كل هذه الأدوار بما فيها الاجتماعية والتربوية وأن تدفع الكثير من أجل الوطن عبر السنين وفي الأخير يقال عليها هذا.

ولو كانت الزاوية حقًا على غير هذا النهج فكيف تبقى هذه المدّة الطويلة تقدم منذ تأسيسها وبإمكانياتها البسيطة بقيت محافظة على مكانتها وسمعتها ودورها الذي أنشأت من أجله داخل المجتمع، وإذا كان الاعتقاد السائد اليوم أن زمن الزوايا ولى وأن المهام التي وكلت نفسها بها في الماضي قد أصبحت من مهام الدولة الحديثة,فإن الحقيقة في نظرنا غير ذلك إذ أن مهمتها الاجتماعية ما تزال قائمة في توحيد الجهود من اجل خدمة المصلحة العامة والعليا للوطن.

من خلال كل ما سبق ضمن هذه الدراسة المتواضعة التي تعد بالنسبة لنا نقطة بداية لا أكثر وتصحيح لمعلوماتنا المنهجية بالدرجة الأولى ، أردنا أن نسلط الضوء على ما

يحدث وما يحيط بالأضرحة ومن ممارسات طقوسية وكيفية محافظة ضريح سيدي الشيخ على كتلة التاريخية على مدى قرون من الزمن ، حين توصلنا بعد تتبعنا لجملة من الخطوات المنهجية التي يتطلبها البحث العلمي عامة والتي تعلمناها طيلة فترة مشوارنا الدراسي في ميدان علم الاجتماع إلى الإثبات النسبي لصحة ما افترضناه حول واقع الظاهرة محل الدراسة، والمتمثلة مجملا في أن الأضرحة بقيت محافظة على كأنها لها نفس الدور الذي كانت عليه من القدم وتجلى لنا ذلك من خلال الموسم السنوي (ركب سيدي الشيخ) للضريح المقام كل سنة والتمسك الروحي للزوار إلى جانب الاعتقاد ببركة الولي، كما كان اختيارنا الضريح سيدي الشيخ لوزنه ومكانته في قلوب الزوار وتعلقهم به والتي تدل على الاعتقاد بوجود قوة قاهرة وفاعله له تأثير كبير على الأفراد والمجتمع.

لقد لاحظنا إن هذا الضريح له أبعاد دينية تاريخية، ثقافية واجتماعية ونفسية فقد تحدثنا على الطرق الصوفية والزوايا باعتبارها مؤسسات ثقافية الوحيدة المسيطرة على الفكر الديني والواقع الاجتماعي والثقافي ودورها في إبراز شخصية الولي الصالح كما تطرقنا إلى حياة سيدب الشيخ وأهم نقاط حياته التي ميزته في مشواره الحياتي ونر أن ضريح سيدي الشيخ أصله بناء من الحجر يمثل صورة دائمة ومقصودة لديمومة الرمز المقدس الممثل في شخصيته البارزة كقوة حاضرة ودائمة لأن المعتقدان كأفكار يمكن أن تضمحل وسلامي ما لم تتجسد على الواقع برموز ثابتة وتعبير حي.

إن الطرق الصوفية القائمة بذاتها وبأشكالها الحالية تدعم العديد من الظواهر والأنماط الثقافية التي توجه الأفراد وجهة خاصة في المجتمع، وهي من هذا المنطلق تعد تأكيد ورجوع غلى ميراث المهن والمكانات لبعض الحرف كالتاجر المتصوف والمنشد الديني وخادم الضريح وغيرها، بالإضافة إلى الرؤية الغيبية للواقع الاجتماعي.

في بعض الأحيان راينا أن الانتماء الصوفي هو نتيجة لوجود قاعدة دينية أو حماسة دينية هادئة لدى الأشخاص نتيجة تربية دينية معينة، وهي بالتالي بديل للحماسة الدينية التي تخلقها الجماعات إسلامية الأخرى، فالتصوف هو إذن تجربة روحية عميقة يميل غليها اشخاص ذوي طبيعة وتربية دينية خاصة، تنتهي برؤية دينية خاصة لا يستطيع أي

شخص تحقيقيها مهما كانت التجربة لأنها تتطلب ممارسة روحية شاقة أو رحلة صعبة المنال 'الحركة مع الله رحلة'.

إنها رحلة نفسية وفكرية وثقافية واجتماعية وروحية رحلة المقامات والأحوال كما يقول المتصوفة وقد يكون النزول بهذه التجربة إلى العامة بمثابة إفراغها من محتواها دون الممارسة الحقيقية لفروضها و شروطها.

إن النزعة الصوفية لدى بعض الأشخاص هس ميل طبيعي وهي ميل للتطبيق الصارم والفعلي للأخلاق الدينية والأعمال الخيرية والتواضع والابتعاد عن الملذات والرغبات النفسية والتعاون مع الآخرين ومساعدتهم، هذه النزعة قائمة في الإنسان وتوجه حياته الاجتماعية، لقد كثر الإقبال على الزوايا التي عرفت تطورا كبيرا، وهي مؤسسات قائمة بذاتها تستقبل 'الطلاب' وتقوم بتحفيظ القرآن وتدريس العلوم الدينية، كما تقد للطلبة الطعام وتوفر لهم الإقامة مجانا، لقد عرفت هذه المؤسسات انتشارا واسعا خلال هذه السنوات الأخيرة[1].

إن الأضرحة والزوايا كان هدفها الحقيقي واضح من خلال تحقيق الروابط الاجتماعية بين أفراد المجتمع وفرض نفسها كمعلم تاريخي وعمراني رغم تطور وما شهدته مدينة الأبيض سيدي الشيخ من تطور عمراني إلا أنها زينت المدينة ومازالت مسيطرة على لطابع العمراني.

[1] بن عتو بشير، المرجع السابق، ص ص 354 -355.

المصادر:

1 – سورة الأنفال

2- سورة الشورى، الآية 23.

3- سورة الأحزاب، الآية 5.

4- سورة الشعراء، الآية 214.

5- سورة النساء، الآية 36.

6- سورة البلد، الآية 15.

المراجع باللغة العربية:

1- بن محمد الميلي مبارك، رسالة الشرك و مظاهره، دار البعث الجزائر، الطبعة الثالثة،1982

2- نور الدين زاهي، المقدس الإسلامي، دار توبقال، المغرب، ط1، 2005

3- روجيه كايو، الإنسان و المقدس، تر: سميرة رشا، المنظمة العربية، للترجمة، بيروت، ط1، 2010

4- فاروق مصطفى، المواليد، دراسة للعادات و التقاليد الشعبية في مصر، دار بورسعيد، مصر، 1980

5- انتونى جيدنز ، علم الاجتماع : تر فايز الصياغ ,المنظمة العربية للترجمة بيروت، مؤسسة ترجمان عمان، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2005 .

6- محمد عبيرات ، محمد أبو نصار ، منهجية البحث العلمي، دار وائل للنشر ، الأردن، ط2، 1999 .

7- فان دالين، مناهج البحث في التربية و علم النفس ، ترجمة محمد نبيل نوفل و آخرون، القاهرة مكتبة الانجلو المصرية، ط5 ، 1994

8- عبد الرحمن عدس ، أساسيات البحث التربوي ،عمان ، دار الفرقان، ط3، 1999

9- حسن الساعاتى ، تصميم البحوث الاجتماعية، دار النهضة العربية ، بيروت، ط4، 2003

10- يحي بوعزيز، أوضاع المؤسسات الدينية في الجزائر خلال القرنيين 19 و 20.

11- الطاهر زرهون، التعليم في الجزائر قبل و بعد الاستقلال ، المؤسسة الوطنية للفنون الطبيعية، وحدة الرعاية الجزائر ، 1994.

12- عبد الله عبد الغنى غانم، قراءات و تطبيقات في طرق البحث الأنثروبولوجي، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، ط1، 2004.

13- محمد عبده محجوب و آخرون، تخطيط و تطبيق البحوث الانتروبولوجية، دار المعرفة الجامعية الإسكندرية، 2008.

14- رابحي مصطفى عليان، عثمان محمد غنيم، مناهج و أساليب البحث العلمي، دار صفاء للنشر و التوزيع، عمان، ط 1، 2000

15- موريس أنجرس، منهجية البحث العلمي في العلوم الإنسانية، تدريبات عملية، تر : بوزيد صحراوي، كمال بوشرف، سعيد سبعون دار القصبة، الجزائر، 2006

16- محمد الجوهري و آخرون ، الانتروبولوجيا الاجتماعية قضايا الموضوع و المنهج ، دار المعرفة الجامعية ، مصر، 2004.

17- يحي بوعزيز، موضوعات و قضايا من تاريخ الجزائر العرب ، ج1 دار الهدي للنشر و الطباعة و التوزيع الجزائر ، 2004

18- حسن احمد الشافعي، سوزان احمد هريس ,معايير نقد الرسائل العلمية ، دار الوفاء للطباعة و النشر مصر، 2003

19- الدكتور إبراهيم ابراش، البحث الاجتماعي، قضاياه مناهجه اجراءاته، مراكش منشورات كلية العلوم القانونية و الاقتصادية و الاجتماعية ، سلسلة الكتب 10، 1994

20-ابو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ط1، ج1 المؤسسة الوطنية للطباعة، الجزائر، 1985

21- ابن منظور، لسان العرب، المجلد العاشر ، دار الطباعة و النشر، بيروت، 2005

22- ابن ابى بكر الرازي ، مختار الصحاح ، المطبعة الكلية ، مصر، ط1، 1329 ه.

23-عبد القادر الشطي ، السلفية الوفية ، مذهب اهل الحق الصوفية دار هومة ، الجزائر ، 2002.

24- محمد نسيب، زوايا العلم و القرآن بالجزائر, دار الفكر ، الجزائر، 1998.

25- صلاح مؤيد العقبى، الطرق الصوفية في الجزائر تاريخها و نشاطها، بيروت، 2002.

26-رابح تركي، التعليم القومي والشخصية الجزائرية، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، ط 2، الجزائر، 1981.

27- تفسير القرآن العظيم للإمام الجليل الحافظ عماد الدين بن كثير القريشي ،دار الفكر للطباعة و النشر، الجزء السادس ، الطبعة الأولى، 1980.

28- الكشاف لابن عمر الزمخشري الخوارزمي، دار المعرفة، بيروت،لبنان الجزء الثالث.

29- الجامع لأحكام القرآن الكريم القرطبي، دار أحياء التراث العربي، الجزء الخامس، بيروت، 1985

30- الانسان دراسة في النوع و الحضارة لمحمد رياض، دار النهضة العربية للطباعة و النشر و بيروت، لبنان و الطبعة الثانية، 1974.

31- الأنثروبولوجية البنيوية، أوجه الاختلاف خلال أبحاث ليفي ستراوس محمد بن حمودة ،دار محمد علي الخامس لنشر ، صفاقس تونس ، الطبعة الأولى، 1987

32- مقدمة في الأنثروبولوجيا العامة، راد بيلزهاري حمو يجر ، ترجمة محمد الجوهري و محمد الحبي، نهضة مصر للطباعة و النشر و التوزيع ، القاهرة ، الجزء الأول

33- مدخل إلى الأنثروبولوجيا، جاك لومبار، ترجمة حسن فنيسي ، المركز الثقافي العربي ، الطبعة الأولى، 1997.

34- ياربونت و ميشال ايزار و آخرون ، معجم الأنثروبولوجيا و الاثنولوجيا ، ترجمة و إشراف مصباح الصمد، المؤسسة الجامعية للدراسة و النشر و التوزيع، مجد بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 2006

35- ابن منظور ، لسان العرب، دار صادر، بيروت، المجلد الأول، الطبعة الثالثة ،1993

36- يحي بوعزيز، موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر العرب ، ج1، دار الهدى للنشر والطباعة والتوزيع ، الجزائر 2004

37- عبد المجيد مزيان، النظريات الاقتصادية عند ابن خلدون، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، 1981

38- محمد خالد، المقدس و العنف في التجربة الصوفي، إنسانيات، مركز البحث في الأنثروبولوجيا الثقافية و الاجتماعية، وهران العدد 11 ، ماي 2000.

39- مهدي محمد القصاص، علم الاجتماع الديني كلية الآداب جامعة المنصورة، مصر،2008

40- يوسف طه محمد زيدان، الطريق الصوفي و فروع القادرية بمصر، دار الجيل، بيروت

41- يوسف شلحت، نحو نظرية جديدة في علم الاجتماع الديني دار الفرابى، بيروت، ط1، 2010

المراجع باللغة الأجنبية:

1-SCHIK .THEODORE and VAUGHIN LEWIS: how to think about weird things critical thinking for new age Boston 2002.

2-EDMAND DOUTE, notes sur l'islâm Maghrébin- Ernest le roux Edition, Pris 1990.

3-LOUIS RINNE, Marabout et Khouan Adolphe-JOURDAN, éditeur Pris 1829.

4- Y VONNE TURIN, Affrontements Culturels Dans l'Algérie, coloniale -école médecine religon-1830/1870 Année 1978.

5- GEOFFREY Eric .Initiation au soufisme ; op. Ct.

6- De neveu capitane :Khouan ; les ordres religieux chez les ordres religieux chez les Musulmans ;éditions ;Ernest les Roux ;Paris ;1846

7- DEPONT.O.et coppolani (x) : les confréries religieuses musulmanes.

المذكرات:

1- عبد العزيز راس مال، البداوة و المجتمعات المستحدثة في الجزائر، أطروحة دكتوراه كلية العلوم الإنسانية و الاجتماعية، جامعة بوزريعة، 1987/1986

2- احمد بن الشين، الطريقة التجانية بين الماضي و الحاضر ، دراسة اجتماعية من خلال زاوية عين ماضي بالأغواط ، رسالة ماجستير ، كلية العلوم الإنسانية جامعة الاغواط .

3- فراح زينب، الزيارة النسوية للأضرحة، مخطوط لنيل شهادة الماجستير، جامعة وهران، 2011

4- راضية وعلي ، المرأة الجزائرية و زيارة الاضرحة " دراسة سوسيو انثروبولوجية لمنطقة شرشال " مذكرة لنيل شهادة الماجستير في علم الاجتماع ، جامعة سعد دحلب، البليدة، 2007-2008.

5-المهتاري فائزة، أضرحة الأولياء في الغرب الجزائري " دراسة تاريخية و معمارية من خلال بعض النماذج، مخطوط أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه، جامعة أبى بكر بلقايد تلمسان، إشراف : معروف بلحاج ، 2005- 2006.

المجلات:

1- فكر ونقد بن محمد قسطاني، ملف اللغة العربية، العدد 24، 1999.

2- مجلة الدراسات الإسلامية الصادرة عن المجلس الإسلامي الأعلى، الجزائر، العدد 2، ديسمبر 2002

3- مجلة الأصالة، الحقيقة عن دور زاوية صدوق و الاخوان الرحمانيين في ثورة 1871، عدد خاص، 1973 .

4- مجلة العصور، العدد الثاني.

5- المنتدي الإسلامي، مجلة البيان الإسلامية، دمعة علي التوحيد، مطبعة النرجس، الرياض، ط1، 1999

6- طيب جاب الله، معارف (مجلة علمية محكمة ، كلية العلوم الاجتماعية جامعة البويرة، أكتوبر، العدد 14، 2013.

7- محمد عجيلة، الجيلالي بهان ، مصطفي عبد النبي مجلة الواحات للبحوث و الدراسات العدد 15 2011

8- قلوم مكي، الزوايا في غياب السلطة، جريدة الحقيقة العدد 1

9- الصالحين الحقيقي ، دور التعليم الديني في الحفاظ على التراث ، مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة ، مطبعة البحث العدد 23، 2004.

المحاضرات والمنشورات:

1- ابن تيمية، الفرقان بين أولياء الرحمن و أولياء الشيطان ، منشورات محمد علي بيضون لنشر كتب السنة والجماعة، دار الكتب العلمية،2000

2- سعيدي محمد، من اجل تحديد الاطار المعرفي والاجتماعي للمعتقدات والخرافات الشعبية، مطبوعات مركز الأبحاث في الانتروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، جوان، 1995.

3- عماد حسين عبيد المرشدي، محاضرة عن الفرضيات بجامعة بابل.

مواقع الأنترنت:

http : / ar .Wikipédia- arg /wikid9-85 d90 من ويكيديا الموسوعة الحرة :

2http: abstract – ملتقي عن التصوف و فقه التحرر

PDF

- الموسوعة الميسرة في الأديان و الأحزاب المعاصرة ، الندوة العالمية للشباب الإسلامي ، موقع
www.alkachef net .ww.saaid.net.

جامعة بوزريعة
كلية العلوم الإجتماعية والإنسانية
قسم علم الإجتماع

مقابلة

في إطار إعداد مذكرة الدكتوراه بعنوان
"علاقة الزاوية بالأضرحة بمدينة الأبيض سيدي الشيخ "

نتقدم إليكم بالإجابة على الأسئلة المطروحة بالبحث، ونحيطكم علما أن كل النتائج تستخدم لفائدة البحث العلمي في الجزائر.

إعداد الطالبة
الدكتور
خذيري عبلة
حقيقي

إشراف الأستاذ

نورالدين

- السؤال الأول : من هو مؤسس زاوية الأبيض سيدي الشيخ ؟
- السؤال الثاني : متى تأسست زاوية الأبيض سيدي الشيخ ؟
- السؤال الثالث: ما هو الانتماء الديني للزاوية ؟
- السؤال الرابع : من هم أعلام هذه الزاوية؟
- السؤال الخامس:على يد من أخذ الشيخ المؤسس للزاوية طريقته؟
- السؤال السادس: ماهو أصل هذه الطريقة الدينية؟
- السؤال السابع:كيف سيطر الشيخ على منطقة سيدي الشيخ؟
- السؤال الثامن : كيف ساهمت الزاوية في الحرب التحريرية؟.
- السؤال التاسع:كيف تطورت الزاوية مع العصور ؟وما هي القبائل التي تكونها؟
- السؤال العاشر:كيف توزعت القبائل المكونة لها حالا؟.
- السؤال الحادي عشر: ماهو التفسير لوجود عدة قبب بزاوية الأبيض سيدي الشيخ ؟
- السؤال الثاني عشر: من أين تستمد العلاقات الاجتماعية في الزاوية؟
- السؤال الثالث عشر:كيف يتم التسيير الإداري للزاوية؟
- السؤال الرابع عشر: ماهو السر وراء استمرار زاوية الأبيض سيدي الشيخ؟
- السؤال الخامس عشر: من هم المكلفين بالتعليم وتحفيظ القرآن بالزاوية
- السؤال السادس عشر: ما هي شروط التحاق الطلبة بزاوية الأبيض سيدي الشيخ؟
- السؤال السابع عشر ما هو النظام الداخلي للطلبة داخل الزاوية؟
- السؤال الثامن عشر الوسائل المستعملة للتدريس بالزاوية؟
- السؤال التاسع عشر : ما هو محتوى البرنامج التربوي والتعليمي للزاوية؟
- السؤال العشرون:ماهي القواعد الأساسية لحفظ القرآن الطريقة الجديدة بالزاوية؟
- السؤال الواحد و العشرون : ما هي المواد المقررة للتدريس بزاوية الأبيض سيدي الشيخ؟

جامعة بوزريعة
كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية
قسم علم الاجتماع

استمارة

في إطار إعداد مذكرة لنيل شهادة الدكتوراه بعنوان
"علاقة الزاوية بالأضرحة المجاورة بمدينة الأبيض سيدي الشيخ "

نتقدم إليكم بالإجابة على الأسئلة المطروحة بالبحث، ونحيطكم علما أن كل النتائج تستخدم لغرض تطوير البحث العلمي في الجزائر.

إعداد الطالبة
الدكتور
خذيري عبلة
حقيقي

إشراف الأستاذ
نورالدين

السنة الدراسية:2013-2018

ضع علامة (×)داخل الخانة التي تتناسب مع إجابتكم

س1: الجنس: ذكر □ أنثي □

س3:السن: □ س 4 :المهنة.....

س5: المستوى التعليمي:

أمي □ إبتدائي □ متوسط □ ثانوي □ جامعي □ دراسات عليا □

س6: الحالة العائلية : أعزب(ة) □ متزوج (ة) □ مطلق (ة)□ ارمل (ة) □

س7:كيف تعرفتم على مكان الضريح بحكم اقامتكم في المنطقة□ سماعكم عن الضريح □

س8:في حال سماعكم ممن سمعتم ؟ صديق □ قريب □ وسيلة اعلام □ اخرى

- ما هي.....

س9:جميع افراد اسرتكم يتوجهون لزيارة الضريح ؟ اناث فقط □ذكور فقط □ اناث و ذكور □

س10:تتحاورون مع افراد اسرتكم في مواضيع تتعلق بالأضرحة مثلا ؟

نعم □ لا □

س11:كيف تعرفت على ضريح سيدي الشيخ ؟

.....

.....

س12:لماذا جئت اليوم الى زيارة الولي سيدي الشيخ ؟

.....

س13:تاتون لزيارة الضريح و انتم مرضى ام عندما تكونون في صحة جيدة ؟

في حالة المرض □ بصحة جيدة □

س14:عندما تقتربون من الضريح تقومون ب : بالترحم عليه □ ام تطلبون بركته

س15:تشعرون بنوع من الخوف في حالة عدم تبرككم بها؟

غالبا ☐ دائما ☐ احيانا ☐ ابدا ☐

س16:اذا كنتم تشعرون بذلك لما تريدونه ؟

.....

س 17: من اين نقلتم هذه الممارسة أي التبرك ؟ من اجدادكم ☐ ابائكم ☐

اناس لا تعرفونهم ☐

س 18 : هل تزور كل الاولياء المتواجدين في المنطقة ؟

.....

س19: عند وصولك من هو اول ولي تزوره ؟

.....

س20: في رايك هل زيارة الولي سيدي الشيخ ؟

- واجب ديني ☐
- عادات و تقاليد ☐

س21: ماهي الاوقات المفضلة لزيارة الضريح ؟

الفترة الصباحية ☐ المسائية ☐ ليس هناك وقت محدد ☐

س22 : هل سبق لكم و ان حضرتم الموسم السنوي للضريح ؟

نعم ☐ لا ☐

س23 : تلتزمون تلك الاحتفالات احياءا للتقاليد ام ان هناك سببا اخر **؟**

احياءا للتقاليد ☐ هناك سببا آخر ☐ ما هو **؟**

.....

س 24: حضوركم الموسم ؟ اختياري ☐ الزامي ☐

وشكرا

ملحق رقم (2): عرض دليل المقابلة الموجهة:

تاريخ المقابلة 3 جوان 2015
مدة المقابلة: ساعة واحدة
مكان المقابلة: الزاوية القرآنية لسيدي الشيخ

اجراء المقابلة مع : مقدم زاوية سيدي الشيخ و القائم على شئونها .
س1 : هل بإمكانكم ان تحدثونا عن حياة سيدي الشيخ ؟
ج 1 : ينتمي سيدي الشيخ الى نسب ابو بكر الصديق هو من اولياء الله الصالحين حارس المنطقة و حاميها .

س2 : ما هي شروط الزيارة او ما الذي يتوجب على الزائر القيام به ؟

ج2 : اخلاص النية و اخلاصه للولي فمن جاء لزيارة بنية حسنة ينال البركة و يذهب و حاجته مقضية .

س3 : حدثونا عن وعدة سيدي الشيخ (ركب) ؟

ج3 : هي وعدة تقام في شهر جوان من كل سنة يجتمع فيها اولاده و احبابه و المريدون , فيطعمون الطعام , و يتزاورون ببعضهم البعض.

س4 : كيف تشرفون على مثل هذه المناسبة السنوية ؟ و هل هناك من يساعدكم ؟

ج4 : المشرف الاول مشايخ الزاوية يجتمعون و يساعده اعيان الزاوية و مريدوها و يحددون البرنامج من الاكل و الاطعام و المرقد و كل شيء لاستقبال الزوار , اما المساعدات فتاتينا من المريدون و المحبون لهذا الولي .

س5: هل حدثتمونا عن مختلف الفئات التي تزور الولي سيدي الشيخ ؟

ج5 : كل الناس تأتى الى زيارة هذا الولي , يأتون رجالا و نساء اطفالا و شيوخا لكن الفئة الاكثر حضورا هي النساء , ايضا المرضي و الاصحاء و حتى المثقفون بما في ذلك كبار المسؤولين من وزراء و اطارات.

س6 : وجدنا ان الزوار ينامون داخل القبة لماذا في رايكم ؟

ج6 : اغلبهم مرضي يبحثون عن الشفاء و سيدي الشيخ يقال كل من زاره يشفى و يتعاف يكانهم يرتاحون نفسيا عندما ينامون داخله .

س7 : الزوار يعطونك مباغ من الدراهم ما هو تفسيرك في ذلك ؟

ج7 : تلك النقود نسميها الزيارة هي بركة من الناس لهذا الولي رغم انه مبلغ زهيد و بسيط كل حسب قدرته , و نحن بالمقابل ندعوا له و ان الولي رضي عنه.

س 8: تلك النقود عندما تضعونها في صندوق الخاص في القبة بعد ذلك ماذا تفعلون بها ؟

ج 8 : انت تعرفين ان الزاوية ليس لها دخل معين تلك النقود نساعد بها طلبة العلم و الزوار و المساكين من اكل و شرب و ملبس و هنا تظهر اهمية الزاوية في مساعدتها للمحتاجين و الفقراء.

دليل المقابلة